صُورة الآخر في الشعر العربي

من العصر الأموي حتى نهاية العصر العباسي

الدكتور
سعد فهد الذويخ

طبع بدعم من وزارة الثقافة
2008

صُورَةُ الآخَر

في الشّعر العربي

من العصر الأموي حتى نهاية العصر العباسي

الدكتور

سعد فهد الذويخ

طبع بدعم من وزارة الثقافة

2008

الطبعة الأولى

2009 - 1430

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(2008 /6/2016)

810.9

الذويخ، سعد فهد

صورة الآخر في الشعر العربي من العصر الأموي حتى نهاية العصر العباسي/سعد فهد عيطان الذويخ.- إربد: عالم الكتب الحديث، 2009.

(   ) ص

ر. إ.: (2008 /6/2016)

الواصفات:/النقد الأدبي التحليل الأدبي//الشعر العربي

* أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف

الآراء الواردة في الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الجهة الداعمة.

عالم الكتب الحديث

Modern Book

للنشـــر والتـــوزيـــع

إربد- شارع الجامعة- بجانب البنك الإسلامي

تلفون: (00962 -27272272) خلوي: 5264363 /079 فاكس: 00962 -27269909

(21110) :البريدي الرمزي (3469) :البريد صندوق

البريد الإلكترونيalmalktob@yahoo.com

almalktob@hotmail.com

almalktob@gmail.com

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
• رابعاً: الشعُوبيَّة والنزعة الكسروية	90
- مظاهر الشعُوبيَّة في الشعر الأموي	97
- الصراع الشعري بين العرب والموالي	105
- بشار بن برد وهجاء العرب	110
- تمرد أبي نواس وشعوبيته	114
- شعوبيون مقلون	118
الفصل الثالث **"الرُّوم والترك في الشعر العربي"**	123
• أولاً: العــرب والرُّوم.	125
- صراع العرب مع الرُّوم وأثر ذلك في الشعر.	133
- وصف جيش الروم، فداء الأسرى، شعر الوفود، شعر الخصومات السياسية.	139
• ثانياً: النـفوذ التُّركي والتمثيل الشعري	158
• ثالثاً: السود والشعر العربي.	170
- نفي الآخر الأسود في الشعر العربي.	170
• رابعاً: صــدى ثورات الآخر وتـمرده في الشعر العربي.	174
الفصل الرابع **"الأحباش والزِّطُّ والزِّنوج والأمم الأخرى"**	181
• أولاً: العرب والأحباش	183
- نسبهم وصفاتهم	185

الموضوع	الصفحة

المقدمة

تهدف هذه الدراسة إلى تناول صورة الآخر، في الشّعر العربي، مُنْذُ العصر الأَموي- عصر تأسيس الدولة العربية، وتغليب الجنس العربي وتفوقه على غيره من الأجناس، إلى نهاية العصر العباسي، عصر الانفتاح الثقافي والفكري، وامتزاج الأجناس، وتعدد الهُوِّيات، ونفوذ الآخر، في مقابل انحدار الذات العربية وانكماشها.

وتبحث الدراسة في تجليات صورة الآخر وتمثيلاته في الشعر العربي، كالفارسي والرّومي والتركي،...، ومفهوم الآخر نسبي ومطّاط، إذ تتعدد مدلولات الآخر وتتشعَّب، فقد يشير الآخر إلى كل ما اختلف عن الذات في الجنس، الطبقة، المجتمع، فالذكر يمثل الآخر بالنسبة للأنثى: الفرد والجماعة، الفقير والغني، السيِّد والعبد،...، والمقصود بالآخر في هذه الدراسة هو غير العربي، وتحديداً، من لم يصل نسبه بقبائل العرب، وهو ما أُطلق عليه: الأعاجم، من فرس وروم وأحباش وغيرهم، وتَجلَّى البحث زمنياً في شعر العصرين الأموي والعباسي، أزهى عصور الدولة العربية على ما بينهما من اختلاف وافتراق في حضور الآخر وفاعليته، فالبحث في صورة الذات والآخر ومسألة الهُويّة والاختلاف في سياق الفكر العربي الإسلامي ضمن دائرة الشعر العربي يمثل الأفق الذي يدور فيه البحث.

ومنذ البدء كان أثر الإسلام عظيماً في الفكر والثقافة، فقد وحَّد العرب والمسلمين، ودشَّن الاعتراف بالآخرين، ضمن هُويّة دينية انصهرت فيها الأعراق والأجناس، فدعا الإسلام إلى خلخلة ثنائية الأنا

والآخر، وحارب الاعتداد بالأعراق والأنساب، وحث على الانفتاح على العالم وتجسيد الهُويّة الدينية، وظهرت ثنائية: المسلم والكافر في مقابل ثنائية العربي والعجمي في العصرين الأموي والعباسي.

وأمَّا مصادر الدراسة ومناهلها فمتعددة، فمنها دواوين الشعر العربي فهي تستقي صورة الآخر من أكثر من أربعين ديواناً ومجموعاً شعرياً، بدءاً من أدب الفتوح الإسلامية، وشعر الحرب مع المشركين، يضاف إلى ذلك كتب التاريخ والأدب والتراجم، والمعاجم اللغوية، وكتب الأدب والسير.

وتحاول الدراسة الإجابة عن مجموعة من التساؤلات الرئيسة، ومنها:

- ❊ كيف عملت الثقافة العربية ممثلة بالشعر العربي على استحضار الآخر وتقديمه؟
- ❊ هل تُعد صورة الآخر حاضرة في الشعر العربي؟ وما دلالات هُويّة الذات وهُويّة الآخر في الشعر؟
- ❊ كيف تبدو صورة: الآخر الفارسي والرّومي والتركي في الشعر العربي؟
- ❊ كيف جسَّد الصراع الشعري بين العرب والأعاجم مسألة الهُويّة والاختلاف؟
- ❊ ما صدى ثورات الآخر على الشعر العربي؟

وتقع الدراسة في أربعة فصول تُسبق بمقدمة، وتنتهي بخاتمة.

فقد يعرض الفصل الأول إلى مسألة: الأنا والآخر والعلاقة بينهما في إطار الهُويّة والاختلاف، والعلاقة الجدلية بين الأنا والآخر في

الدراسات النفسيّة والأدبية، ومدى التأثر والتأثير بين ثقافة الذات العربية، وثقافة الآخر، وصورة الآخر في ثقافة العرب، والمنظور الإسلامي والديني للآخر.

ويتناول الفصل الثاني صورة الفرس والنبط في الشعر العربي، من حيث طبيعة علاقة العرب بالموالي، ونظرة العرب للموالي في العصر الأموي ومسألة زواجهم من المرأة العربية، وأوضاعهم الاجتماعية والسياسّية، ونظرة الازدراء والتهميش من قبل العرب وصورة النبط في الشعر العربي، وأثر الرقيق في الحياة العربية، فقد حظيت المرأة الأعجمية/ الجارية باهتمام الشعراء.

وأما هُويّة الآخر فبرزت منذ آخر العصر الأموي، وتمثلت في الشعُوبيَّة، ولذلك عَرْضتُ لمظاهر الشعُوبيَّة في شعر العصر الأموي، مثل كسروية اسماعيل بن يسار، ثم عرضت للصراع الشعري الذي احتدَم بين العرب والآخر في العصر العباسي، وخصصت جزءاً من هذا الفصل لدراسة شعوبية بشار، وتمرد أبي نواس.

ويدرس الفصل الثالث صورة الآخر الرّومي والتركي، ويبين طبيعة العلاقة القائمة على العداء بين العرب والرّوم، من خلال دراسة صراع العرب مع الرّوم وأثره في الشعر العربي، من حيث: وصف الجيوش، وصور الفداء، وشعر المناظرات بين العرب والرّوم.

وصورة الترك ونفوذهم في العصر العباسي الثاني، وكان للسود نصيب من الدراسة، ونفي الآخر الأسود في الشعر العربي، من حيث سلبه معاني الكرامة والإنسانية، وصدى ثورات الآخر، كثورة الزنج وغيرها من حركات تمرد الآخر، وتجلياتها في الشعر العربي.

ويدرس الفصل الرابع صورة الأحباش والزط في الشعر العربي، وتمثلت هذه الصور بالضبابية وعدم الوضوح، وهي في معظمها صورة سلبية، وردت في معرض الهجاء، أمّا ثورة الزنج فقد درست أثرها في الشعر العربي من خلال خطاب ابن الرّومي وتصويره.

ويدرس مظاهر من حضارة الآخر في الشعر العربي كالاحتفال بالأعياد الأجنبية- ولاسيما الفارسية- ووصف الساقية الأعجمية، ومظاهر التسلية والألعاب التي نقلت من آثار الآخر وحضارته، كما حللت الدراسة أثر الآخر الهندي، من خلال التأثر والتأثير بين العرب والهند.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفصل الأول

"الأنا والآخر بين الهُويّة والاختلاف"

- أولاً: الأنا والآخر في الدراسات الأدبية والنفسّية.
- ثانياً: الذات العربية عبر الحدود.
- ثالثاً: ثقافة الذات وثقافة الآخر.
- رابعاً: الهُويّة والاختلاف.
- خامساً: التصور الإسلامي للآخر.
- سادساً: الآخر في الثقافة العربية.

6

الفصل الأول

"الأنا والآخر بين الهُويّة والاختلاف"

أولاً: الأنا - الآخر في الدراسات الأدبية والنفسّية

تتكون الشخصية الإنسانية من: الأنا/ الذات، فالنفس البشرية هي "الأنا"، والأنا هي الذات (Subject)[1]، وما تحمله من مظاهر وخصائص ثقافية أو نفسيّة أو إيديولوجية، وما تشتمل عليه من أفكار، وآمال، وطموحات، وصراعات، وتوترات، وبالتالي فإن الذات تشكّل مركز الشعور عند الإنسان.

ويشير مفهوم الذات إلى أنّه: "ذلك التيار من التفكير الذي يكوِّن إحساس المرء بهويته وذاته الشخصيّة"[2] وتتحقق الذات من خلال التواصل والتداخل في علاقاتها المتشابكة مع الآخر، فطبيعة (الأنا) خبرة شعورية تتجسَّد فيها وظيفة توحيد أشكال وضروب نشاط الإنسان، وتشكّل الذات الأفكار الواعية وغير الواعية، والعواطف التي تشكّل معنى (النحن)، كما أن الوعي بالذات يؤدي إلى تكوين الهُويّة القائمة على الاختلاف والتمايز عن الآخر؛ لأن وعي الجماعة بخصوصيتها وبذاتها يؤدي إلى وعيها بالاختلاف عن الجماعات الأخرى، وبذلك يسود التوازن والانسجام، أو التنافر والاضطراب.

---

(1) ينظر: علاّم، عمرو عبد العلي، **الأنا والآخر، الشخصية العربية والشخصية الإسرائيلية في الفكر الإسرائيلي المعاصر**، دار الحاوم للنشر والتوزيع، (ط1)، 2005، ص 9.

(2) ينظر: أبو زيد، إبراهيم، **سيكولوجية الذات والتوافق**، دار المعرفة الجامعية، 1987، ص 84.

والتفـريق بـين التوازن أو التنافر في صورة الذات وصورة الآخر يقـوم على جانبين: جانب معرفي، وآخر تقييمي[1]؛ وكلا الجانبين يتشكل من خبرات الذات مع نفسها، وخبرتها مع الآخر/ الآخرين، وبذلك فإن (الأنـا) تـشكّل الجهـاز التنفـيذي للشخصية، هذا الجهاز الذي يتحكم في الهـو/ الآخـر، ويديّر شؤونها، وهو الذي يحفظ الاتصال بالعالم الخارجي مـن أجـل مـصالح الشخصيّة كلها ومطالبها البعيدة، وحين ينجز (الأنا) وظائفـه التنفـيذية بحكمـة واعتدال، يسود الانسجام والتوازن، بينما حين يستـسلم (الأنـا) للهو أو الأنا الأعلى، أو العالم الخارجي، ينتج عن ذلك الاضطراب والتنافر[2].

والـذات/ الآنـا هـي مركـز الشخصية في نفس الفرد/ الإنسان، فهـي تـنمو وتفـصح عـن قـدراتها مـن خـلال البيـئة المحيطة أو الوسط الاجتماعـي، ويـبرز الـشعور بالأنا "من خلال تلازم الذات مع الآخر"[3]، وبـذلك فـإن الـذات الجماعـية (الـنحن) تـتحقق عـن طـريق القبيلة، أو المجـتمع، أو الأمّة، فتتحول الذات من إطارها الفردي إلى الإطار الجمعي؛ أي النحن الجماعية، وهذه (النحن) ما هي إلا صورة للأنا الفردية تتحقق في إطـار الجماعـة الـتي تـتشكل من مجموعة من الأفراد يشعرون بالتآلف

---

(1) لبيب الطاهـر، <u>صـورة الآخـر العربـي ناظـراً ومـنظوراً إليه</u>، مركـز دراسات الوحدة العربية، بيروت، (ط1)، 1999م، ص 813.

(2) ينظـر: هـال، كلفـن، <u>أصـول علم النفس الفرويدي</u>، ترجمة: محمد فتحي الشنيطي، دار النهضة العربية، بيروت، (ط2)، 1970م، ص 32.

(3) أبو العينين، فتحي، <u>صورة الذات وصورة الآخر في الخطاب الروائي العربي</u>، ندوة صورة لآخر ضـمن كـتاب: "صـورة العربـي ناظـراً ومـنظوراً إلـيه"، تحرير: الطاهر لبيب، منشورات الجمعية التونسية، 1993م، ص 812- 813.

فيما بينهم، كما يشعرون بالاختلاف والافتراق عن الجماعات الأخرى[1]، فوعي الجماعة بذاتها وخصوصيتها يؤدي إلى إدراك الاختلاف عن الجماعات الأخرى.

ويتحقق (النحن) أو الوعي الجمعي من وجود التواصل بين أفراد جماعة ما قد يكون تشاركياً، أو انتساباً، أو هُويّة محددة، فالإقرار بالذات هو تأكيد على وجود الآخرين، وتظل (الأنا) تحوز استقلالها النسبي داخل ترابط متشابك مع (النحن)[2].وتمثّل القبيلة العربية في العصر الجاهلي نموذجاً ومثالاً على النحن التشاركية، وذات الشاعر- الذي يمثل لسان القبيلة- ما هو إلا تعبير عن نحن القبيلة/ الجماعة، كما تبرز الذات الفردية وتحوز على تفردها واستقلالها عند الشعراء الصعاليك بشكلٍ جلي لإحساسهم وشعورهم بالغربة، والتوحد، والتفرد.

ولا بدّ من الإشارة إلى أن صورة الذات مرآة لصورة الآخر أوَ العكس، فلا وجود "أنا" دون وجود آخر، واستخدام أي منها يستدعي صورة الآخر، فصورتنا عن ذواتنا لا تتكوَّن بمعزل عن صورة الآخر لدينا، ولذلك قيل: "الأنا والآخر مولودان معاً"[3].

وأمّا مفهوم الآخر (other) أو الآخرية (otherness) في منظور علم النفس فيشير إلى[4]: "مجموعة من السمات/ السلوكات

---

(1) المرجع السابق، نفسه، ص 812.
وينظر: سعد، صالح، ازدواجية الفن التمثيلي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد (274)، ص 255.

(2) أفاية، محمد نور الدين، الغرب المتخيَّل صورة الآخر في الفكر العربي الإسلامي الوسيط، منشورات المركز الثقافي العربي، المغرب، (ط1)، 2000م، ص 53- 54.

(3) أبو العينين، فتحي، صورة الذات وصورة الآخر، مرجع سابق، ص 812.

(4) ينظر: علاّم، عمرو عبد العلي، الأنا والآخر، مرجع سابق، ص 12.

الاجتماعية، والنفسية، والفكرية التي ينسبها فرد/ ذات أو جماعة ما إلى الآخرين" مما يحيل إلى أن الآخر حاضر في المجال العام للهُويّة[1].

والآخر قد يكون قريباً أو بعيداً، كما أنه قد يكون فرداً، أو جماعة من الجماعات، أو شعباً من الشعوب بحيث تنتفي علاقة القرب المكاني أو البعد في تحديده، أو علاقات الصداقة والعِداء فقد يكون الآخر قريباً، كما يمكن أن يكون بعيداً، وقد يكون صديقاً، أو عدواً.

وتخضع صورة الآخر لمؤثرات إيديولوجية وسياسية وفكرية وتاريخية؛ فهي متغيِّرة لا تتسم بالثبات أو النمطية، بل تتبدل حسب تلك المتغيرات، ويمكن الاستدلال على الآخر عبر مستويات متعددة[2]: كالجنس/ العِرق، أو عبر مستوى الدين مسلم/ غير مسلم، أو الطبقة الواحدة في المجتمع، سيد/ عبد، أو حتى في المكانة السياسّية حاكم/ محكوم.

وتتكون صورة الآخر تبعاً لأوضاع التفاعل والنشاط المشترك المباشر وغير المباشر بين الجماعات، فالآخر من خلال القبيلة والأمّة- مروراً باللغة والثقافة- هو من وجهةٍ مثالية نموذجية طرفا نزاع أو نفي، ولكن هذه الثنائية مرّت بالفكر والواقع الثقافي والاجتماعي بمراحل مختلفة، وتخللتها وسائط كثيرة تنوّعت معها المسافات وتشعَّبت بين الأنا والآخر بحيث يمكن الحديث عن "تيبولوجيا الآخر ونسق الآخرّية"[3].

---

(1) أفاية، محمد، الغرب المتخيّل، مرجع سابق، ص 17.

(2) ينظر: البزري، دلال، الآخر: المفارقة الضرورية، ضمن كتاب: "صورة العربي ناظراً ومنظوراً إليه"، مرجع سابق، ص 99- 100.

(3) لبيب، الطاهر، صورة العربي ناظراً ومنظوراً إليه، ص 138.

وبالتالـي، فـإن ما يتشكل لدينا من صورة لذواتنا أو للآخرين لا تكـون دائمـاً- في جميـع الحـالات- محـددة ونقيّة، فإذا كانت صورتنا عن الآخـر قـواماً مكـوناً للأنـا/ الـنحن، فـإن صورة "النحن" هي النقطة التي عـندها نـستدرج الـصورة الـتي لنا عن "الآخر" أو الآخرين، والصورة التي للآخرين عنّا نحن[1].

وصـورة الآخـر- غالـباً- مـا يختلط فـيها الواقعـي بالمثالـي، أو الحقـيقة بالخـيال، وقد يشوبها الاضطراب والتداخل فتصبح غير واضحة المعـالم، وأحـياناً يـشوبها الغموض والتناقض، كما قد يتدخل في تكوينها الداخلـي (رؤيتـنا لحقـيقة أنفسنا) بالخارجي (ما نريد إظهاره من صفات للآخرين)[2].

وربمـا تتـشكل صورة الآخر من عناصر انتقائية- هي ما نريد أن نثبـتها في أذهانـنا عـن هـذا الآخـر، في حين تغيب عنها عناصر أخرى لا نـراها- أو لا نـريد الاعتراف بها، ومن أمثلة ذلك وصف الآخر في كتب الـرحلات الجغـرافية، وكـتابات الـرحّالة العرب التي تشكّلت من مشاهد وعناصـر انتقائـية، وأحـياناً غـرائبية عـن الآخـر عـبر الإطارين: الزماني والمكاني معاً لوصف أوضاع الآخر وطبائعه.

إن صـورة الآخـر لا تظهـر بـشكل نمطـي واحد، بل تبدو بأنماط مـتعددة لا تحتمل نسقاً محدداً أو ثابتاً، بل تلازمه سمة التبدل والتغيّر وفقاً لطبيعة الظروف الاجتماعية والسياسّية والاقتصادية والفكرية[3] وتحكـم

---

(1) الكنز، علي، **الآخرية والتراتب**، ضمن كتاب: "صورة العربي ناظراً ومنظوراً إليه"، ص 651.

(2) ينظـر: أبـو العينـين، فتحـي، "**صورة الذات وصورة الآخر في الخطاب الروائي**"، ضمن كتاب: "صورة العربي ناظراً ومنظوراً إليه"، ص 101.

(3) ينظر: البزري، دلال، **الآخر: المفارقة الضروية**، ضمن كتاب "صورة العربي ناظراً ومنظوراً إليه"، ص 101.

علاقة الذات بالآخر علاقة تأثر وتأثير متبادل، ويؤثر كل منهما في الآخر ويتأثر به، دون أن يتماهى أحدهما في الآخر تماماً.

ويمكن الحصول على بعض صور الآخر من خلال كتب "الملل والنحل"، ومن كتابات المؤرخين والجغرافيين، وروايات الرحالة، ويمكن القبض على إمكانات صورة الآخر المختلف عن الذات عقائدياً أو حضارياً في كتابات التوحيدي (ت 214هـ)[1]، وكتابات الجاحظ (ت 255هـ) في رسائله، وغيرها من النصوص الإبداعية والشعرية التي عاينت الآخر وعرضت له، لأن الإبداع يبدأ بالشعور بوجود الآنا والآخر، فالمبدع- والشاعر مبدع- يسعى إلى رأب الصدع بينه وبين الآخر، من خلال ثنائية الذات والآخر.

وكل تعريف يطلق على (الأنا) يمكن أن يطلق على الآخر؛ بمعنى أنه في حالة أن تكون (الأنا) ترتبط بعلاقة اختلاف مع (أنا) أخرى سواء في الجنس/ العرق، أو الفكر والثقافة، أو الدين واللغة، أو الانتماء، تكون الأخيرة هي الآخر.

وعلى ضوء ذلك، فالشخصية العربية بوصفها ذاتاً تنتسب إلى العرب بانتسابها للعروبة واللغة العربية، وقد تتسع حدود الذات وتشمل المعتقد الديني فتتشكل الذات الإسلامية، وأمّا الآخر فهو من لم يُنسب إلى العرب، ومن لم يتصل نسبه بقبائل العرب، وإن عاش في مجتمعهم، كالفارسي، والرّومي، والتركي، والحبشي، وغير هؤلاء من الأمم

---

(1) ينظر: حمود، ماجدة، صورة الآخر لدى أبي حيان التوحيدي، الفرس نموذجاً، بحث منشور في الموقع الالكتروني: www.magiran.com.

والأجناس التي عرفها العرب، واحتك بها عن طريق التجارة، أو الفتوحات الإسلامية، وإن دخل الآخر في الإسلام، وانضوى في دائرة العقيدة الدينية، إذ إن الدين الإسلامي احتوى كثيراً من الأعراق والأجناس، وحلّت ثنائية المسلم والكافر بدلاً من العربي وغير العربي، لكن الإحساس بالهُويّة العربية والتمايز بين العرب وغيرهم بدأ مع دولة بني أُميّة، فبرزت العصبية القبلية من جديد، واشتد التنافس بين القبائل، واهتم الناس بالأنساب، وتعصَّب الأمويون للعرب، وأعلوا من شأنهم، ورفعوا منزلتهم، وغضّوا من الآخر، فاحتقروا الموالي، وعدوّهم غرباء لا ينتسبون إلى العرب، مما مهَّد لظهور النزعة الشعُوبيَّة التي اشتدت في العصر العباسي الأول، وظهرت صورها في الشعر العربي، كما انتشرت التيارات الأجنبية في الثقافة العربية أدباً وشعراً، وبرز التفاخر بالانتساب إلى الآخر- لاسيما الآخر الفارسي، وكان للموالي أثر كبير وخطير منذ العصر الأموي في مناحي الحياة كافة؛ الاجتماعية، والسياسّية، والفكرية، والأدبية، مما أدى إلى ظهور صورة الآخر/ الأجنبي في الشعر العربي.

وكانت الدولة العربية قد انطلقت عبر الحدود أثناء الفتوحات الإسلامية فعاينت الآخر، واتسعت حدودها، كما ضمّ المجتمع الإسلامي خليطاً من الأجناس والأعراق التي شكلت مجتمع الدولة العربية منذ العصر الأموي.

ثانياً: الذات العربية عبر الحدود

كـان العـرب قبائل متفرقة في العصر الجاهلي، وكانت النزاعات القبلـية والصراع على الكلأ والماء تمثل الطابع العام لحياة العرب في ذلك العـصر، وأمّـا هُـويّة الجاهلي فهي هُويّة قبلية؛ إذ كانت القبيلة تمثل محيط الوعي للإنسان الجاهلي.

وعـرف العـرب الآخر من خلال الاحتكاك بالأمم المجاورة، عن طريق الحروب، أو التجارة، أو المعاهدات والمواثيق، فكانت بعض القبائل العربية تقيم علاقات جوار مع الآخر الفارسي، أو البيزنطي، أو الحبشي، كمـا كانـت وفـود العـرب تذهب إلى كسرى وتحاوره، وقصّة النعمان بن المنذر مع كسرى معروفة[1].

ويمكـن اعتـبار عـام (570م)[2]، وهـو عـام غـزو أبرهة الحبشي للكعبة، نقطة تحوّل في شخصيّة الإنسان العربي وهويته، إذ بدأ الإحساس (القومـي) يتنامـى في نفوس العرب، فقد تعرضّت الكعبة إلى خطر الآخر وتهديـده، فكـان أبـرهة يحـاول احـتلال الجزيـرة العـربية من خلال غزو الكعـبة في قلب الجزيرة العربية بتحريض من الرّوم، وتمثل حملة الأحباش على مكة تهديد الآخر وغزوه لبلاد العرب، وأحست بعض قبائل العرب بالخطـر الخارجـي الـذي بـدأ يهـدد وجـودها، حيث توجّه أبرهة وجيشه نحو الكعبة يريد هدمها، بمساعدة "أبورغال" الذي قام بدور الدليـل لجيـش

(1) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي (ت 346هـ)، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، دار القلم، بيروت، (ط1)، 1989م، ج2/ 106- 108.

(2) المصدر نفسه، ج2/ 83- 84. وهو العام الذي ولد فيه النبي عليه السلام.
وينظر: عمارة، محمد، **العرب والتحدي**، دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، (ط2)، 1987م، ص 21.

الأحباش، والذي ظلَّ قبره يُرجم ويُلعن كإشارةٍ إلى خيانته، وإلى ذلك أشار جرير الشاعر في معرض هجاء الفرزدق[1]:

إذا مَاتَ الفرزدقُ فارجمُوه كما ترمون قبرَ أبي رِغالِ

وبعد فشل أبرهة الحبشي وهزيمة جيشه بنصرة الله عزوجل، بدأ الوعي في الهُويّة العربية يتشكل ويتنامى في نفوس القبائل العربية، وظهر البطل العربي سيف بن ذي يزن الذي بدأ في محاربة الأحباش والرّوم، وانضمّ كثيرٌ من قبائل العرب إلى سيف بن ذي يزن، حتى تمكن من تحرير جنوب الجزيرة العربية، في محاولة لتأسيس دولة عربية موحّدة من قبائل العرب، وقد هللت القبائل العربية لهذا النصر العربي المؤزّر، وأرسلت وفودها إلى سيف بن ذي يزن للتهنئة بالانتصار، وخاطبته الوفود بملك العرب، مما يدل على تزايد الشعور العربي بهُويّة عربية تجمع القبائل العربية المتفرّقة.

وعندما جاء دين الإسلام، وآمن الناس به، ودخلوا في دين الله أفواجا، انتصر دين التوحيد على الوثنية، وأخذ العرب والمسلمون بحمل راية الجهاد فانتشر الدين في أنحاء الجزيرة العربية كافة، وانطلقت الفتوحات الإسلامية إلى العراق وبلاد فارس والشام، وبلغت أقاصي الشرق والغرب، وكانت معركة القادسية (21 هـ) بوابة التوغل وفتح بلاد فارس وما وراءها من الأقاليم والبلدان، واستمرت حركة

---

(1) جرير بن عطية الخطفي، (ت 114هـ)، ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب، تحقيق: نعمان محمد أمين طه، دار المعارف، مصر، 1969م، ج2، ص 547.

الفتوحات، وبلغت أوجها في العصر الأموي، فبلغت الصين وشرق آسيا، وامتدت إلى بلاد الغرب الإفريقي، وغيرها من البلاد.

وفي عام (94هـ) كانت الفتوحات الإسلامية قد بلغت السند من القارة الهندية في الشرق، وبلغت الأندلس غرباً، فاتسعت الدولة الإسلامية، وضمّ المجتمع العربي والإسلامي شعوباً وأجناساً متعددة، وشكل الآخر من غير العرب جزءاً كبيراً من المجتمع الإسلامي، فتعددت الأعراق والأنساب، وكان الحكام والخلفاء من العرب المسلمين[1].

وبلغت الدولة العربية أوج قوتها واتساعها في العصر الأموي، وتفوّقت على الآخر سياسياً واقتصادياً، وكان لها السيادة، فأثّرت الذات في الآخر تأثيراً كبيراً، كما برز تأثير الآخر في الذات العربية- لاسيما في العصر العباسي، وكانت عملية التأثر والتأثير متبادلة ولا بدّ من الإشارة إلى أنه كان هناك صراع دائم ومستمر بين الذات العربية وتلك التأثيرات والتيارات الوافدة من ثقافة الآخر وفكره، فظهرت المناظرات الأدبية بين العرب وغيرهم، وبرز الصراع بين العرب والموالي، وظهر تأثير الآخر في الذات العربية بشكل جلي في العصر العباسي، حيث كانت الدولة العباسية تدين بظهورها ووجودها للآخر الفارسي، مما أدّى إلى نفوذ الفرس في شؤون الدولة وغلبة نفوذهم وتفوقهم على الآخرين في تصريف الدولة، وأدّى ذلك إلى نشر الثقافة والفكر الفارسيين، واصطبغت بالصبغة الفارسية، وبرزت صور هذه المعتقدات والأفكار والثقافات في الأدب العربي، وكان من مظاهر التأثير الفارسي في الثقافة العربية- الألفاظ الفارسية التي استعارها العرب من اللغة الفارسية

(1) ينظر: عمارة، محمد، العرب والتحدي، ص 71 وما بعدها.

ليواجهوا التطور الحضاري، وتلك التي استعملها العرب، وجرت على ألسنة الناس، واستعملها الأدباء والشعراء، فكان العتابي الشاعر يجيد الفارسية بالإضافة إلى العربية، وبرز أثر الثقافتين (العربية والفارسية) في كثير من صوره الشعرية[1].

ويمكن القول إنَّ تأثير ثقافة الآخر ومعتقداته في الذات العربية في العصر الأموي كان محدوداً وغير مباشر في بعض مناحي الحياة العلمية والاجتماعية والثقافية، وذلك لحرص الدولة الأموية على عروبتها ونقائها، فكان طابع الدولة الأموية "عربية أعرابية" بينما وصفت الدولة العباسية بأنها "عجمية أعجمية"[2] بسبب قوة التأثر والتأثير، وما أصاب الدولة من تطور فكري وحضاري إبان القرنين الثالث والرابع الهجريين، وغلبة العناصر الأجنبية فيها.

وفي العصر الأموي كثر الموالي، ووجدت بعض الأسر التي نبغت في الشعر والأدب والثقافة، والتي تنتسب إلى الآخر، كأسرة ابن يسار النسائي، وغيرهم من الشعراء الذين نشأوا نشأة فارسية، وتشربوا ثقافة أقوامهم الفرس، وبرز أثر ذلك في شعرهم، كالفخر بأنسابهم، والاعتزاز بأمجادهم، وانتسابهم إلى الآخر، فكان إسماعيل بن يسار يفخر

---

(1) ينظر: الموافي، محمد، حركة التجديد في الشعر العباسي، مطبعة التقدم، القاهرة، 1983م، ص 48.

العتّابي: هو كلثوم بن عمرو، من بني تغلب، أحد شعراء الدولة العباسية، يكنى، أبا عمرو، كان شاعراً مجيداً مُحسناً وكاتباً مترسّلاً، رُمي بالزندقة والرفض فهرب إلى اليمن.

ينظر: (ابن قتيبه، الشعر والشعراء، ج2/ 863)، (المرزباني، معجم الشعراء، ص 244)، (الأصفهاني، الأغاني، ج14/ 74).

(2) الجاحظ، عمر بن بحر (ت 255هـ)، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، مؤسسة الخانجي، (ط5)، 1985م، ج3/ 366.

بأمجاد الفرس، ويعلي من شأنهم، وظهر ذلك جلياً في شعره[1] ومثل هذا التفاخر والانتساب للآخر لم يشكّل أثراً كبيراً في الحياة الاجتماعية في تلك الفترة المبكرة من عمر الدولة العربية، وكانت تظهر كخواطر فكرية، أو نزوات تجيش بها قرائح الشعراء، مع ما يُرافق ذلك من حيطة وتقيَّة وحذر شديد؛ وذلك لتفوّق العنصر العربي ونفوذه على الأجناس الأخرى وكان الأمويون يحرصون أشد الحرص على عروبة الدولة، والاعتزاز بالانتساب للعرب، والإعلاء من شأن النسب العربي في مقابل النظرة السلبية والدونية للأقوام الأخرى، كالموالي الذين كان معظمهم يقبع في طبقة ثانية من طبقات المجتمع.

وفي العصر العباسي تطورت الحياة تطوراً كبيراً، ورافق ذلك تغيّر النظم الاجتماعية والسياسيّة والثقافية، ولمّا كان العباسيون قد اعتمدوا على العناصر الفارسية في تشييد دولتهم وتثبيت أركانها فقد تعاظم نفوذ هؤلاء الفرس من الموالي، ومن غيرهم من العناصر الأجنبية، فبرزت الشخصيّة الفارسية في الحكم، والسياسة، والوزارة والولاية، وتراجعت الذات العربية لتحل محلها الأجناس الفارسية التي أخذت تدبر الأمر، وتسيّر شؤون الدولة، وساد الأعجمي على العربي، ويمثّل العصر العباسي نفوذ الآخر الفارسي وتفوقه، حيث أُسندت ولاية بعض الأقاليم إلى الفرس كأقليم خراسان، وأُحِدث منصب الوزارة الذي بقي في أيدي الفرس، وأدّى هذا النفوذ إلى التطور السياسي والاجتماعي والثقافي،

---

(1) ينظر: النسائي، إسماعيل بن يسار النسائي (ت.ج 130هـ)، شعره، جمع وتحقيق: يوسف بكار، دار الأندلس، بيروت، (ط1)، 1984، ص 20- 21.

إسماعيل بن يسار: يكنى أبا فائد، من أسرة فارسية، كانت هذه الأسرة من موالي تيم بن مرة، تيم قريش، عاش في العصر الأموي.

ونـشطت حـركة التألـيف والترجمـة، فنتج تطور فكري وثقافي واسع، ولم يقتـصر تـأثير الـثقافة الفارسـية علـى مـا نُقل وترجم من آثار إلى اللسان العربـي، بـل تجـاوز ذلـك إلى مـا نقـل عـن طـريقها من الثقافة والتراث الهـندي، وأصـبحت الـثقافة الفارسـية همـزة الوصـل بيـنه وبـين الثقافة العربية[1].

وإذا كانـت الدولـة العباسـية قـد قامـت علـى أكـتاف العناصـر الأخـرى مـن الفـرس، فـإن نفـوذ هؤلاء أخذ في التوسّع، فتقلّدوا معظم الوظائـف المهمـة في الدولـة، كالـوزارة، والحجابـة، والـولاية، ومـن ثمّة أصبح الخلفاء لعبة بأيدي الوزراء والولاة من الفرس الذين أخذوا يولّون ويعزلون من يشاءون.

وكـان النفوذ السياسي الفارسي في دولة بني العباس مؤشِّراً على طبـيعة الـصلات الثقافـية والاجتماعية بين الشعبين، والامتزاج في الجنس والـثقافة واللغـة، ومـالَ الخلفاء العباسيون إلى العناصر الفارسية أكثر من مـيلهم إلى العرب، فقد كان المأمون يقرِّب الفرس، شديد الميل إليهم، ولمّا حـدثت الفتنة بين المأمون والأمين، وانتهت بانتصار المأمون، وقتل الأمين بمـساعدة الفـرس، عُـدّ ذلـك نـصراً جديـداً ونفـوذاً أوسـع للفرس على العرب[2].

لقـد أدّت سـيطرة الفـرس علـى مقاليد الحكم، وأمور الدولة في العـصر العباســي الأول إلى نــشر حـضارة الآخـر الفارسـي وثقافـته ومعـتقداته، وانـتقلت كـثير مـن العـادات والتقالـيد الغـريبة على المجتمع

---

(1) الموافي، محمد، حركة التجديد في الشعر العباسي، ص 47.

(2) إبـراهيم، حـسن، تـاريخ الإسـلام الـسياسي والـديني والثقافي والاجتماعي، (ط7)، 1964، ج2/ 179- 183.

العربي إلى مجتمع الدولة العباسية، وتأثر الأدب العباسي بالمظاهر الفارسية ممثلة بالاحتفال بأعياد الفرس، كالنيروز، والمهرجان، والإفراط في الترف واللهو والشراب والغناء، وظهر ذلك في شعر شعراء العصر كبشار، وأبي نواس، ومطيع بن إياس وغيرهم[1].

وظلّ العنصر الفارسي يتقلد الوزارة والمناصب العليا في الدولة، ويدير شؤونها إلى عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد، الذي أنهى نفوذهم واستبدادهم بالأمور، وذلك بنكبة البرامكة، وهي الأسرة الفارسية التي علا شأنها في العصر العباسي.

كما حاول المعتصم التقليل من خطر الفرس والتخلص من نفوذهم، ولكنه- في سبيل تحقيق ذلك- اتجه إلى الاستعانة بعنصر آخر من غير العرب، فأخذ يقرِّب الترك إليه، واعتمد عليهم، واستقدمهم من بلادهم، وولاهم شؤون الجيوش، ولمّا عظم شأنهم، وازداد عددهم، بنى لهم مدينة (سُرّ من رأى) ومنذ ذلك الزمن سطع نجم الترك في الدولة العربية، وحلّوا مكان الفرس في النفوذ السياسي والسيادة، وتغلغلوا في أمور السياسة حتى أصبحت مقاليد الحكم بأيديهم، وبقيت الذات العربية في إطار التهميش والإقصاء، وتسلط الأتراك على الناس، ونشروا الرعب والفساد بين المجتمع العربي، وتبرَّم الشعراء من استبداد الترك وتفردهم في أمور الدولة، وارتفعت أصوات الشعراء في تصوير ضعف الخلفاء، والشكوى من ظلم الترك كما سيأتي[2].

---

(1) ينظر: الموافي، محمد، حركة التجديد في الشعر العباسي، ص 49.

(2) ينظر: ص 136- 143 من البحث.

وأدت الأحوال الاجتماعية والسياسيّة المتردّية إلى ظهور عناصر أخرى من غير الفرس والأتراك، كالزنوج، والنبط، والرّومان، وغيرهم من الأقوام والأجناس، وظهر أثر هذه الأقوام في الحياة العربية، وتعدد الآخر، وأصبح آخرين في مقابل انكماش الذات العربية وانحصارها أمام نفوذ الآخرين.

وانعكست الأحوال الاجتماعية والسياسيّة في مجتمع العصر العباسي على الأدب العربي، وظهرت صورة الآخر، (الفرس، والترك، والنبط، والرّوم) في الشعر العربي، كما كثرت حركات التمرد والعصيان في الدولة العربية، والتي نفذّها الآخر، كثورة الزنج، وحركات الزط، والشعُوبيَّة، وغير ذلك، كما سيأتي[1].

ثالثاً: ثقافة الذات وثقافة الآخر

انتقلت الدولة العربية من الطابع القبلي إلى الكيان السياسي، وظهرت الدولة العربية بنظمها الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسيّة، والإدارية، وتنوّعت التجديدات في النظم العربية منذ العصر الأموي وبدايات العصر العباسي الأول، وما هذه المظاهر والتجديدات إلا مظهر من المظاهر الحضارية التي طرأت على الحياة العربية، وما أصابها من تطوّر ورقي ونماء، والتأثر بالرواسب والمؤثرات الثقافية والحضارية نتيجة امتزاج العرب بغيرهم من الأجناس، وحضور الآخر بأفكاره وحضارته ومعتقداته، ولاسيما الفرس الذين نالوا مكانة مرموقة ومتميّزة في الدولة العربية إبان العصر العباسي، وكانت ثقافة الآخر الفارسي وحضارته من

---

(1) ينظر: ص 174- 180 وص 183، من هذه الدراسة.

أهم الروافد التي غذّت النهضة الثقافية، فالعناصر الفارسية هي صاحبة النفوذ، والفرس هم المسيطرون على أمور الدولة، وبالتالي فهم القادرون على رعاية هذه الثقافة، والعمل على نشرها والاهتمام بها[1].

ونتج عن ذلك أن تعدّدت المؤثرات الثقافية، وكثرت التيارات الوافدة إلى المجتمع العربي، فازدهرت المقارنات الحضارية، والتجديدات الفكرية لانفتاح الذات على العالم الخارجي، إضافة إلى تأثيرات الآخر المتعددة التي انعكست في مناحي الحياة كافة.

وظهر الصراع بين القديم والحديث، بوصفه فناً جديداً في الشعر العربي، وامتدَّ هذا الصراع إلى عقد المقارنات بين الماضي والحاضر، والتي ما كان لها أن تظهر لولا الالتقاء الحضاري والثقافي، والتأثير المتبادل بين الثقافات، كما ظهرت ألوان وفنون أدبية وشعرية جديدة لم تكن معروفة من قبل، وكثرت الاقتباسات من ثقافة الآخر ولغته وتضمينها في الأدب العربي، مما أدّى إلى ثراء الأدب العربي ثراءً كبيراً، فتوسّعت آفاق الشعراء وأخيلتهم وتعددت صورهم وتنوّعت، وكثرت معانيهم، وفي هذا نماء وثراء للأدب والشعر فازدهر الشعر ازدهاراً كبيراً[2].

لقد أدّى اتساع الدولة العربية الإسلامية إلى دخول عناصر غير عربية في دين الإسلام تنتمي إلى أجناس وانتماءات عرقية متعددة، وحصل الاحتكاك والالتقاء بين العرب وهذه الأعراق المختلفة: فكرياً، وثقافياً، واجتماعياً، وفي أثناء الفتوح الإسلامية في العصر الأموي شجع الخلفاء الأمويون كثيراً من القبائل العربية على الاستقرار في الأقاليم

(1) ينظر: الموافي، محمد، حركة التجديد في الشعر العباسي، مرجع سابق، ص 47.

(2) ينظر: موافي، عثمان، التيارات الأجنبية في الشعر العربي منذ العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، منشورات دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، (ط2)، 1996، ص 16.

والبلاد التي تم فتحها، لتعليم الناس القرآن ونشر الدين، والاحتفاظ بهذه المناطق والبلاد في سلطة الدولة، مما أدّى إلى معاينة الآخر، والتواصل معه أو الاصطدام مع هذه الأجناس؛ إذ إن بعض هذه الأقوام كان ينظر إلى هذا الفتح ثأراً عربياً لاحتلال الفرس لأراضٍ عربية في عصور سابقة، فنظر بعضهم إلى هذه الفتوحات قهراً عربياً انطلق من أمَّة غير متحضرة (العرب) لأمّة أخرى ذات حضارة عريقة ومتميّزة (الفرس)، فهم السادة على غيرهم، لذلك لم ينظر بعض الفرس بالارتياح والقبول للفتح الإسلامي لبلادهم، باستثناء من دخل في دين الإسلام وآمن بالله تعالى، وعمل على نشر الدين، وانضم إلى الجهاد في سبيل الله وظلّ بعض العناصر الفارسية يثور بين الفينة والأخرى، وظهر ما عُرف بالشعُوبيَّة والشعوبيين بفئاتها المتعددة[1].

وفي الطرف المقابل أقيمت صلات اجتماعية، وعلاقات ثقافية بين الذات والآخر، عن طريق وسائط اللغة والدين، وشؤون الحياة الاجتماعية، وعرف العرب ثقافات وحضارات جديدة، وكان عامل التأثر والتأثير كبيراً، فأثّرت العقيدة الدينية في الناس، وأسلم كثير من غير العرب، وعكفوا على تعلم اللغة العربية والدين الإسلامي، وأثّرت فيهم، كما تأثر العرب بمظاهر الحضارة الجديدة في تلك البلاد، كالعادات، والتقاليد، ونظام الحياة التي كانت سائدة في تلك الأقاليم[2].

---

(1) ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه (ت 328 هـ)، <u>العقد الفريد</u>، تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري، منشورات دار الكتاب العربي، بيروت، 1982م، ج3 / 403- 412.

(2) البلاذري، أبو العباس أحمد بن علي (ت 279هـ)، <u>فتوح البلدان</u>، تحقيق: رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، 1978م، ص 115، وينظر: ص 330.
وينظر: عطوان، حسين، <u>الشعر العربي بخراسان في العصر الأموي</u>، دار الجيل، بيروت، (ط1)، 1974، ص 53، 91، 93، 94، 151.

وفي إقلـيم خُراسـان كـان الامتـزاج بـين العرب والفرس كبيراً، وكمـا كانـت اللغـة الفارسـية هـي اللغـة السـائدة في ذلك الإقليم وبلاد أواسط آسيا آنذاك، فقد تأثر العرب بالألفاظ الفارسية، وظهرت الكلمات الفارسية في الشعر العربي، إضافة إلى تسرّب الحكم والأمثال الفارسية إلى الثقافة العربية، وانعكس ذلك في الشعر العربي[1] مما كان له أكبر الأثر في الـتلاقح الفكـري، والـتمازج الحـضاري الـذي أثمـر عن ازدهار الأدب والشعر العربي أيما ازدهار في العصر العباسي.

لقـد عـرف العـرب الآخـر مـن الأعـاجم في الجزيـرة العـربية وخارجهـا، واخـتلط بعض العرب بالآخر عن طريق الزواج، الذي يبدو أنّـه كـان معروفاً عند بعض القبائل العربية في الجاهلية، فابن حبيب يعقد فصلاً يذكر فيه أبناء النبطيات والسنديات، وكذلك أبناء الحبشيات[2].

وفي أثـناء الفتوحات الإسلامية استقرت بعض القبائل العربية في الـبلاد المفـتوحة، وازدادت حـركة الاتـصال والتواصـل مـع الآخـر، وسـاهمت حـركة التجارة في زيادة الاتصال بالآخر أيضاً، ومنذ أن كانت رحلـتا الـصيف والشتاء، اختلط العرب بغيرهم في اليمن والشام، إضافة إلى قـدوم الـتجار إلى الأسـواق الـتي كانـت تقـام في بلاد العرب، كسوق عكاظ، والمجاز، والمجن، من بلاد العالم كافة، ومن السند والهند والصين[3]،

---

(1) ينظـر: عـباس، إحـسان، **ملامح يونانية في الأدب العربي**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، (ط1)، 1977م، ص 145- 148.
وينظـر: العاكـوب، عيسى، **تأثير الحكم الفارسية في الأدب العربي في العصر العباسي الأول**، دار طلاس للدراسات والنشر والتوزيع، حلب، (ط1)، 1989م، ص 333- 338.

(2) ابـن حبيب، أبـو جعفـر محمـد بـن حبـيب (ت 245هــ)، **المحبّر**، رواية أبي سعيد السكري، تحقيق:إيلزه ليختن شتتير، منشورات دار الآفاق، بيروت، د.ت، ص (305- 306).

(3) المرزوقـي، أبـو علـي أحمد بن محمد بن الحسين (ت 421هـ)، **الأزمنة والأمكنة**، تحقيق: خليل منـصور، دار الكتـ[illegible]ـة، بـيروت، 1996م، ص 384 وينظـر: ابن حبيب،المحبر، مصدر سابق، ص 265

مما ساهم مساهمة فعّالة في معرفة الآخر والتواصل معه، وأسهمت الفتوحات الإسلامية منذ القادسية في دخول كثير من الأمم والأجناس في المجتمع الإسلامي، واستقرار قبائل العرب في الأقاليم التي تم فتحها كإقليم خراسان وإقليم فارس، كالأزد، وتميم، وقيس، مما أدّى إلى اختلاط العرب بغيرهم، وتكوين صلات دينية وحضارية وثقافية مع الآخر.

وإذا كان الاهتمام بالآخر مألوفاً ومعروفاً، ويأخذ أشكالاً متعددة في العصر الأموي فإننا نجد اهتمام العرب بالآخر، والشغف بمظاهر حضوره المتعددة في العصر العباسي.

رابعاً: الهُويّة والاختلاف

تظهر هُويّة العربي من خلال الوعي بالآخر، والإحساس بوجود الاختلاف، والتفارق بين الذات والآخر، والهُويّة هي الأصل والجوهر، فالهُويّة من "هُوَ" بمعنى: جوهر الشيء وحقيقته، وبالتالي فإن هُويّة الشيء: هي ثوابته التي تتجدد ولا تتغيّر، تفصح عن ذاتها ما بقيت الذات على قيد الحياة[1].

ارتبطت هُويّة العربي بالاعتماد على الحسب والنسب في العصر الجاهلي، فقد أخذ العربي يتحسس الوعي بالهُويّة القومية، خارج نطاق القبيلة منذ أواخر العصر الجاهلي، وكان طابع الهُويّة العربية ضيّقاً يرتبط بالقبيلة؛ لأن القبيلة تمثّل محيط الوعي لدى الإنسان الجاهلي، فكانت هُويّة قبلية عمادها الانتساب إلى النسب القبلي، الذي يرتد في نهايته إلى عدنان وقحطان، وقوام هذه الهُويّة الفخر بالقبيلة والانتساب إليها.

---

(1) ينظر: عمارة، محمد: الهُويّة ضمن كتاب: ندوة التاريخ الإسلام وأزمة الهُويّة، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، (ط1)، 2000م، ص 249.

وأخذ إحساس العربي بالوعي بذاته وبهويته العربية خارج نطاق قبيلته، وأخذ البحث عن هُويّة قومية تضم قبائل العرب يشتد في النفوس، وتمثّل ذلك في تأييد قبائل العرب لسيف ابن ذي يزن ونصرته، وإرسال الوفود من القبائل العربية إلى البطل العربي الذي تمكن من تحرير اليمن من سيطرة الآخر الحبشي؛ فالأحباش بوصفهم من غير العرب- كانوا قد غزوا اليمن وأخضعوها لسيطرتهم ما يقارب من سبعين عاماً[1] واستطاع سيف بن ذي يزن بمساعدة القبائل العربية استعادة حكم العرب لليمن، وطَردَ الأحباش، وقَدِمت وفود القبائل للتهنئة بهذا النصر العربي[2]، مما أدّى إلى ظهور الشعور بالقوميّة العربية، ونمو الإحساس بهُويّة عربية تجمع شتات قبائل العرب، وتوحدهم أمام خطر الآخر وتهديده.

وتظهر هُويّة العربي من وجود الآخر وحضوره والوعي به؛ لأن إدراك حضور الآخر يؤدي إلى شعور الذات بالاختلاف والتميّز، كما أن الوعي بالذات والهُويّة يتنامى ويزداد عندما تعقد الذات المقارنات مع الآخر في نواحي التضاد والاختلاف، أو التوافق والتشابه، وعندما تعاين الذات الآخر، وتظهر الفوارق الخَلْقية والخُلقية والإيديولوجية تبدأ الهُويّة بالتشكل، ويبرز الوعي بوجود هُويّة الآخر أيضاً.

وفي العصر الإسلامي الأول كان طابع الهُويّة يحمل اتجاهاً عقائدياً، فالهُويّة الدينية هي التي نادى بها الإسلام، وحرص النبي ﷺ وأصحابه المسلمين على توثيقها في النفوس، دون الالتفات إلى الأحساب

(1) الدوري، عبد العزيز، **التاريخ التكويني للأمّة العربية، دراسة في الهُويّة والوعي**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، (ط1)، 1984م، ص 84.
وينظر حول ذلك: الفصل الثالث: ص 83- 120.

(2) ومن تلك الوفود وفد قريش برئاسة عبد المطلب، جد النبي ﷺ.

والأنساب، أو الانتماء والولاء وفي العصر الأموي- عصر الفرق والأحزاب، وتعدد الأجناس، وظهور العصبيات- حَرِصَ العرب على نقاء الهُويّة، والاهتمام بالعروبة بالعودة إلى الأنساب والأحساب من خلال التفاخر بالنسب العربي، وهجاء من لم ينتسب للعرب، وبرزت العصبيات القبلية التي اتكأت على إرث الجاهلية في إبراز الذات وتفوّقها، وإلى ذلك يشير أبو الهذيل الشاعر في قوله[1]:

وَمَا تَستَوي أَحْسَابُ قَومٍ تُورِّثَتْ قَدِيماً وَأَحْسَابٌ نَبَتْنَ مَعْ البَقلِ

فالعربي يؤكد على نسبه وثقافته في مقابل الحط من نسب الآخر، ولذلك اهتم العرب بعلم الأنساب ليمايزوا بين العرب وغيرهم من الأعاجم، وحث العرب على تعلمّ النسب وتعليمه فقد ورد أن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- قال[2]: "تعلموا النسب ولا تكونوا كنبط السواد، إذا سُئل أحدهم عن أصله قال: من قرية كذا" وقال أيضاً: "تمعددوا ولا تستنبطوا؛ أي تشبّهوا بمعد، ولا تشبّهوا بالنبط".

وعند خروج العربي من جزيرته فاتحاً، ودخول العرب بلاد فارس والسند والرّوم، وقف العربي على حضارة الآخر وثقافته، وبمعاينة الآخر المختلف ثقافة، وعقيدة، وفكراً تشكّل الوعي بالذات والهُويّة العربية، وظهر الاهتمام والتركيز على نقاء الهُويّة وتفوّقها، ذلك النقاء الذي كرّسته الدولة الأموية في تأكيد الطابع العربي في مواجهة تعدد

---

(1) المرزباني، أبو عبد الله محمد بن عمران (ت 384هـ)، **معجم الشعراء**، تحقيق: عبد الستّار أحمد فراج، منشورات الهيئة العامة للثقافة، القاهرة، د.ط، د.ت، ص 69.
أبو الهذيل: هو عمر بن الهُذيل العبدي الربعي، (المرزباني، معجم الشعراء، 69).

(2) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت 711هـ)، **لسان العرب**، تحقيق: عبد الله الكبير وأحمد الزين، طبعة دار المعارف، مصر، د.ت، (نبط).

الأجناس والهُويات التي توافرت في العصر الأموي آنذاك.

وظهرت لفظة "عرب" لتدل على كل من ينتسب إلى العرب في مقابل "عجم" لمن لم يكن له نسب في العرب، وكان العربي يؤكد هويته العربية والتي كان يُدركها بأمرين: النسب العربي واللغة العربية، وارتبطت هُويّة العربي بهذين الأمرين ارتباطاً وثيقاً، وأدرك العربي ذاته من خلال اللغة والنسب اللذين يُعدان من أبرز عناصر الوعي بالذات؛ لأن الآخر- في نظر العربي- يفتقد النسب واللغة العربية، ولذلك فالعربي هو من كان نسبه ثابتاً في العرب وإنْ لم يكن فصيحاً، وإذا كان عجمي النسب فهو مُعرِب وإن كان فصيحاً[1].

وقد وصف العرب الآخر من خلال اللون، كلون البشرة أو لون العينين، وشكّل اللون جزءاً من الهُويّة، وإضافة إلى الدلالات اللونية، وصف العرب الآخرين بأوصاف خَلقْية لإبراز الاختلاف بين الذات والآخر؛ إذ تقوم الذات بملاحظة الآخر لتحديد ما ينماز به من صفات، وكان العربي يصف ذاته من خلال اللون؛ السمرة أو الأدمة غالباً، في مقابل وصف الآخر بالحمرة، أو الصهبة، أو شدة السواد، وما إلى ذلك من دلالات لونية، وفي ذلك يقول مسكين الدارمي[2]:

---

(1) المصدر السابق، مادة "عرب"، "عجم".
الأدمة: السمرة، والآدم من الناس: الأسمر.

(2) مسكين الدارمي، ربيعة بن عامر بن أنيف بن زيد بن تميم (ت 89هـ) **ديوان مسكين الدّارمي**، جمع وتحقيق: عبدالله الجبوري وخليل العطية، مطبعة دار البصري، بغداد، (ط1)، 1970م، ص 22.
مسكين: هو ربيعة بن عامر بن أنيف من بني دارم، شاعر أموي من بني تميم، غلب عليه لقب مسكين لقوله:

وسُمِّيتُ مسكيناً وكانت لحَاجَة ... وإنـي لمسكينٌ إلى الله راغبُ

ينظر: (ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق: احمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر، 1966م، ص 544)، والبيت في ديوان المسكين، ص 24.

أنـا مَـسْكِينٌ لِمَـنَ يعْـرِفُني   لَونـي الـسُّمرةَ ألـوانُ العَـربْ

فالـسّمرة مـن الـدلالات اللونـية الـتي تـشير إلى العرب، ويؤكد الفضل بن العباس نسبة السّمرة والسّواد غير الحالك إلى ذاته وإلى العرب كافّة، يقول[1]:

وَأنَـا الأخْـضَرُ مَـنْ يَعْـرفني   أخـضرُ الجِلـدة من بيتِ العَرَبِ

كمـا يخاطـب الفـضل أيـضاً، الوليد بن عقبة، ويعمد إلى التشبيه للدلالـة علـى الهُـويّة، فيـشبه الولـيد بكسرى ملك الفرس، مما يدل على حضور هُويّة كسرى في أذهان الشعراء، يقول[2]:

فَـلاَ تَـسْألُونا بالـسِّلاحِ فَإنّـهُ   أضِـيع وألقاه لدى الرَّوع صَاحبُهْ
وَشَـبَّهتَهُ كـسرى وَقَـدْ كَـانَ مـثْلُه   شَـبِيهاً بِكِـسْرى هَدْيـهُ وَعَـصَائبُه

وإذا كانـت الـسُّمرة مـن ألوان العرب وأوصافهم، فإن كثيراً من غـير العـرب هم من العبيد أو السود، كما أن بعض العرب امتازوا بشدّة الـسّواد، وبالتالـي فاللـون وحده لا يصلح معياراً ثابتاً للتمييز بين العرب وغيرهـم، ولا يجـسِّد هُويّة العربي بشكلٍ دقيق، ولذلك ينضاف إلى دلالة

---

(1) الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين الأموي (ت 356هـ)، **الأغاني**، تحقيق: إحسان عباس، وإبراهيم السعافين وبكر عباس، طبعة دار صادر، بيروت، 2002م، ج 5/ 81.

(2) المصدر السابق نفسه، ج5/ 81- 82.

الفضل بن العباس بن عتبة: شاعر من بني هاشم، عاش في العصرين: الإسلامي والأموي، كان شديد الأدمة. (الأصفهاني، الأغاني، ج16/ 115).

اللـون أوصـاف ودلالات أخـرى لتحديد هُويّة الذات، وتحديد اختلافها عـن الآخـر كلـون الشَّعر من حيث الجعودة أو السبوطة، أو شكل الوجه والجسم، وما إلى ذلك من دلالات تضاف إلى الدلالة اللونية.

وكثيراً ما يوصف شَعْر العربي بالجعودة والخشونة دون أن يكون قططـاً مفلفـلاً في مقابـل وصـف العجم بسبوطة الشعر، ومن الإشارات الشعريّة إلى ذلك هجاء هبيرة بن أبي وهب لأخواله وأهل أمّه مقارناً بين السواد، وجعودة الشَّعر، والأُدمة، وسبوطة الأفعال، فيصفهم بشدّة سواد شعورهم مما يخرجهم من دائرة العروبة، يقول[1]:

وكيف أرجّي أنْ أسودَ عشيرتي ... وأمِّـي مـن سَلْمى أبوها وخَالُها

رأيـتُكمُ سُـوداً جِعـاداً ومالِـكٌ ... مُخَـضَّرةٌ بـيضٌ سِـباطٌ نِعالُهـا

ولا يـتوقف أمـر الاخـتلافات بـين الذات والآخر عند اللون أو الصفات الخَلْقية، فنجد مظاهر هُويّة العربي في الأزياء أحياناً، حيث تظهر العمامـة العـربية لتـشير إلى الهُـويّة العـربية في مقابلة التاج وارتداء الحرير المـرتبط بالآخر، وكانت العمامة تمثل تيجان العرب، فقد قيل: إن العرب اختـصّت مـن بـين الأمـم بأربـع: "العمـائم تـيجانها، والدروع حيطانها، والسيوف سيجانها، والشعر ديوانها"[2].

---

(1) الجاحظ، أبو عثمان، البيان والتبيين، مصدر السابق، ج3/ 107.

هـبيرة بـن أبـي وهـب المخزومـي: مـن شعراء مكة، ومن رجال قريش المعدودين، كان شديد العداوة لله ورسوله.

ينظر: ابن سلام، محمد بن سلام الجُمحي (ت 231هـ)، <u>**طبقات فحول الشعراء**</u>، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، 1950م، ج1/ 257.

(2) الـثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل النيسابوري (ت 429هـ)، <u>**ثمار القلوب في المـضاف والمنـسوب**</u>، تحقـيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، (ط1)، 2003، ص 135.

وارتبطت العمامة بالهُويّة العربية، وظلّت تؤشر على هُويّة العربي حتى نهاية العصر العباسي وبعده أيضاً، فكانت تشكّل جزءاً من الهُويّة العربية، وقد ورد في الحديث أن: "العمائم تيجان العرب"[(1)]، ومنذ العصر الإسلامي لاحظ الشعراء الاختلاف بين العرب والآخر في الأزياء، وإلى ذلك أشار حسان بن ثابت في قوله[(2)]:

فإن كُنتمُ جئتمْ لحقن دمائِكُمْ ... وأموالِكُمْ أنْ تُقْسَمُوا في المَقَاسمِ

فلا تجعلوا لله نداً وأسْلِمُوا ... ولا تلبسُوا زِياً كَزِيِّ الأعاجِمِ

وتظل العمامة حاضرةٌ في الإشارة إلى هُويّة العربي في العصر العباسي، فقد خاطب هارون الرشيد العُمّاني الشاعر- عندما دخل عليه لينشده شعراً، وعليه قلنسوة طويلة وخُفٌّ ساذج قائلاً: "إياك أن تنشدني إلا وعليك عمامة عظيمة الكور وخفّان دمالقان..."[(3)].

---

(1) ابن الأثير، مجد الدين أبي السعادات بن محمد الجزري، (ت 606هـ)، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، تحقيق: طاهر أحمد الزاري ومحمود محمد الطناجي، د.م.ن، 1963م، ج1/ 199.

(2) حسان بن ثابت الأنصاري، (ت 54هـ)، **ديوانه**، تحقيق: وليد عرفات، طبعة أمناء سلسلة جيب التذكارية، 1971م، ج1/ 109- 110.

(3) الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ج2/ 95، ويظر حول العمامة: ج2/ 88، 287، ج3/ 97، 3ج/ 114،ج3/ 97- 100.

العُمَّاني: هو محمد بن ذؤيب الحنظلي الدارمي، من شعراء الدولة العباسية، شاعر بصري، قيل له: العُمَّاني لأنه كان شديد صفرة اللون، وهو أحد رجاز العرب، خدم الرشيد والمهدي.

ينظر:(ابن قتيبة، الشعر و الشعراء، ج2/ 755)، (الأصفهاني، الأغاني، ج18/ 226)، (عبد الرحمن، عفيف، معجم الشعراء العباسيين، دار صادر، بيروت، 2000م، ص 340).

لقد شكّلت العمامة هُويّة يستدل من خلالها على عروبة المرء، ومن يرتديها، فهي بمنزلة هُويّة تميّز العربي عن غيره، وتميّزت العمامة بالتعدد اللوني فيما بعد، كما كثرت دلالاتها.

وإذا كانت العمامة توحي وتشير إلى هُويّة العربي، وتشكّل جزءاً من هويته، فإن التاج ارتبط بالمُلك وبالآخر العجمي، ليؤشر على هُويّة اتخذها العربي للآخر، وارتبط التاج بملوك الفرس والرّوم، وقد ورد ذكر التاج في مدح عبيد الله بن قيس الرقيات لعبد الملك بن مروان في قوله[1]:

إنَّ الأَغَرَّ الذي أبوُهُ أبو الـ ـعاصِي عَلَيه الوَقَارُ والحُجُبُ
يعتدلُ التَّاج فوقَ مَفرِقِه على جبينٍ كأنّهُ الذّهبُ

ولمّا كان التاج دلالة على العجم فقد أنكر عبد الملك ذلك قائلاً: تمدحني بالتاج كأني من العجم، مما يدل على حضور التاج في دلالته على الآخر بأذهان العرب، ثم ارتبط ذكر التاج بقياصرة الرّوم، كتاج هرقل وقيصر، يقول ابن هانيء الأندلسي[2]:

يَودُّ هِرَقَلُ الرُّومِ ذُو التَّاجِ أنَّهُ يَنَال الَّذي نِلْتَهُ مِنْ شَرَفِ القَدْرِ

ويقول ابن المعتز[3]:

---

(1) الرقيات: عبيد الله بن قيس، (ت 75هـ)، **ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات، رواية أبي سعيد السكري**، تحقيق: محمد يوسف نجم، دار صادر ،بيروت، 1970م، ص 5.
وينظر: الأصفهاني، الأغاني، ج1/ 33- 35.

(2) ابن هانيء الأندلسي، محمد بن هانيء (ت 362هـ)، **ديوان محمد بن هانيء الأندلسي**، تحقيق: محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، (ط1)، 1995م، ص 161.

(3) ابن المعتز، عبد الله بن محمد، المعتز بالله (ت 296هـ)، **ديوان أشعار ابن المعتز**، تحقيق: محمد بديع شريف، دار المعارف، مصر، 1977م، ج2/ 248.

ككسرى عليه تاجةٌ يوم شُربه إذا صفّق الكفَّين من طَربَ نَعَر

خامساً: التصور الإسلامي للآخر

الإنسان في المنظور الإسلامي مخلوق كريم لله، ميَّزه بالعلم والعقل والإرادة، فهو محور النشاط في الكون، وكرّم الله عز وجل الإنسان وفضّله على جميع المخلوقات، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[1]، فالبشر من سلالة واحدة في بداية التكوين والنشوء، قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾[2].

وخلق الله عز وجل الاختلاف والتمايز بين الناس في الجنس والعِرق واللون، وجعلهم أُمماً، وشعوباً، وقبائل، بهدف التعارف والتعاون على الخير، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[3].

---

(1) سورة الإسراء، 70.

(2) سورة البقرة، 213.

(3) سورة الحجرات، 13.

وبـذلك يـتحدد الإنـسان في التـصور الإسـلامي بمـدى قربه، أو ابـتعاده مـن الـدين والإسـلام لـيس وفقاً لعِرقه، أو جنسه، أو شكله، أو لـونه، فالأصـل البـشري واحـد مهمـا تفـرّق الناس أو تشعّبوا، لا فضل لعـربيهم علـى عجميّهم إلا بميـزان الإيمـان والـتقوى، قالﷺ: "لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى"[1].

لقد نادى الدين الإسلامي- بقوّة- بإلغاء العصبية القبلية، وهَدَم الفـوارق الجنـسيّة للـشعوب، فـلا عربي ولا عجمي، إنما هي أُمّة واحدة يتساوى أفرادها في الحقوق والواجبات، لا تتفاضل بينها إلا بمقدار العمل الصالح.

وأعلـن الإسـلام مـبدأ الـوحدة الإنـسانية بـين الناس، ودعا إلى التوحـيد والإيمـان بـالله، وحارب كل أشكال العصبية والطائفية، فأرسل الله عـز وجـل الرسـول علـيه الـسلام للناس كافّة: لعربيهم وأعجميهم، حـرّهم وعبدهم، واتصفت رسالة الإسلام بالعمومية والشمول، ولما كان الـشمول والعمومـية مـن سمـات الديانـة الإسـلامية، فقـد دشّن القرآن الكـريم مـسألة الاعـتراف بالآخرين دون إقصاء أي جماعة من الجماعات البـشرية، كمـا خاطـب القرآن الكريم الناس جميعاً دون تفريق؛ فالآخر لم يكـن بمـنأى عـن روح الإسلام وسماحته باعتبار الخطاب القرآني موجّهاً لجميع الناس على اختلاف انتماءاتهم، وأعراقهـم، وألوانهـم، وفي أي

---

[1] الهيثمي، نـور الـدين أبـو حسن علي (ت 807هـ)، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، دار الكتاب العربي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1967م، ج3/ 586.

وينظـر: الهـندي، علـي بن حسام (ت 975هـ)، **كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**، تحقيق: صفوت السقا وبكر حياتي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1979، ج2/ 56.

مكان، ولكل زمان.

وتحوّل مفهوم الآخر بعد ظهور الإسلام، وإلغاء الاعتداد بالأنساب والأعراق، وغدا مرتبطاً بالاختلاف الديني والعقائدي، لا باختلاف الانتماء والجنس البشري، فاليهود والنصارى يمثلون الآخر على مستوى الاتجاه العقيدي.

وتضمّن الخطاب القرآني نصوصاً قرآنية تدعو إلى التسامح، والوسطية، والعدالة مع الآخر غير المسلم، وبذلك يقيم الإسلام توازناً بين الذات والآخر، فالإنسان هو الكائن البشري كيفما كان جنسه ولونه، أو عرقه ولغته، وبذلك يمكن القول إن القرآن قدّم صياغة ووعياً جديداً حول مفهوم الذات والآخر، يتأسس على مبادئ الأخوّة، والكرامة، واحترام إنسانية الإنسان، فكانت نظرة الإسلام للآخر نظرة تقدير واحترام، وكان بلال الحبشي قادم الحبشة قد حظي بالعناية والتكريم ما فاق حدود التصور والخيال، فقد تقدّم المسلمين جميعاً من العرب والعجم يوم فتح مكة ليصعد على ظهر الكعبة ويؤذن بالناس، كما يُستدل على علو شأنه معاتبة الرسول ﷺ لأبي ذر عندما عيّر بلالاً بأمّه، فقال ﷺ: "إنك امرؤ فيك جاهلية"[1] وذلك لأن العصبية التي تدعو إلى التعصب العرقي كان الإسلام قد ذمَّها وحاربها وكذلك سلمان الفارسي قادم فارس يوم افتخر الناس بآبائهم، افتخر هو بالإسلام، وقال ﷺ: "سلمان منّا آل البيت"[2]، وصهيب قادم الرّوم له من الفضل، والعناية، والتكريم

---

(1) الهندي، كنز العمال، ج9/ 201، رقم الحديث (25665).

وينظر: الزيلعي، جمال الدين، أبو محمد، نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996م، ج4/ 16، رقم الحديث (3/ 281).

(2) المصدر السابق نفسه، ج11/ 690.

ما يفوق الذكر.

كذلك افتخر بعض الشعراء بالدين الإسلامي، كنسب وهُويّة ينتسب إليها الإنسان، وَعَدَّ الشاعر النسب الكريم هو من اتصف بالتقوى، قال عيسى الخطيُّ[1]:

أبي الإسلامُ لا أب لي سواه إذا فخروا ببكرٍ أو تميمُ
كِلا الحيَّينِ يَنْصرُ مُدّعيهِ ليلحقَه بذي الحَسَبِ الصَّميم
وما حسبٌ ولو كَرُمتْ عروقٌ ولكنَّ التقيَّ هو الكريمُ

وقال بعضهم في تكريس الهُويّة الدينية[2]:

لَعمرُكَ ما الإنسانُ إلاّ ابن دينهِ فلا تترك التقوى اتّكالاً على النّسب
فقد رَفَعَ الإسلامُ سلمانَ فارسٍ وقد وَضَعَ الشِّركُ الحسيبَ أبا لهب،

وفي ظل الإسلام ظهرت ثنائية المسلم والكافر، أو دار السلم ودار الكفر/ الحرب، وأخذ الفارسي المسلم، مثلاً، ينظر إلى الفارسي غير المسلم على أنه من دار الكفر، ومن الآخر الذي لا ينتمي إلى هُويّة الإسلام.

وكانت نظرة الإسلام والقرآن الكريم تجاه الآخر من غير العرب- وهم أولئك الذين أسلموا ودخلوا في دار السلم- نظرة تقدير واحترام، وكانت النظرة إليهم إيجابية، وعاش هؤلاء في ظل الدولة

---

(1) المرزباني، أبو عبيد الله محمد بن عمران (ت 384هـ) **معجم الشعراء**، ص 96.
عيسى بن عاتك الخَطّيُّ: هو عيسى بن حُدَير أحد بني وديعة بن مالك، أحد شعراء الخوارج.

(2) العجلوني، كشف الخفاء، ج1/ 407.
وردت الأبيات غير معزوة إلى قائل.

الإسلامية ينعمون بالحرّية والأخوة والمساواة، وفاق بعضهم العرب في التقوى والإيمان، كما اشتركوا في حمل راية الإسلام والجهاد في الفتوحات الإسلامية.

وأسّس الإسلام المجتمع الإسلامي الذي كان القرآن الكريم دستوره، فكان كل من دخل في دين الإسلام، وانضوى ضمن الجماعة الإسلامية، وحمل لواء الدين من هُويّة واحدة وذات إسلامية واحدة، فالرؤية القرآنية للآخر تتحدد في المعتقد الديني على أساس وحدة الانتماء الإنساني والعقائدي من جهة، وعلى قاعدة التمايز والاختلاف من جهة أخرى، فالنص القرآني يعترف بالاختلافات العرقية والاجتماعية واللسانية، ولكنه ينبذ التعصب والتمايز العرقي[1].

وفي أثناء مسيرة الدعوة الإسلامية ظهر المنافقون، وأهل الكتاب، والمشركون، وهؤلاء يتحركون ضمن المنظور الكلي الشامل الذي صاغه الدين للآخر، ومن أولئك اليهود والنصارى، وتفاوتت نظرة القرآن الكريم إليهم، فبينما امتدح النص القرآني النصارى، في قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾[2]، كانت النظرة إلى اليهود نظرة سلبية، وهذه النظرة الإسلامية للآخر، تمثل نظرة إلى الآخر المختلف ديناً وعقيدة، وكان الكفار والمشركون يمثلون الآخر المناوئ للإسلام.

لقد حمل القرآن تصوراً ووعياً بالآخر، فقد وردت الإشارات إلى بعض الجماعات التي استوطنت الجزيرة العربية، وما كان لديها من

(1) أفاية، محمد، الغرب المتخيّل، ص 78.
(2) سورة المائدة، 82.

حضارات، وثقافات، وديانات، وما إلى ذلك مما ورد في القصص القرآني عن الأقوام السابقة.

وبعد فتح العراق وبلاد الشام وفارس وغيرها من البلدان والأقاليم، ظهر الآخر بشكل جلي، وتعدد، وأصبح آخرين، وقد واجه الفاتحون من العرب والمسلمين اختلافات عرقية جديدة، وامتزجوا بثقافات جديدة، تلك التي خضعت لحكم الدولة الإسلامية، فوجد الآخر المختلف دينياً، وفكرياً، واجتماعياً.

وظلَّ الآخر من غير العرب يتمتع بالحريّة والمساواة في ظل المجتمع الإسلامي، وتربّى كثير من الأعاجم في المجتمع الإسلامي، وظلّت الهُويّة الدينية هي الغالبة في عهد الخلفاء الراشدين.

واتسعت حدود الدولة الإسلامية في العصر الأموي، ودخلت الأعراق والأجناس المتباينة في حكم الدولة الإسلامية، وكانت نظرة الأمويين ترتكز على فكرة العروبة، فالعرب هم خير الأمم، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[1] وأخذت الذات العربية تزهو بتفوقها على غيرها من الأجناس، وغلَّب الأمويون العنصر العربي على غيره من الأجناس، فعادت الصراعات العرقية والتفاخر بالأحساب والأنساب من جديد، كما ظهرت الفِرق والأحزاب السياسيّة والدينية والعِرقية، وبرز التناحر والتنافس بين الأجناس، مما أدى إلى ظهور الصراعات القبلية والعرقية والطائفية، وفي العصر العباسي كانت الشعُوبيَّة من أبرز مظاهر التعصب الطائفي، حيث احتل الموالي مكانة مرموقة في الدولة العباسية،

---

(1) آل عمران، 110.

وعملوا على إذكاء العصبيات وحركات التمرد، فتعصّب كل جنس لقومه، وبرز الفرس وشعوبيتهم والرّوم وتعصبهم، والترك من بعدهم، وتعدد الآخرون في الدولة العربية.

سادساً: الآخر في الثقافة العربية

استمر صعود الذات العربية في العصر الإسلامي، وبرزت المقابلة بين الأنا والآخر أو دار الإسلام ودار الكفر والشرك، وأنتجت ثنائية المسلم/ الكافر ثم تحوّلت هذه الثنائية إلى عربي وعجمي، أو عربي ومولى في العصر الأموي والعصر العباسي، وتعدد الآخر بتعدد الأقوام التي خضعت لحكم الدولة الإسلامية[1].

وخاض العرب والمسلمون حروباً كثيرة مع الرّوم منذ العصر الأموي، وارتبطت علاقة العرب بالبيزنطيين بالتصارع والعداء المستمر، وتحوّلت إلى حرب الثغور في العصر العباسي، وعلى الرغم من طبيعة العلاقة العدائية بين العرب والرّوم فقد تأثر العرب بالرّوم وحضارتهم، من حيث العمارة، والإدارة، وفن البناء، وبعض المظاهر والعادات، وبرز تأثر العرب بفن العمارة البيزنطي في بناء المساجد، وزخرفة القصور الأموية.

واستمرت علاقة العِداء والتنافس بين العرب والرّوم في العصر العباسي، وكانت تتراوح بين الحروب والمعارك والمهادنة والمصالحة والوفود أحيانا أخرى، مما ترك صورة للآخر الرّومي في شعر العرب، ونسبت الحكمة والروية إلى الرّومي، وأمّا السياسة وتدبير الملك فتنسب

---

(1) ينظر: لبيب، الطاهر، صورة العربي ناظراً ومنظوراً إليه، ص 209.

إلى الفرس، كما نُسب العلم والحساب للهنود.

ونـشطت الترجمة، وتُرجمت كثيرٌ من العلوم والمعارف إلى العربية، مما وثّق الثقافة العربية بثقافات الآخر، وكان للترجمة آثارٌ جليلة في تطوير الحياة الفكرية والأدبية؛ فأول ما تُرجِمَ من الكتب الفارسية كان في السياسة والأدب، كما كانت الكتب المترجمة تضم الحكم، والنصائح السياسّية والاجتماعية.

وكان الفرس هم روّاد الترجمة، وهم رجال هذا العمل العلمي وسدنته، فالترجمة تتطلب إلماماً دقيقاً باللغتين الفارسيّة والعربيّة، وكان من المترجمين: "محمد بن الجهم" فقد ترجم "خداي نيامة" أو (سير الملوك)، وكذلك البلاذري، والحسن بن سهل، وغيرهم ممَّن أسهم في الترجمة إلى العربية[1].

ومنذ تكوين الدولة الإسلامية وامتدادها عبر الفتوحات الإسلامية، وُجِد في المجتمع العربي والإسلامي ثقافات متعددة، بعضها من رواسب ديانات واعتقادات قديمة، كالزرادشتية والمانوية، والزندقة وقد توافر للآخر حرية الاعتقاد والثقافة في الدولة العباسية، حيث نَعِمَ أهل الذمة من النصارى واليهود بحرية دينية وثقافية، وسرت أحكام الذميين إلى غيرهم كالمجوس، وأصحاب العقائد الأخرى، وبُنيت دور العبادة والكنائس والأديرة في أنحاء الدولة العباسية، فالاختلاف الديني والثقافي لم يقف حائلاً دون التقارب الاجتماعي.

وكان الرقيق في أدنى المراتب الاجتماعية في الدولة العربية، وشغل حيزاً كبيراً في حياة المجتمع في العصر العباسي، فكثرة الرقيق

(1) ينظر: العاكوب، عيسى، تأثير الحكم الفارسية في الأدب العربي، ص 318.

وانتماؤه إلى أقليات وشعوب أخرى جعل هناك تبايناً في الصورة في التراث العربي، فبينما نجد وصف هؤلاء الرقيق والسودان بالهمجية والبهائمية، نجد بعضهم يفرد كتاباً خاصاً يعرض فيه: مناقبهم ومفاخرهم على غيرهم[1].

وأما الأعاجم فهم من غير العرب، والعجمي على وجه التخصيص هو الفارسي، وقد ارتبط العجم بالعرب بالحلف لعصبية عربية ضد أخرى عندما اشتدّ حمّى التعصب والتنافس بين القبائل العربية إبّان العصر الأموي، واختلطوا بالعرب في العصر العباسي اختلاطاً كبيراً، وكانت أكثر أُمهات الخلفاء العباسيين من الأعاجم، كالفرس أو الترك وغيرهم، وساعد على الامتزاج واختلاط العرب بالشعوب الأخرى تجارة الرقيق، والتسرّي، وتعدد الزوجات، فأضاع العنصر العربي مكانته وسيادته العالية، وحل محله عنصر جديد من أبناء الأعاجم، وأنصاف العرب، وأبناء الإماء، وهم ما أطلق عليهم "الهجناء"، وقال أحد الشعراء في ذلك[2]:

إنَّ أولادَ السَّراري كثروا يا ربِّ فينا
ربِّ أدخلني بلاداً لا أرى فيها هجينا

وأمّا الموالي، فهم من الأعاجم أيضاً، ولكنهم ارتبطوا مع العرب بالولاء، فهم أصحاب الولاء، وقد نظر العرب إليهم نظرة دونية في

---

(1) الجاحظ، أبو عثمان بحر بن عمرو، رسائل الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، منشورات مكتبة الخانجي، القاهرة، ج1/ 178 "فخر السودان على البيضان".

(2) حتّى، فيليب، تاريخ العرب، (فيليب حتى وادورد مرجي وجبرائيل جبور)، دار غندور للطباعة والنشر والتوزيع، (ط 7)، 1986م، ج1/ 400- 401.

العصر الأموي؛ لأن طابع الدولة قائم على عنصر النسب والعروبة، فكان الموالي في مرتبة ثانية، وفي طبقة متدنيّة، وبرز دور الموالي في العصر العباسي في شؤون الإدارة والسياسة والحكم، كما كان كثيرٌ من حملة العلم والأدب من الموالي والعجم، في العلوم الشرعية والعقلية على حدٍّ سواء[1].

واتجه بعض هؤلاء الموالي اتجاهاً شعوبياً، وعملوا على إذكاء العصبيات العرقية، وناصروا الحركات الاجتماعية والدينية كالشيعة والخوارج، لِما كانوا يعانونه من ظلم واضطهاد من قبل العرب في العصر الأموي، لذلك نجدهم يثورون، وينضّمون إلى حركات التمرد التي شهدها العصر العباسي، ولجأوا إلى الانضمام لكل خارج على سلطان الدولة.

إن الموالي من الفرس وغيرهم تمثل عناصر شعب آخر أخذت عناصره تتشكل وتظهر بشكل جلي في الفتنة بين الأمين والمأمون، حيث عمد الفرس إلى مساعدة المأمون ونصره، فاختل التوازن بين العرب والفرس وعلا شأنهم، مما دفع المعتصم للتوجه إلى الآخر التركي، وبدأ عصر نفوذ الأتراك، وهؤلاء الأتراك من أعراب العجم، خبروا الحرب وفنون القتال، مما أدّى إلى صياغة وتشكيل صورة مزدوجة عنهم، وأخذت شوكة الأتراك تقوى وتزداد نفوذاً، فقد وصلوا جنوداً، ثم أصبحوا قادة وأخذوا يتدخلون في تعيين الخلفاء وعزلهم أو قتلهم، وكان التركي يمثل ازدواجية الصورة في مجال الآخرية: "الحدود معه متحركة وهو غريب مألوف، منه المسلم وغير المسلم"[2].

---

(1) ينظر: ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ت 681هـ)، **المقدّمة**، تحقيق: أبو عبد الله المندوة، مؤسسة الكتب ثقافية، بيروت، (ط1)، 1994م، ج2/ 246.

(2) لبيب، طاهر، صورة العربي ناظراً ومنظوراً إليه، مرجع سابق، ص 47.

الفصل الثاني

"الفرس والنبط في الشِّعر العربي"

- أولاً: الموالي، أصلهم وتسميتهم.
  - نظرة العرب إلى الموالي.
  - زواج الموالي من المرأة العربية.
- ثانياً: النبط، أصولهم وتسميتهم.
  - صورة النبط في الشعر العربي.
- ثالثاً: الرقيق والجواري.
  - وصف المرأة الأعجمية/ الجارية.
- رابعاً: الشعُوبيَّة والنزعة الكسروية
  - مظاهر الشعُوبيَّة في الشعر الأموي
  - الصراع الشعري بين العرب والموالي
  - بشار بن برد وهجاء العرب
  - تمرد أبي نواس وشعوبيته
  - شعوبيون مقلون

الفصل الثاني

"الفرس والنبط في الشِّعر العربي"

أولاً: الموالي: تسميتهم وأصولهم

كان العرب في العصر الجاهلي على صلة بالحضارتين: الفارسية والرومانية (البيزنطية)، كما اتصل العرب بعناصر مسيحية من الجاليات البيزنطية والأحباش وغيرهم من الأمم والأجناس التي عُرفت في ذلك العصر، وكان لها صلات اجتماعية، واقتصادية، وسياسية مع العرب.

وعلى إثر الفتوحات الإسلامية واتساع حدود الدولة الإسلامية في العصرين الإسلامي والأموي، أثرى العرب ثراءً كبيراً، وكثرت الغنائم والسبايا والأسرى من الرجال والصبيان، واختلط العرب مع غيرهم في المجتمع الإسلامي، وارتبط بعض هؤلاء الأجانب من أسرى الحروب مع القبائل العربية برابطة الولاء.

والولي والمولى واحد في كلام العرب، وتحمل دلالة "مولى" اللغوية معاني متعددة، فتشير إلى[1]: الناصر والربّ أو الإله، والمالك والمعُتق والتابع، كما دّلت الكلمة على معنى العصبية أو أبناء العمومة، وجاء دلالة الولي على: الناصر في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾[2]، وأمّا دلالة الرّب أو الإله فقد

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، "وَلي".

(2) سورة محمد، الآية (11).

وردت في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ﴾[1]، وفي معنى العصبية أو أبناء العمومة، جاء قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي﴾[2]، وفي قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ﴾[3].

واكتسبت لفظة "مولى" دلالة اصطلاحية، فأُطلقت على كل من أسلم من غير العرب، وارتبط مع قبائل العرب بالانتماء والولاء، وقد ورد حديث الرسول ﷺ: "من أسلم على يده رجل فهو مولاه"[4] وارتبط الآخر بالقبائل العربية عن طريق الولاء والتبعية، ولذلك فالناس على ثلاثة أصناف: "عرب، وعجم، وموالي"، ولأهميّة الولاء ودوره في الحياة الاجتماعية ورد في الأثر أن الرسول ﷺ قال[5]: "الولاءُ لحمة كلحمة النسب لا يُباع ولا يورث".

ولا بُد من الإشارة إلى أن الموالي ليسوا قاصرين على الفرس، أو على شعب دون آخر، بل تعددت أصولهم كالفارسي، والرومي،

---

(1) سورة الأنعام، الآية (62).

(2) سورة مريم، الآية (5).

(3) سورة الأحزاب، الآية (5).

(4) ابن الأثير، مجد الدين الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر، ج5/ 229.

(5) الزيلعي، جمال الدين أبو محمد، نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996م، ج5/ 350، رقم الحديث (4/ 152).
وينظر: العجلوني، كشف الخفاء، ج2/ 313.
وقوله: "ومولى القوم منهم" ابن الأثير، ، ج5/ 229.
وفي مسند الأمام احمد، عن ابن أبي رافع عن أبيه أن النبي ﷺ قال: "أنا آل محمد لا تحلُّ لنا الصدقة، وأنّ مولى القوم من أنفسهم" مسند الأمام احمد، ج6/ 390.

والحبشي، والنبطي، وغيرهم، لكن معظم الموالي وأغلبهم كان من الفرس، الذين دخلوا في المجتمع الإسلامي وعاشوا مع العرب، حيث استجاب الموالي للإسلام؛ لأنهم وجدوا فيه تحقيقاً للمساواة والعدالة الاجتماعية، إذ نبذ الإسلام الفوارق الجنسية أو العِرقية، وألغى الرق والعبودية، وساوى بين الناس على اختلاف أصولهم.

ولّما كان أغلب الموالي من الفرس، فقد كثروا في الدولة العربية كثرة مفرطة، ونشروا اللغة الفارسية والثقافة الفارسية أيضاً، ولاسيّما في البصرة والكوفة، وفي عصر الدولة الأموية افتقد بعض الموالي الحريّة والمساواة والعدالة، وعاشوا في طبقة اجتماعية ثانية في المجتمع الأموي، ولذلك لعب الموالي دوراً خطيراً في العصر العباسي الأول، حيث ظهرت شعوبية الموالي، وانضم كثيرٌ منهم إلى الثورات و حركات التمرد[1].

وشارك الموالي في الحياة الثقافية، والدينية، والأدبية في المجتمع الإسلامي، وبرز من هؤلاء الموالي علماء في الفقه والدين، وغيرها من العلوم الشرعية والعقلية، كما ظهر كثير من الشعراء الموالي الذين أبدعوا وأجادوا في نظم الشعر، وكان كثير من شعراء الدولة العباسية من أصولٍ غير عربية كبشار بن برد، وأبي نواس، وابن الرومي وغيرهم.

وإذ كان المعنى اللغوي لكلمة مولى متشعِّباً ومتعدداً، فقد ورد في الشعر العربي ما يدل على بعض معاني هذه الكلمة، فالمولى هو المولى في الدين، وإلى ذلك أشار أحد الشعراء[2]:

---

(1) ينظر: غوادرة، فيصل حسين، <u>التمرد في شعر العصر العباسي الأول</u>، دار جهينة للنشر والتوزيع، عمان، (ط1)، 2005م، ص 56.

(2) ابن منظور، لسان العرب، مادة وَلِيَ. وردت الأبيات غير معزوة.

مَهْــلاً بَنِــي عَمِّــنَا مَوالِيــنَا   امْشُوا رُويداً كَمَا كُنتُمْ تكُونُونَا

وفي معنى الحليف والمعين، قال الشاعر:

هُــمْ المَــولىَ وإنْ جَنَفُوا عَلِيَّنا   وَإنَّــا مِــنْ لِقَــائِهم كَــزُوْرُ

وقال أخر:

مَوالِــيَ حَلْــفٍ لاَ مَوَالِــيَ قَــرَابَةٍ   وَلكِــنْ قَطِيــنَاً يَــسْأَلُونَ الأَتَاوَيــا

ذكـرنا أن الموالـي تعرضـوا للظلم والاضطهاد في عصر بني أمية، فلـم يكـن العرب يخفون احتقارهم العام لهم، والحط من شأنهم، ولذلك تعرضـوا إلى الهجـاء والـسخرية، وكـان جريـر الـشاعر يعـرِّض بالموالي، يقول[1]:

يَـا مَالِـكَ بـنُ طَـرِيفٍ إنَّ بَـيْعَكُمْ   رَفْدُ القُرى مُفْسِدٌ للدِّينِ وَالْحَسَبِ
قَالُـوا نَبِـيْعَكم بَـيْعَاً فَقُلْـتُ لَهُـم: بِيْعُوا الموالِيَ وَاسْتَحْيُوا مِنْ العَرَبِ

وكـذلك يقـول جريـر في التعـريض بالموالـي في معـرض هجـاء تميم[2]:

وَتَلْقَـى فِي الـوَلاءِ عَلِـيْكَ سَعْداً   ثِقَـالُ الـوَطءِ ضَـالِعةَ الخُـصُوْمِ
وَمَـا جَعَـلَ القَـوادم كالـذّنابِ   وَمَـا جُعِـلَ الموالـي كالـصَّمِيمِ

---

(1) ديون جرير، ج1/ 436.
(2) ديوان جرير، ج2/ 588.

وكان الموالي يأنفون من أبيات جرير السابقة، ويرون فيها امتهاناً واحتقاراً لكرامتهم الإنسانية وتقليلاً من شأنهم.

كما عرَّض ذو الرمة بهم، وأشار إلى منزلتهم الاجتماعية المتدنية وذلك في مدح بلال بن أبي بُردة، يقول[1]:

إذا صَارَ أقْوَامٌ سِواكُمْ موالِيا ... بحورٌ وحُكّامٌ قُضَاةٌ وقادةٌ

وترد لفظة الموالي في شعر البحتري كثيراً، وتشير إلى الترك خاصة، فكثيرا ما يذكر الترك في شعره بلفظ الموالي،يقول في مدح ابن المعتز[2]:

أوْلَئك آراء ٱلموالي نُصْرَةً ... بسُيوفِهِمْ والمُلْكِ جِدٌّ مُمَزَّقِ

نظرة العرب إلى الموالي:

لم يأتِ العصر الأموي حتى تمَّ للعرب فتح بلاد الشام والسند وغيرها من بلاد الأعاجم، واستمرت الفتوحات في ذلك العصر واتسعت اتساعاً سريعاً، وانتقل العرب من طور البداوة والترحّل إلى الاستقرار والتحضّر، فأُنشئت المدن، وتم تأسيس الدولة العربية المتعددة الأعراق، وكان كثير من الأعاجم قد دخلوا في الإسلام وتعايشوا مع العرب، كما

---

(1) ذو الرُّمَّة، غيلان بن عقبة العدوي (ت 117هـ)، ديوانه، تحقيق: عبد القدوس أبو صالح، مطبعة طربين، دمشق، 1973م، ج2/ 1325.

(2) البحتري، أبو عبادة الوليد بن عبيد الطائي، ديوان البحتري، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، دار المعارف، مصر، 1977م، ج3/ 1478- 1482.

وينظر في دلالة ذلك: (ج1/ 466)، (ج1/ 519)، (ج2/ 932)، (ج2/ 1245)، (ج3/ 1646).

كثر الموالي في ظل الدولة الجديدة.

ولّما كان طابع دولة بني أُمية قائماً على التعصُّب للعرب، والإعلاء من شأنهم، واحتقار الآخر من الموالي، فقد نظر العرب إلى الموالي وغيرهم من الأجناس الأخرى نظرة سلبية، لا تخلو من الاحتقار والإذلال، فاضطهدوهم وحرموهم من عنصر المساواة والعدالة مع العرب، تلك المساواة التي نادى بها الإسلام، وانحرف الأمويون عن نظرية الإسلام في معاملة الموالي وابتعدوا عن جادة الدين، فأرهقوهم بالضرائب، ولم يساووا بينهم وبين العرب في الحقوق، وازدروهم[1] ولذلك تعرضّ الموالي إلى الظلم والاضطهاد والاحتقار، وكان العرب ينظرون إليهم باعتبارهم قطيناً، وشكّل الموالي طبقة ثانية في المجتمع الإسلامي في العصر الأموي[2].

تعصّبت الدولة الأموية للجنس العربي والعروبة، وكانت عربية قلباً وقالباً فكان الولاة والقضاة من العرب دون غيرهم، وكانت الأجناس الأخرى في منزلة اجتماعية أدنى من العرب، بل كانوا في آخر درجات السلَّم الاجتماعي، ولم يقتصر احتقار العرب على الموالي وحدهم، بل تعدّاهم إلى ما نسل من أبنائهم، ولو كان من أب عربي، وهم ما أُطلق عليهم "الهجناء".

---

(1) ينظر: ضيف، شوقي، العصر العباسي الأول، طبعة دار المعارف، مصر، (ط 6)، د.ت، ص 74- 76.

(2) ديلاسي، أوليري، الفكر العربي ومكانه في التاريخ، ترجمة: تمام حسّان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1997، (ط 2)، ص 59.

أنشد عبد الملك بن مروان في المقارنة بين الهجناء وأبناء الحرائر[1]:

أَلَمْ أَنْهَكم أنْ تَحْمِلُوا هُجَناءكم | على خيلكم يومَ الرِّهان فَتُدْرَكُ
وَمَا يَسْتَوي المرءان: هذا ابنُ حُرَّةٍ | وهذا ابنُ أُخرى ظَهْرُهَا مُتَشرَّكُ
وَتُضْعِفُ عُضْدَاه ويقصُر سَوطُه | وَتَقْصُر رِجلاه فلا يَتَحَرَّكُ
وَأَدْرَكَنه حَالاتُهُ فَنَزعنه | ألا إنَّ عِرْق السُّوءِ لا بدَّ يُدرِكُ

وعلى الرغم من نظرة العرب الدونية إلى الموالي، إلا أنّ الموالي شاركوا في الحياة الاجتماعية والثقافية، وكان العرب يحتاجون إليهم في كثير من شؤونهم، وقد أدرك الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك ذلك، ورد أنه- لّما رأى كثرة الموالي وتعدد أجناسهم، وحاجة العرب إليهم، قال: "العجبُ لهذه الأعاجم، كان المُلك فيهم فلم يحتاجوا إلينا، فلما وليّنا لم نستغن عنهم، وقال أيضاً: ألا تتعجبون من هذه الأعاجم، احتجنا إليهم في كل شيء حتى في تعلّم لغاتنا منهم"[2].

لقد كان العصر الأموي مسرحاً لنزعتين؛ النزعة القبلية التي ظهرت في شعر المفاخرات، والاعتداد بالأحساب والأنساب بين العدنانية والقحطانية، فاشتد التعصب العربي والمباهاة بالنسب العربي ونتج عن ذلك الشعر السياسي الذي تمثل في الأحزاب السياسية، أمّا النزعة الثانية: فهي ذات طابع عِرقي وجنسي، بين العرب وغيرهم من الأجناس والأمم

(1) ابن عبدربه، العقد الفريد، ج6/ 130.
وتنسب الأبيات إلى: **عمرو بن مُبردة العبدي**، وهو أحد بني محارب بن عمرو بن وديعة بن لكيز، وهو شاعر إسلامي، أنشد له عبد الملك بن مروان لّما استبق بنوه فسبق مسلمة وكان ابنُ أمةٍ والأبيات فيها اختلاف في الروايات.
ينظر: (المرزباني، معجم الشعراء، ص 66).

(2) الأصفهاني، الراغب، أبو القاسم حسين بن محمد (ت 502هـ)، **محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء**، دار الأرقم، بيروت، (ط1)، 1999م، ج1/ 424.

الأخرى، والتي بدأت في العصر الأموي، واشتّدت في العصر العباسي الأول، وأنتجت الشعر الشعوبي والأدب الشعوبي المناهض للعرب والعروبة كما سيأتي.

وكان بعض الموالي من أسرى الحروب والمعارك، استرقهم العرب، وعملوا في خدمتهم ثم اعتقوهم، وارتبط هؤلاء الموالي مع العرب برابطة الولاء أو بالحلف والموالاة وكان الموالي في العهد الإسلامي يعتزون بالانتماء والولاء إلى العرب، وتمسكوا برابطة الولاء، بفعل الدين، ومنهم من انتسب إلى العرب أو حاول أن يجد لنفسه نسباً عربياً، وعندما تعصّب العرب إلى الجنس العربي في العصر الأموي، واشتد التنافس والتفاخر بين القبائل العربية والاهتمام بالنسب العربي، والتقليل من شأن الموالي وازدراؤهم ومعاملتهم معاملة لا تخلو من القسوة أدّى ذلك إلى نفور الموالي من معاملة العرب القاسية لهم، فوجد الموالي الفرصة السانحة للتكتل في تيارات شعوبية.

كان شعور العرب بامتيازهم وتفوقهم على غيرهم من العجم والموالي يزداد عمقاً وحدةً في العصر الأموي، وكانوا يشعرون بالسخط والغضب من إفساد نقاء العنصر العربي نتيجة اختلاطه مع هؤلاء الموالي والأجانب، ونظر العرب لهم نظرة سلبية وعرّضوا بهم وعبّر الشعر العربي عن ذلك بهجاء الموالي والتعريض بأنسابهم.

فالفرزدق يستنكر، ويؤنّب مسكيناً الدارمي لرثائه زياد بن أبيه، لأنّه لا ينتسب إلى العرب، يقول[1]:

---

(1) الفرزدق، همام بن غالب (ت 110هـ)، شرح ديوان الفرزدق، جمع وتحقيق: عبد الله إسماعيل الصاوي، مطبعة الصاوي، مصر (ط1)، 1936م، ص 245- 246.

أمسكينُ أبكى اللهُ عَيَنكَ إنّما جَرَى في ضلالٍ دَمْعُها إذْ تَحدَّرا
أتبكي امْرَأً مِنْ أهْلِ مَيسأَن كافِراً كَكِسْرَى عَلَى عَدَّانِهِ أو كَقَيْصرا

واتبع الأمويون سياسة تحولُ بين الموالي وتولي المناصب الإدارية كالولاية والقضاء، لأنَ العرب لا يخضعون لغير العربي، على الرغم من أن بعضهم تقلد مناصب مهمة، وذلك لمكانة آبائه من العرب، لكنهم لم يسلموا من هجاء الشعراء والتعريض بهم، وكانوا عرضة لهجاء الشعراء بوضاعة نسبهم ومن ذلك تعريض يزيد بن مفرّغ الشاعر بأسرة زياد التي حكمت البصرة (45- 64هـ) حيث يقيم الشاعر حجته عليهم باختلافهم عن العرب من حيث النسب، وأنهم من أصل أجنبيَ، يقول[1]:

إنَّ زياداً ونافعاً وأبا بَكْرَةَ عِنْدي من أعجَبِ العَجَبِ
إنّ رِجالاً ثلاثةً خُلِقُوا مِنَ رِحْمِ أنثى مُخالفيَ النَّسبِ
ذاُ قرشيٌّ كما يَقُولُ وذا مَولىً وهذا بَزعْمِهِ عَرَبي

---

(1) يزيد بن مفرِّغ الحميري، (ت 69هـ)، ديوان يزيد مفرِّغ الحميري، تحقيق: عبد القدوس أبو صالح، مؤسسة الرسالة، بيروت (ط2)، 1982م، ص 79- 80.
وينظر: ابن قتيبة، أبو عبد الله مسلم الدنيوري، (ت 276هـ)، الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، طبعة دار المعارف، مصر، 1966م، ج1/ 323- 324.
يزيد بن مفرّغ: هو يزيد بن ربيعة بن مُفرِّغ الحميري، من شعراء الدولة الأموية.
- ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، ج2/ 681.
- ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ص 360.الأصفهاني: الأغاني، مصدر سابق، ج18/ 186.

زياد: هو زياد بن أبيه، مولى الحارث بن كلدة، ولي العراق لمعاوية، وهو أحد دهاة العرب.
نافع: هو ابن الحارث بن كلدة الثقفي، وأمه سمية.
أبو بكر: هو نفيع بن الحارث بن كلدة الثقفي، سكن البصرة.

ثـم ينكر أن تكون أم زياد (سُميَّة) من العرب (بني تميم)، ويؤكد على عدم صلته بالعرب، فهو من نسب العبيد، يقول[1]:

فأُقْـسِمُ مـا زيـادُ مـن قُـريشٍ ... ولا كانـت سُـمَيّةُ مـن تَمِـيمِ
ولكـن نَـسلُ عـبدٍ مـن بغـيٍّ ... عـريقِ الأَصْـلِ في النَّسبِ اللَّئيمِ

وقـد عـرَّض الحجـاج المـوالـي للـسخرية والاضـطهاد، عـندما أخـرجهم إلى قُـراهم، ونقـش في يـد كـل منهم نقشاً فيه اسم البلد الذي أخـرجه إليه، وربما يعود هذا الاضطهاد بسبب ضعف الوازع الديني لدى بعـض الولاء، وعودة إلى الوازع الجنسي والقبلي، وعرَّض أحد الشعراء، بهذا الفعل في قوله[2]:

جَارِيـةٌ لم تَـدْرِ مـا سَـوْقُ الإِبلْ ... أَخْـرَجَها الحجَّـاجُ من كِنٍّ وظِلّْ
لـو كان بَدْرٌ حاضِراً وابن حَمَل ... مـا نُقِـشَتْ كَفَّـاكِ في جِلْد جَلَلْ

واسـتغل الـشعراء هـذا الـنقش للدلالـة علـى إذلال الموالي، في هجاء [illegible]ـوم، فقد هجا الفرزدق قبيلة طيء، معرِّضاً بذلك، يقول[3]:

مَتَـى يهبط الطائي أرضاً ولَمْ يَكُن ... بـه وشـمٌ موشـومٌ يكـن غنم غانم

---

(1) ديوان يزيد بن مفرغ الحميري، ص 206.
وينظر الخبر: الأصفهاني، الأغاني، ج18/ 209.

(2) المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد (ت 210هـ): **الكامل**، تحقيق: محمد أحمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، (ط1). 1986م، ج2/ 623.
وينظر: ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج3/ 368.

(3) ديوان الفرزدق، ج2/ 275، وينظر: ج1/ 114-115، ج2/ 117، 270، 288، 341.

كما سخر الفرزدق من عبد الله الحضرمي عندما نقد بعض شعره، وبالتعريض بنسبه قائلاً[1]:

وَلَوْ كانَ عبد الله مَوْلى هجوتُه ... ولكن عبدُ الله مَولَى مواليا

وقال آخر في هجاء أحد الموالي[2]:

وأنتَ مَنْ نَقش العجليُّ راحَتَه ... وفرَّ شيخك حتى عاذ بالحَكَمِ

زواج المولى من المرأة العربية:

كان العرب يهتمون بالأحساب والأنساب، ويحرصون على نقاء هويتهم القبلية، بالمفاخرة بأحسابهم وأنسابهم، وكانت بعض القبائل العربية تترفع عن تزويج غير العرب أو مصاهرتهم، لنسبه، أو لونه، أو عدم انتسابه للعرب، ولم يكن هذا الأمر عاماً بين العرب، بل يتفاوت من قبيلة إلى أخرى، إذ نجد بعض العرب لا يجد غضاضة من زواج الآخر، أو مصاهرته[3]، ولاسيما القبائل التي كانت تقطن أطراف الدولة العربية.

وفي المقابل كانت بعض قبائل العرب ترفض زواج الآخر من الأعاجم، وتعد ذلك سُبَة ووصمة عار، وذلك حفاظاً على نقاء نسب القبيلة وعدم اختلاط الدماء، وللمحافظة على مكارم القبيلة.

---

(1) ديوان الفرزدق، ج2/ 283.

(2) ينظر: ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج3/ 367، وينظر ج3/ 368.
العجلي: من بني سعد بن عجل، تولى أمر إخراج الموالي للحجاج.
الحكم بن أيوب: عامل الحجاج بالبصرة.

(3) ينظر: ابن حبيب، أبو جعفر، المحبِّر، ص 305- 306.

وقد تقف مسألة اللون حائلاً يمنع المصاهرة، وتشكل حاجزاً يمنع التوافق، كعنترة وعبلة، الذي حال سواده من الزواج بها، وعندما جاء دين التوحيد وانتشر بين الناس، حارب كل أنواع العصبية الجنسية والتمييز العنصري، وعَمِلَ على القضاء على النعرات الجاهلية القائمة على الأعراق والأنساب، وألغى الفوارق بين الناس، فلا فرق بين أبيض وأسود، أو عربي وعجمي، والناس سواسية لا فضل لأحدهم على الآخر إلا بميزان التقوى والإيمان، كما حثَّ الدين على مكارم الأخلاق، وربط الزواج بالدين والخُلق، قال ﷺ،[1]: "إذا جاءكم من ترضون خُلقه ودينه فانكِحوه إلا تفعلوا تكن فتنة".

ولم يكن للمولى أن يتزوج من عربيّة حُرَّة، وقُصِرَ تزويجهم على نساء أقوامهم من الموالي، وعليه أن يخطبها من مولاها العربي لا من أهلها وإلا كان الزواج باطلاً، ولعل هذا يمثل اتجاهاً محدوداً عند بعض القبائل.

وإذا تزوَّج المولى من عربيّة وعُلِمَ أمره فإنّهُ يُعاقب على فعلته ويُفرَّق بينهما، ومن ذلك، ورد أن قدم أعراب من بني سُليم أقحمتهم السنة إلى الروحاء، فخطب إلى بعضهم رجل من الموالي فزوّجوه، فغضب محمد بن بشير الخارجي من هذا الأمر، وركب إلى المدينة، وشكا ذلك إلى والي المدينة وكان يومئذٍ إبراهيم بن هشام بن الوليد بن المغيرة، واستعداه الخارجي على المولى، فأرسل إبراهيم إلى المولى وإلى بني سُليم، وأبطل الزواج وفرّق بين المولى وزوجته، وعاقبه عقاباً شديداً؛ إذ ضربه مائتي سوط وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه، وصوَّر محمد بن بشير ذلك شعراً[2]

---

(1) الهندي، علي بن حسام، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، ج16/ 318، رقم الحديث (44701).

يقول[1]:

شهدتَ غداة خصم بن سُليم ... وُجُوهاً من فَضَائِل غير سُودِ
قَضَيْتَ بسُنَّةٍ وحَكَمْتَ عَدْلاً ... وَلَمْ ترث الحكومة من بعيدِ
إذا غُمِزَ القنا وَجدتْ لعمري ... قناتُكَ حين تغمرُ خيرَ عَودِ
إذا غضَّ الثِّقاتُ بها اشْمأزَّتْ ... أَبِي النُّفس بائنة الصعودِ
حمى حَدَبا لحومَ بنات قومٍ ... وهم تحت التراب أبو الوليدِ
وفي المئتين للمولى نكالٌ ... وفي سلب الحواجب والخدودِ
إذا كافأتهم ببنات كسرى ... فهل يجد المولى من مزيدِ
فأيُّ الحقِّ أنصف للموالي ... من اصهار العبيد إلى العبيدِ

كما ورد أن بعض الموالي أخذوا يدَّعون لأنفسهم أنساباً عربية، من خلال موالاتهم لبعض قبائل العرب، وانتسبوا لها، وذلك لتخفيف حدة الصدام مع العرب، وليرفعوا من مكانتهم الاجتماعية المتردية، ويتمكنوا من قضاء حوائجهم وتحقيق مكانة ومنزلة متقدمة في المجتمع، ولكن الشعراء عرضوا لذلك الأمر، وبينوا مثل تلك الدعوات رويَ أن رجلاً من بني عبد القيس زوّج ابنته من أحد الموالي، ممَّن كانوا يدّعون الانتساب للعرب، مما أثار أبو بجير الشاعر وأسخطه، فثار مؤِّنباً عبد القيس بفعلهم ومعرِّضاً بالموالي، ويذكر أوصافهم وخصالهم التي تفضح وتكشف مثل هذا الأدعاء، وعدَّ الشاعر أن زواج المولى من ابنة الرجل

---

(1) الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، ج16/ 72.
وينظر: شعر محمد بن بشير الخارجي ضمن كتاب: شعراء أمويون القسم الثالث، تحقيق: نوري حمودي القيسي، المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1982م، ص 155- 170.
محمد بن بشير الخارجي: هو محمد بن بشير بن عبد الله بن عقيل بن عدوان الخارجي، يكنّى أبو سليمان، شاعر حجازي مطبوع فصيح من شعراء الدولة الأموية، وينسب إلى المدينة (شعراء أمويين، ص 157).

القيسي من الكبائر[1]:

أمِـن قلّـةٍ صـرتم إلى أن قبلـتُم ... دعـــاوة زرّاع وآخـــرَ تاجـــرِ
وأصـهبَ رومـيّ وأسـود فـاحم ... وأبـيضَ جَعـدٍ من سُراة الأحامرِ؟
شـكولهم شـتّى وكـلّ نـسيبكم ... لقـد جئتم في الناس إحدى المناكرِ
متـى قـال: إنّـي مـنكم فمـصدّق ... وإنْ كـان زنجـيّاً غلـيظ المـشافرِ
أكلّهـــم وافي النـــساءِ جـــدوده ... وكُلُهـــم أوفي بـــصدق المعـــاذرِ
وكُلّهـــم قـــد كـــان في أولـــيّة ... لـــه نـــسبةٍ معـــروفة في العـــشائِرِ
على علمكم أنْ سَوفَ ينكح فيكم ... فَجـدْعا ورغمـاً للأنوف الصواغرِ
فهــــلاّ أبيـــتم عِفّـــةً وتكـــرّما ... وَهَـلاّ وجلْـتم مـن مقالـة شـاعرِ

فالـشاعر ينكـر علـى عـبد القـيس قـبولهم هـذا الأمر ومصاهرة الموالـي، وأوصـافهم تـدلل علـى هويـتهم غـير العـربية، وتـبطل دعوى انتـسابهم إلى العـرب، فـشدة الـسواد، وصـهبة اللّحـى، وجعـودة الشعر، وغلـظ الـشِفاه ليـست من صفات العرب، ويدعو الشاعر بني عبد القيس إلى الترفـع عـن تـزويج المولى تكرّماً وعفّة، مُحذراً لهم من هجاء الشعراء الذي سيطالهم من هذا الفعل.

ويـسخر الشاعر من عبد القيس، ويتهكم بهم من خلال التساؤل الإنكـاري، فلعـلّ هـؤلاء الموالي من الترك والعجم والهنود والديلم تعود إلى أصـول عـربية لا يعـرفها الـشاعر، أو لـربما تعـود في نَـسَبها إلى قبائل مذحج وبني عامر، يقول[2]:

---

(1) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج3/ 42.
أبو بجير: لم أعثر له على ترجمة.
(2) ابن عبد ربه، ج3/ 406.

فقد صرتُ لا أدري وإن كنت ناسياً | لعلَّ تُجّاراً من هلال بني عامرِ
وعلَّ رجال الترك من آل مذحجٍ | وعلَّ تميماً عصبة من يحامِرِ
وعلَّ رجال العجم من آل عالجٍ | وعلَّ البوادي بُدِّلت بالحواضرِ
زعمتم بأن الهندَ أولاد خندفٍ | وبينكم قُربى وبين البرابرِ
وديلم من نسل ابن ضبة باسلٍ | وجرجان من أولاد عمر بن عامر

ثم يسخر الشاعر منهم ويهجوهم، ويعرِّض بالموالي، ويرى أن الروم أكرم منهم، وهم أصحاب الحق بالانتساب إلى الملوك، ويصف الموالي بالشر واللؤم، بل إنهم من أشد الناس شراً، يقول[1]:

بنو الأصفر الأملاك أكرم منكم | أوَلى بقربان ملوك الأكاسر
أأطمِعُ في صهري دعيّاً مُجاهراً | ولم ترَ شراً من دعيّ مجاهر؟
ويشتمُ- لؤماً عرضه وعشيرهُ | ويمدحُ جهلاً طاهراً وابن طاهر

ويظهر أن العرب كانوا يأنفون من اختلاط الدم العربي بغيره، ولذلك كان بعضهم يرفض زواج الموالي والآخر غير العربي عامة، كما امتنع بعض العرب عن مصاهرتهم، خوفاً من العار أو درءاً من هجاء الشعراء والتعريض بهم بين القبائل.

ولكن هل كان هذا الأمرُ عاماً بين العرب كافّة؟ وهل رفض العرب زواج الموالي ومصاهرتهم، بحيث يمكن تعميم هذا الأمر على العرب؟ الظاهر أن مسألة زواج الآخر (الموالي) وغيرهم من العرب كان متفاوتاً بين القبائل العربية، وإذا امتنعت بعض قبائل العرب عن زواج الآخر، ورأت فيه سُبَّةً ووصمة عار، فإن بعض القبائل لم تجد في ذلك غضاضة وسمحت بذلك، فقد ورد أن بعض الموالي تزوج من بنات

---

(1) المصدر نفسه، ج3/ 407.

العرب، وربما يكون هذا الأمر مقبولاً عند بعض قبائل العرب الذين تمثلوا قيم الدين الإسلامي وتعاليمه، وكانوا يرون أن الناس متساوون في الإسلام، ولم تؤثر فيهم المفاخرات والمنافرات العِرقية، أو ربما وَجَدَ بعضهم في تزويج الآخر مصلحة اجتماعية أو منفعة مادية، ومن ذلك تزويج إبراهيم بن النعمان بن بشير ابنته من أحد الموالي.

فقد روي أنَّهُ قيل لإبراهيم بن النعمان بن بشير الأنصاري عندما زوَّج ابنته ليحيى بن أبي حفصة (جد مروان الشاعر): زوَّجت عبداً وفضحت نفسك وأباك، وعيَّره أحد الشعراء بذلك، لأن يحيى من الموالي فقال الشاعر في استنكار هذا الأمر[1]:

لعمري لقد جلّلت نفسك خزيةِ ... وَخَالَفْتَ فِعْلَ الأَكْثَرينَ الأكارمِ
وَلَوْ كانَ جَدَّاكَ اللَّذان تَتَابعا ... ببدرٍ لما راما صَنَيع الألائمِ

ولم يحفل إبراهيم بذلك، وقال شعراً[2]:

ما تركت (عِشرُونَ) ألفاً لِقائلٍ ... مَقَالاً فلا تُحفِلْ مَقَالَةَ لائمِ
فإن أكُ قد زوَّجتُ مولىً فقد مَضَتْ ... به سُنَّةٌ قبلي وحُبُّ الدراهم

وورد في كتب الأخبار والتاريخ كثير من الحوادث، تزوّج فيها الموالي من العرب ومن ذلك ما ذكر من أن حمران بن أبان* وأولاده

---

(1) ابن المعتز، عبد الله بن المعتز بن المتوكل (ت 296هـ)، طبقات الشعراء، تحقيق: عبد الستَّار أحمد فرَّاج دار المعارف، مصر، د.ت: هامش، ص 44.
وينظر: ابن قتيبة، أبو عبد الله بن مسلم (ت 276هـ)، عيون الأخبار، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت، 1970م، ص ج4/ 16.

(2) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج2/ 764 **الصواب**: (عِشرُينَ).
وينظر: ابن قتيبة، أبو عبد الله بن مسلم (ت 276هـ)، عيون الأخبار، ص ج4/ 16.

* حمران بن أبان بن عبد عمرو، يكنى: (أبا زيد) كان يهودياً واسمه (طويد)، تزوج من امرأة من بني سعد، وتزوج ولده في العرب.

تزوجوا من العرب، كما تزوّج الفقيه محمد بن سيرين من فتاةٍ عربية[1].

وغلبت نظرة الدين الحنيف وتسامحه عند بعض العرب على النسب والعِرق، ولذلك صاهروا الآخر وزوَّجوه، كما تزوّج بعض العرب من نساء الموالي، كالفارسيات والروميات والبربريات، مما أدى إلى اختلاط الأنساب وتعددها في المجتمع العباسي، حيث أصبح كثير من الخلفاء العباسيين من أولاد الأعجميات، وكان زواج العربي من الأمة ظاهرة اجتماعية بارزة في العصر العباسي، كذلك تزوج العرب من السَّراري، لكثرتهم في المجتمع العربي، وتفوّقهم في ميادين الفكر، والثقافة، والأدب، وأخذ بعض الشعراء يحثُّ على الزواج من غير العربيات، ومن ذلك ما ورد من قول أحد الشعراء[2]:

لا تَشْتمنَّ امرءاً في أن تكون له ... أمٌّ من الرُّوم أو سوداءَ عَجْمَاءِ
فَإنّما أمُّهات النَّاس أوعية ... مستودعات وللأحساب آبَاءِ
وَرُبَّ واضحة ليست بمنجبةٍ ... وربّما أنْجَبَتْ للفَحْلِ سَوداءِ

وأما زواج المرأة العربية من الموالي، فظل محفوفاً بالمخاطر، وغير مرغوبٍ فيه، ومع أنَّهُ كان يتمُّ أحياناً، إلا أن المجتمع لم يكن يرضَى عن ذلك.

---

(1) ينظر: ابن قتيبة، المعارف، تحقيق: ثروت عكاشة، طبعة دار الكتب، القاهرة، 1960م، ص 442.

(2) ينظر: ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم، عيون الأخبار، ج4/ 9.

ثانياً: النبط

اتصل العرب بغيرهم من الأمم في الجزيرة العربية وخارجها، ومن الأقوام التي عَرَفها العرب، النبط، وعلاقة العرب بالنبط يكتنفها الغموض وعدم الوضوح، ارتبطت بالهجاء، أو عد المهجو من النبط، وارتبط النبط باللؤم عند العرب، وتمثيلات النبط في الشعر ليست واضحة الصورة، ومع ذلك يمكن الحصول على تلك التمثيلات، من خلال كتب التاريخ، وفي الشعر العربي الذي عرض للنبط.

أصلهم ونسبهم:

النبط من الأقوام غير العربية، سكنت سواد العراق، والنبط أو النبيط هم جيلٌ كانوا ينزلون السواد من أرض العراق، والنسب إليهم "نبطي".

وأمّا تسميتهم فترتبط بطبيعة أعمالهم واستنباطهم ما يخرج من الأرض، والنبط: هو الماء الذي يُنبط من قعر البئر إذا حُفرت[1].

ولعلّ تسميتهم بالنبط تعود إلى اشتغالهم بالأرض وأعمال الفلاحة والزراعة، أو إلى نسبهم، إذ يعلل المسعودي سبب تسميتهم بذلك لأنهم من ولد: "نبيط بن باسور ابن سام بن نوح أو لاستنباطهم الأرض والمياه، ... وقيل لمعان كثيرة"[2].

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، (نبط).

(2) المسعودي، التنبيه والإشراف، لجنة تحقيق التراث، منشورات مكتبة الهلال، بيروت، 1981م، ص 84.

وقـد ورد ذكر النبط في الأمثال العربية؛ جاء في حديث عمرو بن معـد يكرب: سأله عمر عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم- فقـال في وصفه: "أعرابيٌّ في حبوته، نبطيٌّ في جبوته"[1].

والنـبط غـير الأنـباط؛ لأن الأنباط من الممالك العربية المغرقة في القـدم، هاجـروا مـن الجزيـرة العـربية إلى بادية الشام وفلسطين، وهؤلاء ينتسبون إلى: ثابـت بـن إسماعيل، من عرب الشمال، أمّا النبط فهم من غـير العـرب، نـزلوا سواد العراق، كانت أعمالهم بالزراعة كما أن لغتهم تختلف عن لغة العرب، وكانوا على علاقة عدائية مع العرب، بل هم من أشد أعداء العرب.

ويـرد لفـظ الأنـباط بالأنـبات أو النـبت أحـياناً بإبدال الطاء تاءً للتفـريقِ بيـنهم وبـين نـبط العـراق، وهـي نـسبة إلى جَـدَّهم (نابـت بـن إسماعيل).

صورة النبط في الشعر العربي:

اهـتم الـشعر العربـي بوصـف النـبط والتعـريض بهم من حيث ألوانهم، لأن اللون يلعب دوراً بارزا ومهماً في حياة الإنسان، فهو أول ما يُلفـت الانتـباه إلـيه، إضـافة إلى الـصفات الـتي يتصف بها الشخص من سمـات خَلقـية، كلـون العيـنين، أو حجـم الأنـف، والـشَّعر مـن حـيث الـسبوطة والجعـودة، وغـير ذلـك مـن صـفات تتبدى للناظر من الوهلة الأولى.

---

(1) الميداني، مجمع الأمثال، ج1/ 72. وينظر: ابن منظور، لسان العرب، (نبط).

وصف الشاعر العربي النبط بالحمرة والصهبة، فقد ورد ي معرض هجاء عبيد الله بن زياد، يؤكد أحد شعراء بني أسد على لون لحمرة أو الشقرة لإخراج المهجوٍّ من نطاق العروبة، يقول[1]:

لَسْتُمْ قُرَيْشاً ولكن أنتُمْ نَبَطٌ
صُهْبُ اللِّحَى والنَّواصِي صُهْبَةُ اللِّيفِ

كما إن صهوبة اللِّحى، وأحمرار اللون، وزرقة العيون من الصفات التي اعتمد عليها الشعراء في إخراج المهجو من دائرة العروبة وأحسَّ العربي باختلاف لغته عن لغة النبط، وذكروا لغة النبط غير المفهومة بالتراطن، وبذلك أحسَّ بعض الشعراء بالغربة اللغوية وهو يستمع إلى تراطن النبط عند حديثهم، مما يعني أن لغتهم كانت متداولة بينهم ومعروفة في ذلك الزمن، والشاعر يصف مهارة النبط في البحر، ويصوّر مراكبهم في البحار، وقد زُيِّنت بالودع يقول الشاعر في وصف سفينة روادها من النبط[2]:

عَجِبْتُ كُلَّ العَجَبِ مِنْ سَيْرِ هَذَا المَرْكَبِ
مُزَيَّنٌ بالوَدْعِ في الصَّدرِ وَلَمْعِ العَذَبِ
لَهُ شِرَاعٌ مُشْرِفٌ كالبند يوم الشَّغَبِ
فُرْسَانُهُ الأنباطُ مِنْ مَيْسَانَ أَهْلِ الرِّيَبِ

---

(1) دقة، محمد علي، ديوان بني أسد، دار صادر بيروت، 1999م، ج2/ 471. نقلاً عن: المزروعي، فاطمة، صورة الآخر، ص 172.

(2) ديوان علي بن الجهم، ص 115- 116.

ثـم يـصف الـشاعر كلامهم وحديثهم، غير المفهوم، حيث تتعالى أصواتهم بالغناء بلسانهم لا بلسان العرب، يقول[1]:

وكُلّهـــــــم مـــــنطقُهُ	عـــند الرِّضـــا بالغـــضبِ
إذا اســـتراحوا فهـــــمْ	في راحـــةِ مـــن تعـــبِ
عالـــــية أصـــــواتُهم	عـــند الغـــناءِ المُطـــربِ
بمـــاء بانـــاً كُلُّهُـــمْ	لا بلـــسان العـــربِ

وقد وصف الجاحظ النبط، في نص لا يخلو من الغرابة والطرافة، إذ يذكـر أن لهـم أذناباً كأذناب التماسيح أو السلاحف، معللاً ذلك بتأثير البيئة، يقـول: "حدثنا من لا يُحصى من الناس أنهم قد أدركوا رجالاً من نـبط بيـسان*، لهـم أذنـاب إلاّ تكـن كأذناب التماسيح، والأسد، والبقر، والخيل، وإلاّ كأذنـاب الـسلاحف، والجرذان فقد كان لهم عُجوبٌ طِوالٌ كالأذناب، وربّما رأينا الملاّح النبطي في بعض الجعفريات على وجهه شبه القرد، ..."[2].

تتـضح العجائبـية في وصـف النـبط في الـنص الـسابق، ولعـلّ الجاحظ أورد هذا الوصف على سبيل التخيّل والتندر، ودلالة على سلبية النبط في الفكر العربي، وهمجيتهم التي تشبه الحيوانات.

وكـان وجـود النـبط في جـوار بعض القبائل العربية، مادة اعتمد عليها الشعراء في هجاء الخصوم، وأنهم لا ينتسبون إلى العربية، فالفرزدق

---

(1) المصدر السابق، نفسه، ص 116.

* بيسان: قرية عراقية في نواحي الموصل.

(2) الجاحظ، أبـو عـثمان عمـر بـن بحر، **الحيوان**، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، 1996م، ج4/ 72.

ـو قبيلة طـيء، ويـصفهم بـأنهم مـن النبط، وأهل القُرى، لأنهم لا
مُون بالعمـائم الـتي تـشير إلى هـوية العربـي- ولاسـيما عند الشاعر
زدق الذي أكثر من ذكر العمامة في شعره- يقول[1]:

ما كُنتُ أخشى طيئاً أنْ تسُبَّني وهـمُ نـبطٌ لم تعتـصبْ بالعمائِمِ
ـيطُ القُـرى لم تختمـر أمهـاتُهُمْ ولا وَجدَتْ مَسَّ الحديدِ الكوالِمِ

والنـبط لا يتكلمون العربية، أنوفهم حمراء، ليس لهم ديانة، لأنهم
يعبدوا الأصنام في جاهليتهم، كما لم يعتنقوا الإسلام، فلا ديانة لهم ولا
دَّون المناسـك، ويركز الفرزدق على الهُويَّة الدينية من خلال ذكر ديانة
رب، ونفي هذه الديانة عن النبط، يقول[2]:

غُـمٌ أُنـوفاً لم تكـنْ عـربيَّةً لِحـيَ نـبطٍ أفـواهُهَا لم تُعـرَّبِ
فكَـيفَ ولم يَأتـوا بمكَّـة مَنْـسِكاً ولم يَعبدوا الأوثانَ عند المُحصِّبِ

وشبّه ذو الرمة المهجو بالنبط، لا دين ولا حسب لهم، يقول[3]:

إن امـرأ القـيس هـم الأنـباطُ زرقٌ إذا لاقيـــتهم سِـــباط
لــيس لهــم في حــسبٍ ربــاطُ ولا إلى حــبل الهــدى صِــراط

ويعِّـرض الفـرزدق، أيـضاً، بيـزيد بـن المهلـب ويهجوه، ويصفه
اللـؤم، الـذي تربَّـى علـيه مـنذ صـغره، وعدَّه نبطياً؛ لأن النبط يتصفون
اللؤم والخبث، فهم مجبولون على اللؤم منذ صغرهم، يقول[4]:

---

[1] ديوان الفرزدق، ج2/ 824.
[2] المصدر السابق، ج1/ 16.
[3] ديوان ذي الرمة. ج3/ 1759.
[4] ديوان الفرزدق، ج1/ 54، ينظر: ج1/ 50.

ولـو رُدَّ المهَّلـب حـيثُ ضَـمَّتْ عليه الغـافَ أرضُ أبـي صفار
إلى أم المهلَّــب حـيثُ أعطــت بـثدى اللـؤمَ فـاه مـع الـصِّغارِ
تبــيَّن آنّـــه نبطـــيٌّ بَخْـــرٍ وأنّ لـه اللُـؤمَ مـن الـدِّرارِ[1]

وربـط العـرب بـين النـبط وصـفتي اللؤم والخبث، ولذلك كانوا يرفـضون أن يتـزوجوا مـنهم أو يـزوّجوهم، وأهـل الحجاز خاصة كانوا يرفـضون مـصاهرة النـبط، وفي العـصر الأموي تعرَّض النبط إلى الإذلال والمهانـة، على يد الحجاج بن يوسف، الذي كان قد نفى النبط عن واسط عندما نزلها، وكتب إلى عامله بالبصرة يدعوه إلى نفي النبط، لأنهم مفسدة للـدين، وكتب إلى عامله في هذا الشأن[2]: "إذا أتاك كتابي فانفِ مَنْ قبلك مـن النـبط، فـإنهم مفسدة للدين والدنيا" وكتب الوالي إليه، رداً جاء فيه: "قـد نفـيت النـبط إلاّ مَنْ قرأ منهم القرآن وتفقّه في الدين" فكتب الحجاج: "إذا قـرأت كتابـي فـادعُ مـن قـبلكُ مـن الأطباء، وئمْ بين أيديهم، ليقفوا عروقك، فإن وجدوا فيك عرقاً نبطياً فاقطعه والسلام".

واتخـذ الحجـاج موقفاً متشدداً مع النبط، وجمعهم فوشم أيديهم، وكـتب في يـد كـل رجـل مـنهم اسـم القرية التي أخرجه إليها، فأصبحوا ينـسبون إلى قُـراهم، ونـسب إلى الحجـاج قـوله في ذلـك[3]: "أنـتم عُلـوج وعجم، وقراكم أولى بكم".

(1) **الغف**: شجر ضخم تغيب فيه الإبل **الصِّغار**: الذل **أبو صفار**: كنية المهلب.

(2) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، ج1/ 425.

(3) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج3/ 416.

وقد عرّض الفرزدق بالنبط وهجاهم، من خلال وشم الحجاج ديهم قائلاً[1]:

ضاقَ عن قومٍ مكانُ رأيتَنا لنا العَرْضُ من أرض السَّماءِ وطُولُها
زت بِدَلْوٍ يَملأُ الأرضَ نِصفُها وخيرُ دِلاءِ المُستقينَ سَجيلُها
ى نَبطٍ من أهلِ حَوْرانَ أصبحت مُوشَّمة الأيدي، لَئيماً فُلولُها

وكان الذي تولّى أمر النقش رجلٌ من بني سعد بن عجل بن م يقال له: خراش بن جابر فقال شاعرهم في ذلك[2]:

نتَ مَنْ نقش العجليُّ راحتَه وفرَّ شيخُك حتى عاذ بالحكم

ولما استُقضي نوح بن درّاج على الكوفة- وهو من الموالي، قال ـ الشعراء مخاطباً أهل الكوفة، ومعرّضاً بابن درّاج[3]:

ا أيُّها الناسُ قد قامت قيامَتُكم إذ صار قاضيكم نوحُ بن درّاج
و كان حيّاً له الحجّاج ما سلمت كفّاه ناجيةً من نقشِ حجّاجِ

وقال آخر مُعرِّضاً بنقش الحجاج الذي طال نساء النبط أيضاً[4]:

ديوان الفرزدق، ج2/ 675.
ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج3/ 417.
يريد بالحكم: يزيد بن الحكم بن أيوب الثقفي، وهو عامل الحجاج على البصرة آنذاك.
المبرد، الكامل، ج2/ 623.
المبرد، الكامل، ج2/ 623.

جاريةٌ ما تدري ما سَوقُ الإبل   أخرجها الحجّاجُ من كنٍّ وظلٍّ
لو كان شاهداً حُذيف وحمل   ما نُقشتَ كفَّاك من غير جدِل

وبعضهم الآخر حاول أن يصطنع لنفسه نسباً عربياً، فقد كان بعض النبط يدعون النسب العربي، ولذلك كانوا عرضة لهجاء الشعراء وكشف دعواهم، فابن الرومي يهجو إسماعيل بن بلبل وادعائه الانتساب إلى بني شيبان، يقول[1]:

عجبتُ من مَعْشرٍ بعقوتنا   باتوا نبيطاً وأصبحوا عرباً
مِثْلَ أبي الصَّقر إنَّ فِيه وفي   دَعْوَاه شيبان آية عَجَبَاً
بيناه عِلجاً على جبلتّة   إذ مسّه الكيمياء فانقَلَبَا
عَرَّبَهُ جدّه السَّعيدُ كما   حَوَّلَ زَرْنيخٌ جدّه ذَهَبَاً
...
يا عربياً آباؤه نبط   يا نبعة كان أصلها غَرِبَاً

ومن الشعر الذي قيل في هجاء النبط، قصيدة أبي الأسد الحمّاني التي هجا فيها علياً ابن المنجم، وهي قصيدة طويلة يعرض فيها الشاعر إلى حياة النبط، وانتقالها من الزراعة إلى حياة القصور، ويعرض بهم وادعائهم الانتساب إلى كسرى والفرس، حيث كان بعض الأقوام يدّعي الانتساب إلى الفرس، ومن هؤلاء النبط الذين حاولوا الانتساب إلى الفرس، وذلك لتدني مكانتهم، وارتفاع مكانة الفرس عند العرب.

---

(1) ديوان الرومي، ج1/ 299.

فقد ورد أن الحمّاني هجا علياً بن المنجم، وكان بينهما خصومة، ، هـذا كـان يدّعي الانتساب إلى الفرس، فجاء هجاء الحمَّاني للنبط يقول[1]:

نع الله أنـي كـنتُ أعـرفكم | قـبل الـسيار وأنـتم في التـبابين
مـضت سـنةٌ حتـى رأيـتكم | تمـشون في القزّ والقومي وفي اللين
المشاريق مـا زالـت نـساؤكم | يـصحن تحـت الدوالي بالوراشين

وينفـي الـشاعر إدعاء النبط بالانتساب إلى الفرس، لأن كثيراً من حاولـوا أن ينتـسبوا إلى أولاد الـدهاقين مـن أبـناء كسرى، وذلك لص من الإزدراء وسوء المعاملة التي كان يلاقيها النبط، فهوّية النبط ن تلقـى المكانـة والاحترام بين العرب، لذلك حاولوا ادعاء النسب سرى والفرس، وإلى ذلك أشار الحمّاني[2]:

لأصفهاني، الأغاني، ج14/ 88.

بو لحمّاني: نباتة بن عبد الله الحِمّاني، شاعر مطبوع، متوسط الشعر، من شعراء الدولة لعبـ ن مليح النوادر، انقطع إلى الفيض بن صالح وزير المهدي، قال بعضهم إنه من بني شيبان.

الأصـفهاني، الإغانـي، ج14/ 85)، (عـبد الـرحمن، عفـيف، معجـم الـشعراء العباسـيين، ص 139).

لمصدر السابق، ج14/ 88- 89.

علي بـن المنجم: علي بن يحيى بن أبي منصور، كان شاعراً رواية علاّمة إخبارياً، نادم المتوكل وكان من خواصه، توفي (275هـ)، ينظر ترجمته في:

لمرزباني، معجم الشعراء، ص 493- 494.

عبد الرحمن، عفيف، معجم الشعراء العباسيين، ص 335.

لحموي، ياقوت، معجم الأدباء، دار الفكر للطباعة والنشر، (ط3)، 1980م، ج15/ 144- 17.

حتّى إذا أَيْسَروا قالوا وقد كَذَبُوا | نحنُ الشهاريجُ أولادُ الدهاقينِ
لو سيل أوضعهم قَدْراً وأنذلهم | لقال من فخره: إني ابنُ شُوبين
وقال أقطعني كِسْرى وورَّثني | فمن يُفاخرني أم مَنْ يُسَاويني
مَنْ ذا يُخبِر كسرى وهو في سقر | دعوى النبيط وهم بيضُ الشياطين
وأنهمُ زعموا أن قد ولدَتهمُ | كما ادّعى الضبُّ أنّي نُطفة النونِ[1]

ثم يصف الشاعر انتقالهم وتبدُّل حياتهم من زراعة البقول وعمارة الأرض إلى حياة القصور والنعيم، وقد ازداد حقدهم على العرب والدين، فهم أشد الناس عداوة الله ورسوله، ولذلك فهم شر الخليقة، يقول:

أمَا ترَاهم وَقَدْ حطُّوا برادِعَهُم | عن أتنهمْ واستبدوا بالبراذينِ
وأفرحوا عن قشارات البقول إلى | دور الملوكِ وأبواب السلاطين
تغلى على العرب من غيظٍ مراجلُهم | عداوة لرسول الله في الدينِ
فقل لهم وهمُ أهلٌ لتزنيةٍ | شرُّ الخليقة يا بُخرَ العثانين

ويُفاخر الشاعر بهويته العربية، وبالانتساب إلى نزار وقحطان في مقابل وضاعة نسب النبط، وأنهم لا يرتقون إلى مضاهاة العرب في نسبهم، لذلك فهم عرضة للسخرية والغمز في أنسابهم، فالعرب يزرون بوضاعة نسبهم وتراطنهم في لغتهم:

---

(1) **ساسان**: أبو ملوك الفرس، ساسان بن سابك
شيرين: زوجة (أبرويز) ملك الفرس
شوبين: صاحب الجيش لدى هرمز أنو شروان.
بيض الشياطين: كناية عن أولادهم.
النون: الحوت

الـناسُ إلا نِـزارٌ في أروَمتها   وهاشِـمٌ سُـرْجُها الشُّمُّ العرانين
لحـي مـنْ سَلَفى قحطانَ إنَّهمُ   يُـزْرنَ بالنـبطِ اللكـن الملاعـينِ

وينـتقل الـشاعر إلى مدح (حمدون بن إسماعيل الفارسي)، الذي
ي حاجـة الـشاعر، إذ روي أن أبا الأسد سأل علياً بن المنجم حاجة،
يفعـل، ولم ينجزها وبلغ حمدون بن إسماعيل الخبر، فسأله في حاجته
زها، فقـال أبـو الأسد قصيدته السابقة يهجو علياً بن المنجم، ويمدح
ن، وفي هـذه القـصيدة ينكـر الـشاعر على ابن المنجم الانتساب إلى
ي، ويـصل نـسب ممدوحه إلى كسرى، ويصفه بأنه كسروي الفعال،
[1]:

ا علـى ظهـرها خَلْقٌ له حسبٌ   ممـا يُناسـبُ كـسرى غـير حمـدون
رمٌ علـيه شهنـشاهيّة ونـبا   يُنبـيك عـن كـسرويّ الجدِّ ميُمونِ
شـككت ففي الإيوان صُورتُه   فانظـر إلى حـسبٍ بـادٍ ومخـزونِ

ولا بـد من الإشارة إلى أن بعض المستشرقين ذهب إلى القول: إن
ة الحمّاني تمثّل مشاعر الحزب العربي تمثيلاً صادقاً ومن ثمّة زعم أن
لقصيدة موجهة إلى هجاء الفرس وليس إلى النبط[2].
وذهـب محمـد حجـاب[3] إلى أن هـذه القـصيدة قـيلت في هجاء
، لأنهـا في هجاء علي ابن المنجم، وهو من النبط، لأنهُ خيّب رجاء

لأصفهاني، الأغاني، ج14/ 88.
حجاب، محمد نبيه، مظاهر الشعُوبيَّة في الأدب العربي، ص 196.
ينظر الخبر في: الحموي، ياقوت، معجم الأدباء، ج15/ 144.
لمرجع نفسه، ص 198.

الـشاعر، ولم يقضِ حاجته ويمدح الشاعر (حمدون بن إسماعيل الفارسي) الذي وصل الشاعر وقضى حاجته، فكيف يتأتىّ للشاعر ذم الفرس وهم قوم ممدوحه؟

ويـبدو أنّ الـرأي الأرجـح هو ما ذهب إليه حجاب، لأن هجاء الحمّاني كان موجهاً إلى علي بن المنجم وقومه من النبط، يضاف إلى ذلك مـا ورد في بعض الأبيات التي تشير إلى ادعاء النبط الانتساب إلى الفرس، ونفي الشاعر عنهم هذا الأدعاء، كقوله:

مـن ذا يُخـبر كسرى وهو في سقر ... دعوى النبيط وهم بيض الشياطين

ويضاف إلى ما سبق أن أحد الشعراء هجا علياً بن المنجم، مشيراً إلى نبطيـته، في خبر عن ابن حميد، قال المتوكل لعلي بن يحيى المنجم: أهجُ مروان بن أبي الجنوب، فقال: يا أمير المؤمنين، ومَنْ مروان حتى أهجوُه؟ قـال: مروان مولى بن أمية، ومولى القوم منهم وبعدُ فإنهم بنو عمي وأنت العـداوة بيننا، فأنتَ مَنْ أنتَ؟ قال: أنا مولاك يا أمير المؤمنين فقال: دعنا مـن هـذا الـبرود، أُهـجُ الـرجل وإلا أمـرتُهُ أن يهجـوك[1]، فوقف ساعة متفكراً، فاندفع مروان يقول[2]:

ألا إنَّ يحيـى لا يُقـاسُ إلى أبـي ... وعِـرضُ علـيٍّ لا يقـاسُ إلى عِرضي
أُنـاسٌ مـن الأنـباط أكثـرُ فخـرهم ... إذا فخـر الأشـرافُ بعضاً على بعضِ
تـنحَّل أصـلاً في المجـوس ودعـوةً ... إلـيهم نفاهـا مَـنْ بحكمهـمُ يقـضي
أبـي ذاك آذرْبَـادُ فِـيكمُ فأنـتم ... مـن السّفل الأرذال والنـبط المحـضِ

(1) الحموي، ياقوت، معجم الأدباء، ج14/ 157- 158.

(2) المصدر نفسه، ج14/ 158- 159.

حديـــثكم غـــثٌ وقُـــربُكم أذىً وآدبُكــمُ ممــزوجةُ المقــتِ بالبغــيضِ

والـشاعر يـؤكد نـسبة علـي بـن المنجم إلى النـبط الـذين كانوا ـتحلون أدعـاء النـسب إلى الفـرس، وهـم من النبط المحض، ومن السِّفل لأرذال.

ومـن تمثـيلات النـبط الأخـرى، دعـوة بعض الشعراء إلى إقامة ـسواق لبـيع النـبط، كمـا يـباع الرقيق، والحث على إقامة سوق يباع فيه لنبط كما يباع سماد الأرض، وإلى ذلك أشار علي بن الجهم قائلاً[1]:

وأنـباطُ الـسوادِ قـد استحالوا بهـا عـرباً وقـد خَـرِبَ الـسوادُ
ولـو شـاء الإمـامُ أقـام سـوقاً فـباعهم كمـا بـيع الـسماد

وعـاب المتنبي على كافور معرفة الأنساب وتدريسها، وعدَّه نبطياً ن أرض السواد[2]:

بهـا نَبَطـيٌّ مـن أهـل الـسَّوادِ يُـدَرِّسُ أنـسابَ أهـلِ الفـلا

إنَ صـورة النـبط في الـشعر العربي متدنية، فكان العرب ينظرون إلـيهم نظـرة دونـية قـوامها الإزدراء والانتقاص الممزوجة بالشر والخبث الـذي لازمهـم، وارتـبطت هـذه النظرة للنبط بوضاعة نسبهم، والاعتزاز بالنـسب العربـي الـذي اعـتمد علـى نقـاء الدم العربي وهوية العرب في العصر الأموي، لذلك كان النبط في منزلة اجتماعية متردية، يعملون فـي

(1) ديوان علي بن الجهم، ص 167.
(2) شرح ديوان المتنبي، ج1/ 167.

الزراعة وفلاحة الأرض وبعض المهن والحِرف التي كان العربي يأنف من هذه الأعمال.

وظلت صورة النبط الدونية في العصر العباسي، عصر اختلاط الأجناس وتعددها، كما وظلت السلبية تلازمهم، فكان لفظ نبطي يرد في الشعر العربي على سبيل التحقير والحط من شأن المهجو، فالرقاشي يهجو أبا نواس بأنّه نبطي على سبيل الازدراء والاحتقار وقلة الشأن، يقول[1]:

نبطيٌّ فإذا قيل له ... أنت مولى حكم قال: أجل
هو مولى الله إذ كان به ... لاحقاً والله أعلى وأجل
واصفاً نسبته حيث اشتهى ... فإذا ما رابه ريبٍ رحل

وفي العصر العباسي ظل النبط يعملون في الأرض والزراعة، وأخذوا يمتهنون الصناعات والحرف[2]، ويبدو أن تأثيرهم أصبح أكثر مما كان في الدولة الأموية، ونجد الشعر العربي يعرض إلى النبط، ولا تختلف تمثيلاتهم عن سابقتها، لكن نجد بعض الشعراء يتحسَّر على أيام الحجّاج الذي نفى النبط وألزمهم قُراهم، ووشمهم بأيديهم، وظلّ الوشم يذكر في شعر العصر العباسي، فكان النبط عرضة للإزراء والسخرية.

ورد أن رجلاً نبطياً قَدِمَ إلى المأمون يطلب منه العدل ويتحَّسر على عمر، فقال له المأمون: إن عمر كان يقول: من كان جاره نبطياً

(1) أبوبكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، (ت 463هـ)، **تاريخ بغداد أو مدينة السلام**، تحقيق: مصطفى عبد القادر، دار الكتب العلمية، بيروت، (ط1)، 1997م، ج12/ 342.

(2) الجاحظ، الحيوان، ج7/ 165.

حتاج إلى ثمنه فليبعه، فإن كنت تطلب سيرة حكمه فهذا حكمه، ثم أمر بألف درهم، وأمر صاحبه أن ينصفه"[1].

ويتبين أن النبط من الأجناس التي عاشت في الدولة العربية، كانت نظرة العرب لهم نظرة سلبية وهامشية في العصر الأموي والعباسي أيضاً، وظلَّ النبط أقلَّ منزلة من الأجناس الأخرى، كما رضوا للاضطهاد وهجاء الشعراء منذ العصر الأموي، وأصبح لفظ النبط يشير إلى وضاعة نسب المهجو، وعرف العرب من أطباع النبط صفات سلبية كاللؤم الذي لازم تمثيلاتهم، ونسبة الشرّ إليهم، وكان يقال ذلك[2]: "لؤم النبط ونخوة العرب".

وأمّا ثقافة النبط، فلمْ أجد ما يشير إلى وجود ثقافة لهم، إلا ما ذكر من أن بعض الكتب ترجمت من النبطية إلى العربية، ومن ذلك كتاب: "الفلاحة النبطية" الذي نقله "أحمد بن علي بن المختار النبطي (ت 291هـ) إلى العربية، وغير ذلك من الكتب التي نقلت بفعل الترجمة إلى العربية"[3].

ويبدو أن لغة النبط كانت معروفة في العصر العباسي، فقد ذكر علي بن الجهم تراطنهم بالنبطية[4].

---

(1) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء ومحاورات البلغاء، ج1/ 45.

(2) علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، (ط1)، 1970م، ج4/ 586.

(3) زيدان، جرجي، تاريخ التمدن الإسلامي، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، د.ت المجلد الثاني، ص 177- 178.

(4) ينظر ص 65، من هذا البحث.

ثالثاً: الرقيق والجواري

انتشر الرقيق، وهو من الآخر/ غير العرب في المجتمع العربي انتشاراً كبيراً- ولاسيّما في العصر العباسي، وكان الرقيق والجواري قد تدفق إلى بلاد العرب إثر الفتوحات الإسلامية، وكثرة الحروب مع الآخرين، وكانت غنائم المسلمين من الرقيق والسبايا كثيرة وكبيرة، ففي يوم المدائن غنِم المسلمون جواري من بلاد فارس جيءَ بهنّ من الآفاق[1].

وشجَّع الخلفاء والولاة على استجلاب الرقيق، واستخدام الجواري، فتعددت أجناس الرقيق الجواري في قصور الخلفاء ومنازل الولاة، وكثُرَ في المجتمع كثرة كبيرة[2]، وكان من أديان وأجناس متعددة، منه الأبيض والأسود، وكان الرقيق الأبيض يُحملُ إلى بلاد العرب من وراء النهر، والصقالبة، أو من الترك من بادية تركستان، كما يُحمل من الأندلس، أيضاً، وأصله من سبي الإفرنج، وأفضل الرقيق الذي كان يُربَّى في سمرقند وخوارزم، ثم ينقل إلى بلاد العرب، وأمّا الرقيق الأسود فكان مصدرهُ من بلاد الحبشة، وأفريقيا، والسودان.

ورَغبَ الخلفاء- منذ العصر الأموي- في امتلاك الجواري، وأكثروا منهنَّ، وحثّوا على اجتلابهن، فقد ورد أن عبد الملك بن مروان كان يقول: "من أراد أن يتخذ جارية للتلذذ فليتخذها بربرية، ومن أراد أن يتخذها للولد فليتخذها فارسية، ومن أراد أن يتخذها للخدمة فليتخذها

(1) البلاذري، أبو العباس أحمد بن يحيى (ت 279هـ)، فتوح البلدان، ص 262- 263.

(2) ينظر: زيدان، جرجي، تاريخ التمدن الإسلامي، منشورات مكتبة الحياة، بيروت، د.ت المجلد الثاني، ص 300.

ميّة، من أراد الباءة فعليه بالبربريات، ومن أراد الخدمة فعليه روميات، ومن أراد النجابة فعليه بالفارسيات"[1].

وكان الرقيق يباع ويشترى في الأسواق، ويفاضَل بين الرقيق لحسن، أو القبح، وأصبحت تجارة مزدهرة في حاضرة الدولة العباسية، صف الجاحظ تجارة الرقيق وأسلوبها بقوله[2]: "الرقيقُ تجارة من تجارات تقع عليها المساومات، والمشاورة بالثمن، ويحتاج البائع والمبتاع يستشفا العِلقْ، ويتأملاه تأملاً بيّناً، يجب فيه خيار الرؤية المشتَرطُ في يع البياعات، وإن كان لا يُعرَف مبلغه بكيلٍ ولا وزنٍ، فقد يُعَرف لحسن والقبح".

ولذلك ارتفعت أثمان الجواري والرقيق، وبلغت آلاف الدنانير، د ورد أن يزيد بن عبد الملك اشترى سلاَّمة بعشرين ألف دينار[3] لغت تجارة الرقيق أوجها في العصر العباسي، وتعدّدت أجناسه وأعراقه نها: الصقلي، والحبشي، والسندي، والفارسي، والرومي ومن بلاد ربر، وأثّرت هذه الأجناس في الحياة الاجتماعية والثقافية تأثيراً واسعاً، كان للجواري أبرز الأثر في حياة الخلفاء والمجتمع، وبخاصة اللواتي تعن بحظٍ وافر من الجمال والأدب، وإجادة الغناء والضرب على آلات الموسيقية، أمثال: حبابة وسلاَّمة، ونهض الرقيق والجواري بفن غناء نهضة عظيمة، بل ابتدعوا فن الغناء وارتقوا به.

الأصفهاني، الأغاني، ج8/ 10.

الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر، (ت 255هـ)، <u>رسائل الجاحظ</u>، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل بيروت، (ط1)، 1991م، كتاب القيان، ج2/ 161.

ينظر: الأصفهاني، الأغاني: ج8/ 242- 243.

سلاَّمة القس، من مولدات المدينة، أخذت الغناء عن معبد وابن عائشة وجميلة، اشتراها يزيد بن عبد الملك، ج8/ 240.

وكان الخلفاء يجيزون الشعراء بإعطائهم الجواري الحسان، فالوليد بن عبد الملك كان قد كافأ ابن ميّادة وأهداه جارية أعجمية، جميلة حسناء، لكنها لا تفصح إذا تكلّمت، فقال ابن ميّادة الشاعر في ذلك[1]:

جزاكَ الله خيراً من أميرٍ   فقد أعطيت مِبراداً سخونا
بأهلي ما الدّكِ عَنْدَ نَنْسِي   لو أنَّكِ بالكلامِ تُعرِّبينا
كأنَّكِ ظَبيةٌ مَضغتْ أراكا   بوادي الجزعِ حينَ تبغمَينا

وأطلق العرب لفظ "العبيد" على الرقيق عامة، وأصبحت هذه اللفظة تُطلق على كل من وقع استرقاقه أو استعباده في الفترة الإسلامية الأولى، وفُرض على الأرقاء الوظائف والأعمال المحددة من قبل أسيادهم، فعملوا في المنازل، وأعمال الزراعة، والحرف اليدوية، وتطوّر مدلول هذه اللفظة مع اتساع الدولة العربية الإسلامية، ودخول أجناس كثيرة، وكثرة الرقيق وتعدده وارتبط بالأصول العرقية، واكتسب دلالة لونية، فأصبح لفظ "العبد" يعني: العبد المتّصف بالسواد[2]، ولعبت أجناس العبيد وأصولهم دوراً بارزاً في تشكيل صورتهم ورسم أبعادها في الأدب والشعر العربي.

---

(1) ابن ميَّادة، الرماح بن أبرد (ت 149هـ)، **شعر ابن ميادة**، جمع وتحقيق: حنّا حداد، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، 1982م، ص 233.
ابن ميَّادة: الرماح بن أبرد، وفد على الوليد بن يزيد يمدحه فاستحسنهُ، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، كان جيد الغزل، وكان شاعراً مطبوعاً.
ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج2/ 484.
معجم الشعراء العباسيين، ص 188.
الأراك: شجر يشبه الحمض، يعمل منه السواك. التبغيم: هو ترخيم الصوت.

(2) ينظر: ابن حسن، المنصف: **العبيد والجواري في حكايات ألف ليلة وليلة**، دار سيراس للنشر تونس، 1994، ص 68- 69.

وكانت معاملة العرب للجواري والرقيق معاملة قاسية، ـطهدوا العبيد، وخالفوا في ذلك تعاليم الدين الحنيف الذي أبطل ِق، وأمر بتحرير العبيد، واحترام إنسانية الإنسان، وكانوا يعملون لأرض والزراعة أو الحرف والصناعات، وظهر العبيد من "الخصيان" ين كانوا يقومون بالأعمال المنزلية والخدمة.

وكان العبد من هؤلاء يسمَّى "فتى" والجارية "فتاة" أحياناً، ولَقَي ـى معاملة قاسية، فاضطُهد وأُمتهن من سيِّده، وكان يُضرب كالدواب ـنى الأسباب، فقد مرَّ رجلٌ بصديق له، فرآه يضربُ عبداً له، فنهاه عن لك، وأخذ يذكّره بحق الصديق في عبوديةِ الطاعة وأخوَّة العبد في حق يمان، وقال في ذلك[1]:

ن كـنتَ تَطْلبُ فَضْلاً   إذا ذُكِرْتَ ومجداً
كـن لعبّدك خِلاً   وكُن لخلك عَبْدا

وكان في كل مدينة كبيرة في الدولة العباسية سوق كبير خاص رقيق، يتم فيه البيع والشراء، وكان يقوم على مراقبتها وتنظيمها، ظّفٌ، كان يُطلق عليه "قيِّم الرقيق" يهتم بها ويدير شؤونها، ومن هذه سواق سوق سامِرَّاء، وهي سوق مرَّبعة الشكل، كبيرة كما كان سوق مرقند" من أكبر الأسواق التي يجلب منها الرقيق[2].

التوحيدي، أبو حيان علي بن محمد بن العباس (ت 414هـ)، **الصداقة والصديق**، تحقيق: إبراهيم الكيلاني، دار الفكر، دمشق (ط2)، 1996م، ص 312.

ينظر: ضيف، شوقي، العصر العباسي الأول، مرجع سابق، ص 56- 57.

القينة: الأمة المغنية، من التقيُّن وهو التزيُّن، وقيل: الأمة مغنيَّة وغير مغنيّة، او هي الجارية التي تخدم، ويطلق هذا على المغنيّة إذا انصرفت إلى الغناء، وهذا من عمل الإماء دون الحرائر، والإماء من غير العرب، يشترين بالمال للخدمة أو التسري، (اللسان، قين).

وأسهب ابن عبدون في وصف الرقيق وأجناسهم، وصفات كُل جنس من الرقيق وأحوالهم، وذكر أَمر بيعهم في الأسواق، "فكم من سمراء كمدة بيعت بصفراء مذهَّبة، وممسوح العجز بثقيل الروادف..."[1].

مما يدلل على كثرة الجواري والإماء في المجتمع العربي في العصر العباسي، وانتشار القيان في قصور الخلفاء والأمراء، وفي الأسواق والملاهي والحانات، وكان الرقيق من الجواري والإماء أكثر عدداً من الرجال، فاختلطن بالرجال ولم يكن بينهن وبين الرجال حجاب، بينما كان الحجاب يحول بين المرأة العربية والرجال.

كثرت الجواري في قصور الخلفاء وحظيت هذه الجواري بمكانةٍ مرموقة لدى الخلفاء والوزراء وأعيان المجتمع، وكثر اللهو والفساد في المجتمع، ومن ثمَّة أصبح كثير من الجواري أُمهات الخلفاء، وخاصة الجواري الروميات، والتركيات، فالمنصور والهادي والمعتصم والمأمون والمقتدر وغيرهم من أبناء أجنبيات وغير عربيات، مما أثر على السياسة العباسية، وأدّى إلى تدخل الآخر في الحكم العباسي.

وكان الشعراء يقصدون الحوانيت وأماكن اللهو، ودور النخاسة، التي كانت تغصُّ بالجواري والمغنيات، وكان يقوم على إدارة هذه الأماكن "النخّاسون" وهم من الأعاجم من غير العرب.

وكان الشعراء يتقربون إلى النخاسين وجواريهم، ويحملون الهدايا والهبات لهم ليتمتعوا باللهو والتغزل بالجواري، وكانت دور النخّاسة من الأماكن التي كان يقصدها الشعراء ويترددون عليها، وصار

---

(1) متز، آدم، **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري**، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (ط2)، 1990م، ص 229.

النخاس يُزار ولا يكّلف الزيارة ويهدى إليه[1].

وأكثر الشعراء من الغزل بالجواري، وذكر مفاتنهنَّ ومحاسنهنَّ، ووصف اللقاء معهن المصحوب باللهو والمجون والخلاعة، مما أدّى إلى ظهور فن الغزل بالجواري، والغُلاميات، والغزل بالمذكر.

ويصف علي بن الجهم جواري أحد النخاسين، يُدعى "المفضّل" ويصوّر أساليب الجواري في ابتزاز الزائر، وهن في ذلك كصاحب الحانوت والدار في ذلك، ثم يذكر طرق الإغواء واللهو التي اتصفن بها، يقول[2]:

أوَانِسَ مَا بَيْنَهُنَّ للضَّيْفِ حِشْمَةٌ ... ولا رَبُّهُــنَّ بالَمهــيبِ الُمــبَجّلِ
يُسُّر إذا ما الضَّيفُ قلَّ حَيَاؤُهُ ... وَيَغْفُلُ عَنْه وَهَوَ غيرُ مُغَفَّلِ
وَلاَ يَدْفَعُ الأَيْدِي السَّفِيَهة غَيْرَةً ... إذا نَالَ حظّاً من لبوسٍ وَمَأْكَلِ
لَكَ البيتُ ما دامت هداياكَ جَمَّةً ... ودمتَ مليّاً بالشَّرابِ الُمعسّلِ

وتحوّلت النخاسة في العصر العباسي إلى حِرفة ومهنة، يعمل في امتهانها غيرِ العرب، فهي تحتاج إلى معرفة ودراية ودربة في طبائع النفوس، وانتشرت هذه الأماكن في المجتمع العباسي، وساعدت على الانحلال الخلقي، ونشر الفساد واللهو والمجون، واشتهر الشاعر أبو دلامة

---

(1) ينظر: الجاحظ، رسائل الجاحظ،ج2/ 168.
وينظر حول ذلك: الفريح، سهام عبد الوهاب، **الجواري والشعر في العصر العباسي الأول**، منشورات شركة الربيعات للنشر والتوزيع، الكويت، (ط1)، 1981م، ص 27- 29.

(2) علي بن الجهم، أبو الحسن علي (ت 249هـ)، **ديوانه**، تحقيق: خليل مردم بك، لجنة التراث العربي، بيروت، (ط2) 1970م، ص (52- 53).

بالظرف واللهو والمجون، ونجده يفضّل عمل النخاسة على قول الشعر، لما يدرّه من ربح وفير، يقول[1]:

إنْ كُنْتَ تبغي العيشَ حلواً صافياً   فالشِّعْرُ أعْزِبْهُ وَكُنْ نَخَّاساً
تَنَلِ الطرائفَ مِنْ ظِرافٍ نُهَّدٍ   يُحْدِثْنَ كُلَّ عَشِيَّةٍ أعْراسا
والرِّبْحُ فيما بَيْنَ ذلك راهنٌ   سَمْحاً بِبيعْكَ كنتَ أو مَكَّاساً

وإلى جانب دور النخاسة، وجد المغنون الذين كانوا يلقنون الجواري الغناء والضرب على الآلات، ويعملون على تثقيفهن، ثم يقومون ببيعهنَّ مرة ثانية، فتزداد أثمانهن وترتفع أسعارهن، فكلما كانت الجارية على حظٍ من الغناء والثقافة والأدب، ازداد ثمنها وارتفع قدرها وقام إبراهيم الموصلي وابنه إسحق بهذه الأعمال وتعليم الغناء، وكذلك يزيد حوراء ودحمان وإبراهيم المهدي وغيرهم.

وعني أصحاب الجواري والنخاسون بتثقيف الجواري وتعليمهن، فانتشر تأديب الجواري وتعليمهن الغناء، والنقر على الآلات الموسيقية.

وتعلّق الشعراء بحب الجواري والغزل بهن، وأصبح بعضهم يُعرف بجاريته، لكثرة التغزل بها، وذكرها في الشعر، ومعظمهم من الموالي، ومن أصول غير عربية، ومن ذلك نجد بشاراً يعشق (عبده)، وأبا

---

(1) أبو دلامة: زند بن الجون، (ت 161هـ)، ديوانه، جمع وإعداد: رشدي علي حسن، مؤسسة الرسالة، بيروت،(ط1)، 1985م، ص 55، وينظر: ص 59.
أبو دلامة: زند بن الجون، شاعرٌ من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، من موالي بني أسد، كوفي النشأة كان صاحب نوادر وحكايات وأدب، الأدلم: الشديد السواد من الرجال، نبغ واشتهر في العصر العباسي، وانقطع إلى أبي العباس السفاح والمنصور والمهدي.
ينظر: الأصفهاني، الأغاني، ج10/ 188.
عبد الرحمن، عفيف، معجم الشعراء العباسيين، ص 172.

العتاهية يتغزل (بعتبة)، وأبا نواس يهيمُ في (جِنان)، وأبا عُيينه في (دنيا)، وينسحب مثل هذا الغزل والعشق على مسلم بن الوليد، ودعبل الخزاعي، وأبي الشيص، والحسين بن الضحاك وغيرهم[1].

وامتدح الشعر العربي الجارية السوداء، وتغزل الشعراء بالمرأة السوداء، نجد ذلك عند بشار، وأبي الشيص، وابن عنين، وأبي الشبل الذي تغزّل بجارية سوداء كان قد عُوقِب في حبها وعشقها، يقول[2]:

غَدَتْ بِطُولِ المَلامِ عاذلة ... تلومُني في السَّوادِ والدَّعَجِ
وَيْحُكَ كيف السُّلو عن غُرَرٍ ... مُفْتَرِقات الأرجاءِ كالسَّبح
لاَ عَذَّب الله مُسلِماً بهم ... غيري، ولا حان منهم فَرَجي
فَإنَّني بالسَّواد مُبْتَهِجٌ ... وكنتُ بالبيضِ غَيْر مُبْتَهجِ

وأما أبو الشيص فيصف جارية سوداء وحُسن رائحتها، فهي تكتسب اللون الأسود، والرائحة الطيبة من المسك، يقول متغزلاً فيها[3]:

(1) بدوي، عبده: **السود والحضارة العربية**، دار قباء للنشر والتوزيع، القاهرة، 2000م، ص 112.
(2) الأصفهاني، الأغاني، ج14/ 130.
أبو الشبل: عاصم بن وهب، من البراجم، ولد بالكوفة ونشأ وتأدَّب بالبصرة، من شعراء الدولة العباسيّة، مدح المتوكل، كان ماجناً كثير الغزل، عابثاً، وكان هجّاءً قاسياً.
ينظر: الأصفهاني، الأغاني، ج14/ 124.
عبد الرحمن، عفيف، معجم الشعراء العباسيين، ص 260.
(3) ينظر: الأصفهاني، الأغاني، ج16/ 284.
أبو الشيص: محمد بن رَزين بن سليمان بن تميم بن نهشل، غلب عليه لقبه، يكنَّى أبا جعفر، من شعراء الدولة العباسية، متوسط المحلّ بين شعراء العصر العباسي، أصيب بالعمى في أواخر حياته، وله مراث في عينه، وقال عنه عبد الله بن المعتز: "والله لكان الشعر عليه أهون من شرب الماء على العطشان، وكان من أوصف الناس للشراب، وأمدحهم للملوك" (ت 196هـ).
ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج2/ 843.
الأصفهاني، الأغاني، ج16/ 279.
عبد الرحمن، عفيف، معجم الشعراء العباسيين، ص 235.

لم تُنـصفِ يـا سَـمّيةَ الـذّهبِ تَـتْلَفُ نفـسي وأنـتِ في لَعِـبِ
يـا بـنَةَ عـمِّ المِسكِ الذكيِّ ومَنْ لــولاكِ لم يُــتَّخذ ولم يَطــبِ
ناسَبَكِ المسكُ في السَّوادِ وفي الرِّ يـحِ فأكْـرِم بِـذاكَ مِـنْ نَـسَبِ

وأمتدح عبد الله بن المعتز جارية سوداء، فوصفها بمسكة العطار، تبدو كالخال في وجه النهار يقول[1]:

يـــا مِـــسْكَةَ العَطّـــارِ وَخَـــالَ وجـــهِ الـــنَّهار
وَلُعــــبَةً أحكَمَــــتْها عــــنايةُ الــــنَّجار
مـــن آبـــنوس تُـــسمّى بالـــيُمن بَـــيْنَ الجـــواري

وتجـدر الإشـارة إلى أن الـرقيق والجـواري سـاهم في ابـتداع فن الغـناء والـنهوض بـه، وهـم الـذين أدخلـوا هـذا الفن الجديد إلى الثقافة العـربية، ونمـا الغـناء وازدهـر بـرعاية الجواري والمغنيات، وكان كثير من المغنـيّات يحترفـن هـذا الفـن، وبـرزن فـيه، ولـذلك ارتفعـت أثمـانهن، بالإضـافة إلى ما يتمتعن به من جمالٍ ودلال وعذوبة حديث، ونظم للشعر أحـياناً كـدنانير البرمكية وعُريب، والكثير غيرهن، وكنَّ على درجة عالية مـن الـثقافة في فـنون الأدب والموسـيقا والرقص، وكانت بعض المغنيات يتفـننَّ في الـتأنق والتزيّن والهيئة، فارتدين الألبسة الجاذبة والقلانس، وقد يكـتب علـى هذه الألبسة، أبيات من الشعر، فعريب المغنية كانت ترتدي قميصاً موشّىً بالذهب كُتِبَ في وشاحه[2]:

---

(1) ديوان أشعار ابن المتعز، ج2/ 187.

(2) الوشّـاء، أبـو الطـيب محمـد بـن اسـحاق بـن يحيـى الوشـاء (ت 325هـ)، **الموشى أو الظرف والظرفاء**، دار صادر، بيروت، د.ت، ص 252.
وينظر ضيف، شوقي، **العصر العباسي الثاني**، دار المعارف، مصر، 1973م، ص 90.

وإنــي لأهــواهُ مــسُيئاً ومُحــسِناً   وأقضي على قلبي لَهُ بالذي يقضى
فحتّـى متى رَوْحُ الرضَى لا يَنالُني   وحتى متى أيامُ سُخطِكَ لا تمضي

وجملـة الأمـر، لقـد كثرت الجواري من الرقيق والإماء في الدولة العـربية كثـرة كـبيرة، واهـتم الخلفاء- ولاسيما في العصر العباسي باقتناء الجـواري، ممـا كـان له أكبر الأثر في حياة المجتمع العباسي، ومعظم أصول الجـواري مـن جنـسيات مـتعددة وغـير عـربية، مـن بـلاد السند وفارس والحبـشة وغيرها من البلاد، ونهض الرقيق بفن الغناء العربي، كما ساعد على انتشار اللهو والمجون والفساد، وساعد على امتزاج الآخر بالذات مما أدى إلى نقـل ثقافـات جديـدة وإشـاعة تقالـيد جديـدة في البيـئة العربية، فالتـنوّع العرقـي أدّى إلى اختلاط الثقافات، ونشر مظاهر من ثقافة الآخر وحـضارته، ممـا انعكـس على الأدب والشعر العربي، وأكثر الشعراء من الغـزل بالجـواري، فرقّت ألفاظ الشعر العربي وخفَّت أوزانه ليتلاءم وفن الغناء.

ِت الجـواري المغنـيّات في العـصر العباسـي كثـرة مفـرطة كعـريب وعـنان وسـكن جارية محمود الوراق وغيرهن، وهيأت الحضارة الجديـدة وسـائل الـتجمّل وأسـاليب الـتأنق، فانتـشرت أدوات الـزينة، كالثـياب الموشـاة، والـدمالج، والخلاخـيل وغيرهـا، وقـد وصف الشعر العربـي هـؤلاء القـيان، وأثـرهن في حـياة المجـتمع، قـال أحد الشعراء في وصف أساليب القيان والجواري[1]:

---

(1) الوشّاء، ص 138- 139.
وردة الأبيات غير معزوة لقائل.

صَحَوْتُ فأبْصَرْتُ الغوايةَ مِن رُشْدِي ... وأيقـنتُ أنّي كُنتُ جُرتُ عن القَصْدِ
فـلا تَعْـشَقنْ مَـنْ كـان يعـشَقُ قَيْـنةً ... فمـا هـو مـنها في سَـعيدٍ ولا سَـعْدِ
تُـودُّكَ مـا دامـت هـداياك جَمَّـةً ... وتـرْفدكَ عـشقاً مـا غنيتَ أخـا رفدِ
إذا مـا رأت في مجلـس مَـنْ تخالـهُ ... غنـيّاً حَبَـتْهُ بالتحـيَّة والـودِّ
وغـنّت علـى أقداحـه كل ما اشتهى ... وقالـت لـه: مـاذا تـريد أنـا أفْـدي
وتومـي إلـيه اشـرب الرَّطلَ واسقني ... فقد حُزت قلبي واشتملتَ على ودّي
فمـن بـين خلخـالٍ يـصاغ وخـاتمٍ ... ومـن دُملـج يُهـدى علـى أثـر العِقدِ
ومـن ثـوبِ خـزٍّ بعـد وشي ومُلجمٍ ... ومـن مُـصمتٍ [illegible]رى على أثر البَردِ
ويالـك مـن مـسك ذكـيٍّ وعنـبرٍ ... وعُـودٍ وكافـور نقـيٍّ ومـن نَـدٍّ
فـذا فَعْلُهـا حتـى إذا عـادَ مُفلِـساً ... تجنت وأبـدت جانـب الهجر والصد
فقـولا لمـن يهـوى القـيان تفهَّمـوا ... مقالـي فإني قد نصحتُ لكم جهَدي

وأسـهم الآخـر مـن الجـواري في نـشأة فـنونِ شـعرية جديـدة، كالغُلامـيات، والغـزل بالمذكر، وما الغزل الغلماني والغُلاميات إلا مظهر من مظاهر الأثر الفارسي في حياة العرب، وهي ظاهرة طارئة على الشعر العربـي[1] لم تكن معروفة سابقاً، وتؤشر على ما أصاب المجتمع الإسلامي من انحلال، وفساد، ومجون بوجود الجواري والرقيق، وتغلغل نفوذ الآخر في الدولة العباسية.

(1) بكار، يوسف، اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت، (ط1)، 1981م، ص 194.

وصف المرأة الأعجمية/ الجارية:

وصف الشعراء الجواري والقيان، وأكثروا من الغزل بهنَّ، ومن هؤلاء الجارية الرومية، فوصف الشعراء هذه المرأة بالحُسن والجمال الفائق، وقد ذُكرت المرأة الرومية صراحة في الشعر العربي، فأبو نواس، يرى جارية روميّة في بغداد، فيصفها، ويذكر محاسنها متغزلاً بها، فهي تجمع أجمل ما اتصفت به نساء الأرض من الشام والهند والترك، وبذلك فهي تفوق نساء الأرض بالحسن والجمال، يقول[1]:

أَبْصَرْتُ في بغدادَ رُوميَّةً ... تَقْصُرُ عَنْها كُلُّ أُمنِيَّةْ
قصريَّةُ الطَّرفِ شآميَّة الـ ... خَلْوةِ في نكهةٍ زنجيَّة
صغديَّة الساقين، تركية الـ ... سَّاعد في قد طخاريَّة
هنديّة الحاجب، نوبيّة الـ ... فخذين في زَهْو عباديَّة
حيريَّةُ الحُسن كيسانيَّة الـ ... أرداف في آلية عاجيَّة[2]

وابن الرومي يصف أحد نساء الروم بالحسن والجمال، تطرب الآذان لسماعِ صوتها، وهي بذلك غدت نزهة للناظر، يقول[3]:

مِن بناتِ الرُّوم لا يَكْذِبُنا ... لونُها المشرق عن مَنْصِبها

---

(1) أبو نواس، الحسن بن هانئ (ت 196هـ)، ديوانه، تحقيق: احمد عبد المجيد الغزالي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1986م، ص 307. قصرية الطرف: لا تمد طرفها إلى غير بعلها.

(2) طخارية: نسبة إلى طخارستان. صغد: نسبة إلى سمر قند.
عبادية: نسبة إلى عباد وهي قبائل اجتمعت على النصرانية.

(3) ابن الرومي، أبو الحسن علي بن العباس بن جريج، (ت 284هـ)هـ، ديوانه، تحقيق: حسين نصّار، منشورات الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1981م، ج1/ 159.

شَهِدَ الشاهدُ من أحْسَنِها   فحكى الغائبُ مِنْ أطيبِها
فهي حَسْبُ العَيْنِ من نُزْهَتِها   وهي حَسْبُ الأذنِ مِنْ مَطرَبِها
تشرُع الألحاظُ في وجنتها   فَتُلاقي الريّ في مَشْرَبها
وإذا قامت في مَلعبها   كمهَاةِ الرمل في ربرَبِها[1]

كما وصفت الجارية التركية بالجمال واللطافة، وحسن القد، وأبرز الشاعر مفاتن الجارية التركية، وإجادتها في الغناء والضرب على الطبول، يقول متغزلاً[2]:

فتاةٌ من الأتراك ترمي بأسهم   يصبنَ الحشا في السِّلمِ لا في المعاركِ
لطيفةُ قدٌّ الثدي تُسنِد عودَها   إلى ناجمٍ في ساحةِ الصدر حالكِ
تطامنُ عن قدٌّ الطوال قوامُها   وأربى على قد القصار الحواتكِ
ورقّاصةٍ بالطبلِ والصَنجِ كاعبٌ   لها غنجُ مخناثٍ وتَكْريه فاتك
إذا هي قامت في الشُفوف أضاءها   سناها فشفَّت عن سبيكة سابك

وذكرنا سابقاً أن الجواري والمغنيات كثرت في قصور الخلفاء والأمراء وغصَّت تلك القصور بهنَّ، وكانت الاحتفالات تقام في قصور الخلفاء، وتغنّي الجواري، روي أن المأمون طلب من أحد الشعراء وصف الجواري الروميّات في عيد الشعانين، وكانت الجواري النصرانيات يحتفلن في قصر الخلافة وقد تزينَّ وتجملنَّ بالديباج، وعُلِّقت الصلبان في أعناقهن، ولَمَّا دخل أحمد بن صدقة المغنّي، طلب الخليفة منه وصف

---

(1) **مجلبها**: مكان وموضع جلبها.   **ربرب**: قطيع من المها.
(2) المصدر نفسه، ج5/ 1866.

الجواري، فقال[1]:

ظِـــــبَاءٌ كَالــــــدَّنَانِيرِ	مِــــلاحٌ في المقاصِـــــيرِ
جَلاهــــــنَّ الــــشعانينُ	عَلَيْـــــنَا في الــــزَّنَانيرِ
وَقَـــدْ زرَّفْـــن أصْـــدَاقا	كَأَذْنَـــابِ الزرازيـــــرِ
وأقـــبلن بأوســــاطِ	كَأوْسَـــاط الــــزنابيرِ[2]

رابعاً: الشعُوبيَّة والنزعة العِرقيَّة

اتبع الأمويون سياسة التفريق بين الناس، لتثبيت دعائم حكمهم، كما أغدقوا الأموال على أهل الحجاز ليصرفوهم عن المطالبة بالخلافة، وتعصَّب الأمويون للجنس العربي في ظلٍّ دولة تعددت فيها الأجناس والأعراق، وضمّت عناصر من أُمم شتَّى انضوت تحت لواء الإسلام، وعمل الأمويون على تغليب العنصر العربي على غيره من الأجناس، وأسندوا أمور الولاية والسياسة والإدارة إلى العرب واعتمدوا على عنصر العروبة، فبرزت حُمَّى التفاخرِ بالأنساب والأحساب في المجتمع الأموي، واشتدت العصبية العربية وانقسم الناس: يمنية ومضرية، وتفاخرت القبائل العربية بأصولها وأنسابها وبذلك كانت الدولة الأموية

---

(1) ينظر: الأصفهاني، الأغاني، ج22/ 150.
أحمد بن صدقة بن أبي صدقة: كان أبوه حجازياً مغنياً، كان حسن الغناء قدم على الرشيد وغنّى له، كما قدم على المتوكل فاستحسن غناءه.
ينظر: الأصفهاني، ج22/ 149.
وينظر: ضيف، شوقي، العصر العباسي الأول، ص 70- 71.

(2) **الزنانير**: مفردها زنار، وهو ما كان يشدّه غير العرب في أوساطهم.
الزرازير: نوع من أنواع الطيور كثير ريش الذنب. **الزنابير**: النحل.

امتداداً للنظام القبلي القائم على التعصب العرقي والفخر بالأحساب والأنساب.

وأسس معاوية بن أبي سفيان الدولة الأموية بالاعتماد على العرب دون غيرهم من الأمم، فتنافست القبائل فيما بينها، واشتد التفاخر والتناحر بين تلك القبائل، وبرزت الألقاب الجاهلية، ومن ذلك، أنه عندما قدم الأنصار على معاوية لم ينادهم بالأوس والخزرج، بل أمر حاجبه سعيداً أن يناديهم بلقبهم القديم (بنو قيلة)، مما أغضب الأنصار من ذلك، وقال النعمان بن بشير شاعرهم، في ذلك[1]:

يا سعدُ لا تُعِدْ الدُعاء فمالنا ... نسبٌ نُجيبُ به سوى الأنصارِ
نسبٌ تخيَّرَهُ الإله لقومنا ... أثقل به نسباً على الكفّارِ
إن الذين ثووا ببدرٍ منكم ... يوم القليب هُمُ وقود النارِ

وانصرف غاضباً وساخطاً ومن معه؛ فبعث معاوية إليه وترضّاه، فكان العصر الأموي مسرحاً للمفاخرة بالأنساب والأحساب والتعصّب القبلي، واشتد العِداء بين النزارية والقحطانيةِ، كما قويت المفاخرات بين القيسيَّة والكلبيّة، وظهرت الفِرق والأحزاب وتعددت، حتى يمكن

---

(1) النعمان بن بشير الأنصاري (ت 65هـ)، شعره، جمع وتحقيق: يحيى الجبوري، دار القلم، الكويت، (ط2)، 1985م، ص 132.
وينظر: الحوفي، أحمد، أدب السياسة في العصر الأموي، دار القلم، بيروت، 1965م، ص 457.
النعمان بن بشير الأنصاري: أبو عبد الله الخزرجي الأنصاري، ورث الشعر عن أسرته، جدّه كان شاعراً، وأبوه بشير شاعر، وخاله عبد الله بن رواحة شاعر، شاعر إسلامي عاش في العصرين الإسلامي والأموي روى الحديث، توفي سنة (65هـ) (الأصفهاني، الأغاني، ج16/ 22).
ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، دار الكتب العلمية، بيروت، ج6/ ص 266- 267.

وصف العصر الأموي بأنه عصر الفِرق والأحزاب، وتمكّن الأمويون من الانتصار على خصومهم بالعصبية، وانتقلت العصبية بين العرب إلى الموالي والعناصر غير العربية، فكان دورهم كبيراً في إذكاء المنافسة والتناحر بين العرب، لما عانوه من ظلم الحكام الأمويين وتعسفهم في معاملتهم، مما مكّنهم من التعصب الجنسي/ العرقي في نهاية العصر الأموي، وفي العصر العباسي عصر نفوذ الآخر الفارسي، وتحوَّل الشعور بالعصبية القبلية إلى عصبية جديدة تقوم على الجنس، مما أدّى إلى ظهور الشعُوبيَّة على مسرح الأحداث منذ أواخر العصر الأموي، واشتدادها وتكتلها في نزعة عِرقية ضد العرب في العصر العباسي.

فما حقيقة الشعُوبيَّة؟ وما فئاتها؟ وما مظاهر الشعُوبيَّة في شعر العصرين الأموي والعباسي؟

حقيقة الشعُوبيَّة وفئاتها:

الشعُوبيَّة نسبة إلى كلمة: شعوب التي تحمل دلالات ومعاني متعددة، فهي تفيد معنى: المنع، والتفريق، والإفساد، وغير ذلك، وتدل كلمة شعب على ما تشعّب من قبائل العجم، وأطلق لفظ الشعوبيين على من ينتسبون إلى غير العرب، وهم الشعوب التي دخلت في مجتمع الدولة العربية وتعصَّبوا على العرب، وغلب لفظ الكلمة على جيل من العجم أنكروا على العرب أي فضل يمتازون به على غيرهم من الأمم الأخرى، وأخذوا يغضّون من مكارم العرب وفضائلهم[1].

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، (شعب).

وينظر: إسماعيل، عز الدين، في الشعر العباسي الرؤية والفن، المكتبة الأكاديمية، مصر، 1964 م، ص 99.

ومن المحتمل أن تكون هذه التسمية قد صدرت عن العرب أنفسهم، إذ عندما تفشّت العصبية بين قبائل العرب، وتعصَّب كل قوم لأبناء جنسهم، وبدأ الموالي وغيرهم من الأعاجم في تكوين الأحزاب، والإعلاء من شأن أقوامهم أُطلق لفظ شعوبي على كل من يحتقر العرب[1] ولا يرى لهم فضلاً على الآخرين.

وتبلورت الشعُوبيَّة في حركة سياسية وأدبية وثقافية في العصر العباسي، وارتفع صوت الشعُوبيَّة في الأدب، فأبو عبيدة يتهجم على العرب في بعض مؤلفاته "الموالي" و"فضائل الفرس"، وكذلك فعل سعيد البختيكان الذي عُرف بشدة عدائه للعرب، فألّف الكتب في انتصاف العجم من العرب، وله كتاب "فضل العجم على العرب"[2] والهيثم بن عدي يضع الكتب في مثالب العرب: "المثالب الكبير"، و"المثالب الصغير"[3].

وظهر الصوت الشعوبي في الشعر العربي على لسان الشعراء الشعوبيين، كإسماعيل ابن يسار، وبشار بن برد، وأبي نواس، وغيرهم من الشعراء الذين برزت مظاهر الشعُوبيَّة في أشعارهم، ومجَّدوا أقوامهم وهاجموا العرب.

وفي مقابل تعصب الموالي وشعوبية الفرس في مؤلفاتهم وأشعارهم، نجد بعض أدباء العرب يردون على دعاوى الشعُوبيَّة، ويؤلفون الكتب في الرد عليهم، فابن قتيبة (ت.276هـ) يضع كتاباً في

---

(1) جفّال، خليل، الشعُوبيَّة والأدب أبعاد ومضمونات (من العصر الجاهلي حتى القرن الرابع الهجري)، منشورات دار النضال للنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1986م، ص 15.

(2) ابن النديم، محمد بن اسحاق (ت 378هـ)، الفهرست، تحقيق: ابراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، (ط1)، 1994م، ص 156.

(3) المصدر نفسه، ص 129.

تفضيل العرب على غيرهم، ردَّ فيه مطاعن الشعُوبيَّة على العرب، جاء فيه في وصف الشعُوبيَّة[1]: "لم أرَ في هذه الشعُوبيَّة أرسخ عداوة، ولا أشدُّ نصباً للعرب من السفلة والحشوة، وأوباش النبط، وأبناء (أكاسرة) الفرس".

ووصف الجاحظ (ت 255هـ)، الشعوبين ورد أقوالهم، فهم قوم أهل شقاوة وحسد، يقول[2]: "أعلم أنك لم ترَ قوماً قط أشقى من هؤلاء الشعُوبيَّة، ولا أقل غنماً من أهل هذه النحلة، وقد شفى الصدور منهم طول جثوم الحسد على أكبادهم، وتوقّد نار الشنآن في قلوبهم....".

ظاهرت الشعُوبيَّة العرب، وأثّرت في مناحي الحياة كافة، في الحياة الاجتماعية، والثقافية، والسياسية، والفكرية؛ فعلى المستوى الاجتماعي، ظهرت الشعُوبيَّة في التعامل اليومي، وفي الحياة العامة في طبقة الفلاحين وأصحاب الزراعة وأهل الصناعات والحِرف، ومعظمهم من غير العرب، وأخذوا ينظرون إلى هذهِ الأعمال بأنها أفضل وأشرف مما عُرف به العرب من أعمال الرعي والتنقل في الصحراء، وفي المستوى الثقافي والحضاري، برز الأدب الشعوبي الذي يُعلي من حضارة الفرس، ويقارن بين حضارة الفرس وحضارة العرب، وظهرت الكتب والمؤلفات التي تفضّل العجم، وترفع منزلتهم الحضارية والثقافية، وبرز الشعراء الشعوبيون الذين حملوا على العرب في أشعارهم، من خلال لغة العرب التي تعلموها وأتقنوها، وافتخروا بأجناسهم وأقوامهم، وغضّوا من شأن العرب، وتبوّأ بعض الشعوبيين أماكن قيادية في العصر العباسي، ونتج

---

(1) كرد علي، محمد، رسائل البلغاء، طبعة لجان التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1954م، ص 269.

(2) الجاحظ، البيان والتبيين، ج3/ 29- 30.

عن هذه الفئة أدب ثقافي كبير مما كان له أثر كبير في المجتمع العربي، وكان أثر الشعُوبيَّة الثقافي أكبر تأثيراً وأشدُّ خطرا من فئة أصحاب الصنائع[1].

عوامل ظهور الشعُوبيَّة:

ظهرت الشعُوبيَّة في أواخر العصر الأموي، واشتدت في العصر العباسي، وتعددت تيارات الشعُوبيَّة واتجاهاتها وتنوّعت فمنهم: المعتدلون، ومنهم المغالون، والآخرون هم المتطرفون المتشددون، ويمكن إرجاع عوامل ظهور الشعُوبيَّة وما رافقها من فكرٍ ثقافي وأدبي إلى أسباب اجتماعية، واقتصادية، وسياسية.

فعلى المستوى الاجتماعي[2] ضمَّت الدولة العربية الإسلامية أجناساً متعددة، وكان المجتمع الأموي خليطاً من جنسيات وأعراق كثيرة، واتبعت الدولة الأموية سياسة التفريق بين العرب وغيرهم، واهتم الأمويون بنقاء الهُويَّة العربية، فأعلوا من شأن العرب، وخصَّوهم بالإدارة والسياسة دون غيرهم، وعاملوا غير العرب من الموالي وغيرهم معاملة لا تخلو من القسوة، وظهر استعلاء العرب على الموالي، وتغلَّبت العصبية الجنسية والعرقية على العصبية الدينية، وعانى الموالي الظلم والاضطهاد من تلك المعاملة، ممّا ولد في نفوسهم الحقد وكراهية العرب، فأخذت

---

(1) ينظر: ضيف، شوقي، العصر العباسي الأول، ص 75.

(2) ينظر: عطوان، حسين، <u>الشعراء من مخضرمي الدولتين الأموية العباسيّة</u>، دار الجيل، بيروت، (ط1)، 1974م، ص (242- 243).

ويُنظر: فتوح، محمد احمد، <u>الشعُوبيَّة والأدب العربي</u>، ضمن كتاب وقائع الندوة القومية لمواجهة الدس الشعوبي، هيئة كتّاب التاريخ، بغداد، 1989م، ص 378.

حركات الموالي في الظهور بالدعوة إلى المساواة مع العرب في الحقوق والواجبات.

ولّما كان سلطان الدولة العربية قوياً مرهوب الجانب، لم يتمكنوا من تنظيم أمورهم، وتوحيد صفوفهم، وأكتفوا بالمناداة بحقوقهم، وطلب المساواة مع غيرهم من العرب، وعندما لم ينالوا تلك المساواة أخذوا في الانضمام إلى الفرق والأحزاب التي ناوأت بني أُميّة، وأخذوا ينضمّون إلى كل فرقة خارجة على سلطان الدولة.

وعلى الصعيدين، السياسي والاقتصادي، فقد حُرِم الموالي من تولي المراكز الإدارية في الدولة الأموية، كالولاية والقضاء، وفرضت عليهم الأعمال الصناعية والزراعية، وعاش معظم الموالي في طبقة متردية من طبقات المجتمع، وكانوا يعانون ظروفاً اقتصادية متدنية، وظلَّ بعضهم يدفع الجزية، كما فُرضت الضرائب على الحِرف والصناعات التي امتهنها الموالي، مما أدى إلى سوء أحوالهم الاجتماعية.

يضاف إلى هذه الأسباب ما داخل نفوسهم من تعصُّب عرقي وطائفي، وإحساس هؤلاء الموالي بالوعي القومي والعرقي، وتمثّل ذلك في عدم ارتياحهم، وعدم تقبُّل بعضهم لسيادة الجنس العربي وتفوّقه على الأجناس الأخرى، ولاسيّما- الفارسية، مما ساعد على ظهور الشعُوبيَّة كنزعة عرقية كان لها أكبر الأثر في التاريخ العربي، فظهرت صورة الشعُوبيَّة قوية في الشعر العربي خلال العصرين الأموي والعباسي.

مظاهر الشعُوبيَّة في العصر الأموي:

كـان مـن أهـم حنق الموالي على العرب، المنزلة الاجتماعية التي عاشـها الموالي من عدم المساواة مع العرب، وشعورهم بالظلم والامتهان مـن قـبل العـرب، فكانـوا يحملـون في نفوسـهم حقِداً دفيناً نتيجة لتردي أوضـاعهم في المجـتمع، وتعاظم حقدهم عندما لم يجدوا المساواة التي نادى بهـا الإسـلام في سياسـة الدولـة الأمـوية، لـذلك حقـدوا علـى العـرب وكـرهوهم، وأخـذ يـراودهم الحـنين إلى دولـتهم الـبائدة، وإلى أقـوامهم وأجناسـهم، فبرز فخرهم بالأمجاد الفارسية، وتفاخروا بأصولهم الفارسية ولّمـا كانوا مستضعفين لجأوا إلى التستّر وإلى "التقيَّة" في مهادنة الأمويين، وفي مـدحهم خـوفاً مـن الـبطش بهـم[1]، وكـان من شعراء الموالي في العصر الأمـوي، يـزيد بـن ضـبة، وزيـاد الأعجم، وإسماعيل بن يسار النسائي، الذي كان يتعصّب للفرس، وظهر الاتجاه الشعوبي في شعرة بشكلٍ جلي، أكثـر مـن غيره، فقد كان يظهر المودة للأمويين، ويبطن البغض والكراهية والحقد لهم وللعرب، ولذلك لجأ إلى التقية والرمز في ذلك كما يقول[2]:

فجـامِلْهُم بِحُـسْنِ القَـوْلِ فـيما أَرَدْتَ وقـد عَـزَمْتَ على الإِباءِ

(1) ينظـر: فـوَّال، عزيـزة، السياسة والأدب في العـصر الأمـوي، دار الـشمال، بـيروت، (ط1)، 1987م، ص 253.

وينظـر: الهليس، عمرو سعيد، شعر الوقائع في القرن الثاني الهجري، منشورات وزارة الثقافة، عمان، (ط1)، 2002م، ص 37.

(2) شعر إسماعيل ابن يسار، ص 27.

إسماعيل بن يسار والنزعة الكسروية:

كانت أسرة إسماعيل من موالي "بني تيم بن مرة" وهي أسرة، تعود إلى أصول فارسية، وفي هذه الأسرة نبغ أكثر من شاعر، إلا أن "برزهم وأشهرهم إسماعيل بن يسار، وهو أحد الشعراء الذين ظهر الاتجاه الشعوبي في شعرهم بوضوح، فقد كان إسماعيل شديد التعصّب على العرب، كثير الفخر عليهم، يمتدح حضارة الفرس، ويغضُّ من حضارة العرب، ويفتخر بأصله الفارسي، يقول:

أصلي كريمٌ ومجدي لا يُقاسُ به ولي لسانٌ كحدِّ السيفِ مسمومِ

روى أن الخليفة هشام بن عبد الملك طلب من إسماعيل بن يسار أن ينشده شعراً فوقف إسماعيل في حضرته، وقال شعراً يفخر فيه بأصوله الفارسية، يقول[1]:

يا رَبْعَ رامة بالعلياءِ من ريمِ هل تُرْجِعَنَّ إذا حَيَّيْتُ تسليمي
ما بالُ حيٍّ غَدتْ بُزلُ المطيِّ بهم تَخْدي لغربتهِمْ سَيْراً بتقحيم
إني وجَدِّكَ ما عُودي بذي خَوَرٍ عند الحِفاظ، ولا حَوْضي بمهدومِ
أصلي كريمٌ ومَجْدي لا يُقاس به ولي لسانٌ كحدِّ السيف مسمومِ
أحمي به مَجد أقوامٍ ذوي حَسَبٍ من كُلِّ قَرْمٍ بتاج المُلْك معموم
جحاجحٍ سادةٍ بُلْجٍ مَرَازِبَةٍ جُرْدٍ عِتَاقٍ مساميحٍ مطاعيم
مَنْ مِثْلُ كسرى وسابور الجنودِ معاً والهُرْمُزان لفخرٍ أو لتعظيم

---

(1) المصدر نفسه، ص 54.

أسـدِ الكـتائب يومَ الرَّوعِ، إنْ زَحَفُوا   وَهُـمْ أذلّـوا ملـوكَ التُّـركِ والرُّومِ[1]

فالـشاعر بـدلاً مـن أن يمـدح الخليفة، يمدح نفسه، ويفخر بأصله الـذي لا يدانـيه أصل، ويفخر بلسانه وبيانه على مرأى الخليفة ومسمعه، ثـم ينـتقل إلى مدح قومه الفرس، فهم مرازبة يمتازون بالشجاعة والبأس، أذّلـوا ملـوك الروم والترك ولذلك ما أن سَمِعَ الخليفة هذه القصيدة حتى غـضبَ وقـال لـه[2]: "أعلـيَّ تفتخـر، وإيايَ تنشد قصيدة تمدح بها نفسك وأعلاج قومك، وأمر بغطّه بالماء حتى كادت أنفاسه تخرج ثم نفاه وطرده".

وكـان إسماعـيل بـن يسار مبتلى بالعصبية للعجم والفخر بهم، فكـان لا يـزال مـضروباً محـروماً مطـروداً[3]. كثير الفخر بأصله الفارسي وبقـومه، وكـان يلجـأ إلى أسلوب التقيّة، فيكنّي في شعره بهند أو سلمى، خوفاً من التعرض للأذى، ومن ذلك قوله في إحدى قصائده[4]:

مـا علـى رَسْـمِ منـزلٍ بالجَـنَابِ   لـوأبانَ الغَـداةَ رَجْـعَ الجـوابِ
دار هــندٍ، وهــل زمانــي بهــندٍ   عائــدٌ بالهــوى وصَــفْو الجَـنَابِ

ثم ينتقل إلى الفخر بأجداده الفرس وأمجادهم الماضية، والاعتزاز بالانتساب إليهم وإلى تاريخهم الماضي، ويُعرِّض بالعرب وتاريخ العرب،

---

(1) **رامة**: منـزل في طـريق البـصرة إلى مكـة، وقيل: جبل ببني دارم. **ريم**: وادٍ قرب المدينة لمزينة **البـزل**: جمـع بـزول وهـي الـناقة. **جحاجح**: السيِّد والكريم. **المرازبة**: الفارس الشجاع، جمع مرزبان، وهو الزعيم أو الرئيس.

(2) ينظر: الأصفهاني، الأغاني، ج4/ 295.
فتوح، أحمد محمد، الشعر الأموي، دار المعارف، القاهرة، (ط1)، 1991م، ص 82.

(3) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(4) شعر إسماعيل بن يسار، ص 28- 29.
الجَنَاب: موضع في السماوة بالعراق   **الجِناب**: اسم لأكثر من موضع في الحجاز.

من خلال اختيار مسألة وأد البنات، ليجعل ذلك تاريخاً مشيناً للعرب، يقول[1]:

رُبَّ خـالٍ مـتوَّجٍ لـيِ وعَـمٍّ	ماجدٍ مُجْتدىً كـريم النِّصابِ
إنَّمـا سُـمِّي الفـوارسُ بالفُـرْ	س مـضاهاة رِفْعـةِ الأنْـسَابِ
فاتركـي الفخـرَ يـا أُمـامُ علينـا	واتركي الجَوْر وانطقي بالصوابِ
واسألي، إنْ جَهلْتِ عنّا وعنكُمْ	كـيفَ كُـنَّا في سـالفِ الأحقابِ
إذ نُربِّـي بناتِـنَا وتدسُّـو	ن سَـفَاهاً بـناتِكُمْ في التُّـرَابِ

ويفخـر الـشاعر بانتـسابه إلى ملـوك الفـرس، وينـسب الفروسية والـشجاعة إلى الفـرس، ويكنّـى عـن العـرب بـِ (أُمام)، ويدعو إلى ترك الفخـر علـى الموالـي والفـرس؛ لأن الأمجـاد تنسب إلى الفرس في سالف الأحقـاب، ويعـرض لظاهرة قديمة كانت تحدث عند بعض قبائل العرب، وهي ظاهرة وأد البنات، ولذلك قال رجل من العرب لإسماعيل- عندما سمـع هـذه القصيدة: إن حاجتنا إلى بناتنا غير حاجتكم، وقال له أشعب: "دَفَـنَ القـوم بـناتهم خـوفاً مـن العـار، وربيـتموهن لتـنكحوهنَّ، فخجل إسماعيل حتى لو قُدِّر له أن يسيح في الأرض لفعل"[2].

لقـد كـان إسماعـيل بـن يـسار من أوائل الشعراء الذين أظهروا الـشعُوبيَّة والتعـصب القومـي في شـعرهم، وتمـثل ذلـك بالحنين إلى أمجاد ساسان، والتغني والتفاخر بالانتساب إليهم والغضّ من شأن العرب وهو أوّل مـن اسـتخدم لغـة العرب في تفضيل الفرس على العرب وغضّ من

---

[1] شعر إسماعيل بن يسار، ص 29 النصاب: الأصل

[2] الأصفهاني، الأغاني، ج4/ 287.

شأن أهل العربية، وكانت النزعة الكسروية[1] في طليعة المذاهب التي اختفى وراءَها شعراء الموالي من الفرس، ومن أجلها توزَّعوا على الأحزاب والفِرق في العصر الأموي بكل حَذرٍ وحيطة خوفاً واحتماءً من بطش السلطة المركزية التي كانت في أوج قوتها وزهوها، وتُمثِّل النزعة الكسروية حزبهم الحقيقي الذي كانوا يسعون لإعادة حضارته وأمجاده التي انصهرت بالإسلام.

وكما ظهرت الشعُوبيَّة عند إسماعيل بن يسار، فقد وجد هناك أكثر من شاعر من الموالي كانوا ينزعون نزعة عرقية شعوبية، ولكن أثرها لم يكن بجدة شعر إسماعيل بن يسار، فظهرت بعض الإشادة بالآخر الفارسي عند يزيد بن ضبّة الذي ذكر نفوذ الفرس وتفوقهم على غيرهم من الأمم في الأزمان السابقة، يقول[2]:

وَلِينَا النَّاسَ أزماناً طِوالا ... وسُسْناهم ودُسْناهم وقُدْنا
ألَمْ تَرَ من ولَدْنا كيف أشْبَى ... وأشْبَيْنا وما بهمُ قعَدْنا
نكون لِمن وَلِدناه سماءً ... إذا شِيمَتْ مَخايلُنا رعَدنا

---

(1) نالينو، كارلو، تاريخ **الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية**،دار المعارف، مصر، (ط1)، 1970، ص 267.
وينظر: شعر إسماعيل بن يسار، ص 12.

(2) الأصفهاني، الأغاني، ج7/ 72.
يزيد بن ضبّة: هو يزيد بن مقسم، مولى ثقيف، وضبّة اسم أمّه غلبت على نسبه؛ لأن أباه مات وخلّفه صغيراً، وهو من شعراء الدولة الأموية، كان منقطعاً إلى الوليد بن يزيد ومتصلاً به، ولما أفضت الخلافة إلى هشام بن عبد الملك هنأه يزيد بها واستأذنه في الإنشاد، فلم يأذن له، قائلاً له: عليك بالوليد فامدحه، وأمر بإخراجه، وبلغ الوليد خبره، فبعث له بمالٍ كثير.
والأبيات من قصيدة طويلة، مطلعها:

أرى سلمى تصدُّ وما صددنا ... وغير صدودها كنا أردنا

الأصفهاني، الأغاني، ج7/ 72.

وأثلــدُ مجــدِنا أنَّــا كِــرامٌ ج بجــدّ المَـــشْرِفِيَّة عـــنهُ ذُدْنــا

ولم يكـن كـثير مـن المـوالـي إلا أعـداء معارضين للنظام العربي، وتعاظم حنقهم وحقدهم على العرب، ونقموا عليهم في العصر الأموي، لأن الدولـة الأموية لم تسمح لهم بالمساواة مع العرب أو المشاركة في إدارة الدولـة ودواويـنها، ويمـثّل شـعر إسماعـيل بـن يـسار، ويـزيد بن ضبّة، وغيرهم من شعراء الموالي في العصر الأموي بداية انقضاض الموالي على العـرب وارتفـاع بعـض الأصـوات الـتي تمجِّـد الأقوام من العناصر غير العـربية، ولمّـا كانـوا مستضعفين وغير قادرين على تحدّي الدولة الأموية، وانـضم الموالـي إلى كـل خـارج على الدولة، واشتركوا في ثورات المختار وابـن الأشـعث؛ لأنهـم وجـدوا في هـذه الفِرق والمذاهب الفرصة سانحة لتنظـيم أمـورهم، فانخـرطوا في هـذه الأحداث الحزبية، وأسهموا إسهاماً كبيراً في الإسراع في سقوط الدولة الأموية.

وأخذ خطر الموالي في الازدياد، واشتد خطرهم على حياة الدولة العـربية، وكـان بعـض العـرب قد أدرك خطرهم، وتعاظُم قوتهم، ونفاذ أمـرهـم تفرَّق العرب وتناحرهم في الصراعات القبلية التي احتدمت بين القبائل ـربية آنذاك وكان نصر بن سيّار والي خراسان من أوائل من أدرك خطـر المـوالـي عـندما رأى حُمّـى التـنافس بـين المـضرية والقيسية، فأطلق تحذيراً للعرب من الخطر الذي يتربص بهم، وقال في ذلك[1]:

---

(1) الطبري، محمد بن جرير (ت 310هـ)، **تاريخ الأمم والملوك**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات دار سويدان، بيروت، 1967م، ج7/ 364- 365.
وينظر: ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج4/ 478- 479.
نـصر بن سيار: هو نصر بن سيار بن رافع من بني الليث من كنانه، يكنّى أبا الليث: ولاه هشام بن عبد الملك خُراسان، ولم يزل عليها في الولاية عشرون سنة.
(ابن قتيبة، المعارف، ص 409).

أبْلِـغْ ربـيعَةَ في مَـرْوٍ وأخـوتها ... أنْ أغـضبوا قَبْلَ ألاَّ يَـنْفعَ الغَـضَبُ
وانـصبوا الحـرب إن القوم قد نصبوا ... حـربـاً يحـرق في حافاتهـا الحطـبُ
مـا بـالكم تنـشبون الحَـرْبَ بيـنكم ... كـأنَّ أهـلَ الحِجَى عـن رأيكم غُيَبُ
وتتركـون عَـدوّاً قـد أحـاطَ بكـم ... مِمَّـنْ تأشَّـب لا دِيْـنٌ ولا حَـسَبُ
قـومٌ يقولـون قَـوْلاً مـا سَمِعْت بـه ... عـن الـنبي ولا جـاءتْ بـه الكـتبُ
مـن كـان سـائلي عـن أصْلِ دينهُمُ ... فـإنَّ ديـنَهُم أنْ تُقـتَلَ العَـرَبُ

لقـد أدرك نـصر بـن سيار دور الموالـي وخطرهم على العرب، وأعلـن عن هدفهم الحقيقي، وهو "أن تُقتل العرب" فحذّرهم، وأطلق نداءً يدعـوهم إلى الـتوحد أمـام هذا الخطر الذي أخذ يتهددهم، وحذّرهم من ذلك العدو الذي لا ينتمي إلى الهُويَّة العربية.

ولمَّـا لم يجـد نصر بن سَيار مَنْ يغيث النداء، أخذ يستنهض الهمم العـربية، ويدعـو إلى نـبذ الفـرقة والخـلاف والتوحد لمواجهة خطر الآخر الذي بدا وشيكاً، وأخذ يعمل على تحقيق أهدافه، والوثوب على العرب، قال[1]:

أرى بَـيْنَ الـرَّمادِ وميـضَ جمـرٍ ... ويوشـك أن يكـون لـه ضِـرام
أقـولُ من التعجُّب لَيْتَ شِعْري ... أأيقـــاظٌ أمـــيَّة أم نــيام
فـإن يـكُ قومِـنا أضحـوا نـياماً ... فَقُـلْ قومـوا فقـد حـان القيام
ففـرِّي عـن رحالـكِ ثـم قولـي ... علـى الإسـلام والعرب السلام

---

(1) الديـنوري، أبـو حـنيفة أحمـد بـن داوود (ت 282هـ)، الأخبار الطوال، تحقيق: عمر فاروق الطباع، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، (ط2)، 1995م، ص 524.
وينظر: ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج1/ 94، والأبيات فيها اختلاف في الرواية والترتيب

وتتحقق رؤية نصر السابقة، ويتمكن أبو مسلم الخراساني من إلحاق الهزيمة بجيش الأمويين وقتل مروان بن الحكم في معركة الزاب (132هـ)، وتسقط الدولة الأموية، ويبدأ حكم الدولة العباسية، بل عصر سيادة الموالي ونفوذ الفرس.

انتقل حكم الدولة العربية إلى العباسيين بمساعدة الفرس والعناصر الأجنبية، وأدَى هذا التحوّل الخطير إلى أن أصبح الخلفاء العباسيون تحت نفوذ العناصر الفارسية، وحظي الموالي والفرس بمكانة مرموقة، وكانت اليد الطولى لهم في إدارة شؤون الدولة العربية؛ لأن انتصار العباسيين وتوليهم إدارة الدولة العربية يعني انتصار الفرس على الذات العربية، لذلك أصبح الموالي من الفرس هم رجال الدولة من أمثال البرامكة وآل سهل وآل طاهر، وبقي أمر الوزارة في أيديهم، وأخذ الإحساس بالغربة ينتاب العرب، في حين أن الموالي استشعروا مكانتهم وأمجادهم، وأخذوا يتصرفون في أمور الدولة وأموالها، وقد عبَّر عن ذلك أبو نخيلة الشاعر أدق تعبير، عندما سُئل عن ذلك، فقال[1]:

---

(1) الأصفهاني، الأغاني، ج20/ 251.

أبو نخيلة: اسمه لا كنيته، يُكنى أبا الجُنيد، وأبا العِرماس، وهو ابن حزن بن زائدة بن لقيط بن هرم، شاعر عباسي، مدح الخلفاء من بني العباس، وهجا بني أُميّة فأكثر، غلب عليه الرجز، وقف يوما في باب جعفر البرمكي واستأذن، لكنه لم يصل إليه، وأخذت الخراسانية تدخل وتخرج وتهزأ به، فقال له رجل: كيف أنت يا أبانخيلة؟ فقال : **أصبحت لا يملك بعضي بعضي أشكو العروق الآبضات أبضا** فقال له الرجل:وكيف ترى ما أنت فيه في هذه الدولة؟ فقال الأبيات:أكثر خلق الله.

ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج2/ 602.

أكْثَـرُ خَلْـق الله مـن لا يُـدرَى مـن أيِّ خَلْـق الله حـينَ يُلقـى
وَحلَّـــةٌ تنـــشر ثـــمَّ تُطـــوى وطيلـــسان يـــشترى فَيُغْلَـــى
لعـــبدٍ عـــبدٍ أو لمـــولى مـــولى يـا وَيْـحَ بيت المال ماذا يلقى؟!

الصراع الشعري بين العرب والموالي:

تغلّـب الموالي من العناصر الفارسية والأجنبية على العرب، منذ أواخـر الحكم الأموي، وأخذ خطرهم يزداد ويتعاظم، وظهر الصراع بين العـرب وغيرهم ولاسيما الفرس، وانعكس ذلك على الشعر العربي عند إسماعـيل بـن يـسار، كما ظهرت المفاخرات الشعرية بين الشعراء العرب والشعراء الذين يعودون في أصولهم إلى الفرس فبرز فخر الفرس بأنفسهم وانتقاصـهم من العرب، وظهرت النقائض الشعرية بين العرب والفرس، فكـان ابن ميّادة يُظهر التعصب في شعره، ويفخر بنسبه الفارسي من جهة أُمِّه، كما كان يدَّعي الانتساب إلى العرب، ومن ذلك قوله[1]:

أنـا ابـن سَـلْمى وَجـدِّي ظـالم وأُمِّي حَصان أخلصتها الأعاجم
ألـيس غـلام بـين كسرى وظالم بأكـرم مَـنْ نـيطت عليه التمائم
لـو إنَّ جمـيع الـناس كانوا بتلعةٍ وجـئتُ بجـدِّي ظـالم وابـنُ ظالم
لظلّـت رقابُ الناسِ خاضعةً لنا سـجوداً علـى أقدامنا بالجماجم

ويـستدل مـن خـلال الأبـيات الـسابقة علـى تعـصب ابن ميّاده وشـعوبيته، وكـان الحكـم الخـضري أحـد الشعراء العرب قد نقض عليه ادعائه، وأنكر عليه الانتساب إلى العرب، وقال قصيدة يردُّ فيها على فخر

(1) الأصفهاني، الأغاني، ج2/ 171- 172.

ابن ميّادة السابق ويفتخر عليه بنسبه العربي، يقول[1]:

إذا يَبِستْ عِيدانُ قومٍ وَجَدْتَنا ... وعيدانُنا تُغْشَى على الوَرَقِ الخُضرِ
إذا النَّاسُ جاءُوا بالقرومِ اتيتُهُمْ ... بِقَرمٍ يُساوِيَ رَأسُهُ غُرّةَ البَدْرِ
لنا الغَوْرُ والأنجادُ والخيلُ والقنا ... عَلَيْكُمْ وأيّامُ المكارِمِ والفَخْرِ
فَيَامُرُ قد أخزاكَ في كُلِّ موطِنٍ ... من اللُّؤمِ خلَّاتٌ يَزدْنَ على العَشْرِ
فَمِنهُنَّ أنَّ العبدَ حامِي ذِمارِكُمْ ... وَبِئسَ المُحامي العبدُ عن حَوْزةِ الثَّغرِ

ومن المساجلات الشعرية ما وقع بين عبد الله بن طاهر الفارسي، ومحمد بن يزيد الحصني الأموي من مفاخرة شعرية، وكان عبد الله بن طاهر قد قال شعراً يفخر فيه بآبائه وأجداده، وقومه الفرس وحسن بلائهم في الحروب، والمعارك التي دارت بين الأمين والمأمون، ويفتخر بأبيه "طاهر" وإسهامه في قتل الأمين، ويرتفع الشاعر بقومه من الفرس ليفضلهم على بني العباس والعرب، ويشير إلى قتل الخليفة الأمين وخلعه من قبل الفرس، يقول[2]:

---

(1) الحموي، ياقوت: الحموي، معجم الأدباء،ج 10/ 243- 244.
الحكم الخضري: هو الحكم بن معمر بن قنبر، شاعر إسلامي، كان بينه وبين الرمّاح مهاجاه، وكان هجّاءً خبيث اللسان، توفي سنة، (150هـ).
ينظر: الحموي، ياقوت، معجم الأدباء، ج10/ 240.
عبد الرحمن، عفيف، معجم الشعراء العباسيين، ص 135.

(2) التنوخي، القاضي أبي علي المحسن بن علي (ت 384هـ)، الفرج بعد الشدّة، تحقيق: عبّود الشالجي، دار صادر، بيروت، 1978م، ج1/ 341- 343.
*عبد الله بن طاهر: أبو العباس بن طاهر بن الحسين، أمير خراسان، من أشهر الولاة في العصر العباسي، من موالي خزاعة، آلت إليه قيادة الجيش أيام المأمون.
*يزيد بن محمد الحصني: من ولد مسلمة بن عبد الملك، يُعرف بالحصني لأنّه نزل حصن مسلمة، شاعر محسن.

مُــدمِنُ الإغـــضَاءِ مَوْصُـــولُ　　　ومُـــديمُ العـــتَبِ مَمْلـــولُ

وأخــو الــوجهين حــيث بقــي　　　بهـــواه فهـــو مدخـــولُ

مــن بـنات الـروم لـي سـكنٌ　　　وجهها للـــشمس إكلـــيلُ

أنـــا مَـــنْ تعـــرفن نـــسبته　　　سَـــلفي الغُـــرُ البهالـــيلُ

وأبـــي مـــن لا كَفـــاء لـــه　　　مـــن يـــسامي مجـــده؟ قولـــوا

مـــن خُراســـان مَـــصمّمهم　　　كلـــيوث ضـــمّها غـــيلُ

انظـــر، المخلـــوع كلكلـــه　　　وحوالـــيه المقاويـــل

فـــثوى والـــتربُ مـــضجعهُ　　　غـــالى عـــنه ملكـــه غـــولُ

قطعـــتْ عـــنه تمائمـــه　　　وهـــو مـــرهوبٌ ومأمـــولُ

ولّما بلغت القصيدة مسامع الشاعر العربي محمد بن يزيد، غضب وأَنِفَ أن يفخر على العرب رجل من العجم، قال: "وكنتُ لما بلغتني القصيدة امتعضت للعربية، وأنفت أن يفخر عليها رجل من العجم؛ لأنّه قتل مَلِكاً من ملوكها بسيف أخيه لا بسيفه، فيفخر عليها هذا الفخر"[1].

فرددت على قصيدته بقصيدة، وهي قصيدة طويلة، يقول منها[2]:

لا يَـــرُعْكَ القـــالُ والقـــيلُ　　　كُـــلُّ مـــا بُلّغـــتَ تهـــويلُ

أيُّهـــا (الـــنازي) مطيّـــته　　　لأغالـــيطك تحـــصيلُ

يـــا ابـــن بـــنت الـــنار مـــوقدها　　　مـــا لحاذيـــه ســـراويلُ

---

(1) التنوخي، الفرج بعد الشدّة، ج1/ 345.

(2) المصدر نفسه، ج1/ 344- 446.

أيُّ مجـــدٍ فـــيك نعـــرفه	أيُّ جـــدّ لـــك بهلـــولُ
مــا جــرى في عــود أثلــتكم	مـــاء مجـــد فهـــو مدخـــولُ

فالـشاعر العربـي يطعـن بأصـل عبد الله، وينتقص منه، وينقض فخـره وتغنـيه بآبائـه وقـومه، فالافـتخار القومي والأنفة للعرب من هذا الافـتخار الفارسـي هو الذي دفع الحصني للرد على عبد الله، وقد أثارت قـصيدة الحـصني مـشاعر عَلّان الشعوبي فانتصر لعبد الله بدافع التعصب العرقـي، وثـار علـى محمـد بن يزيد، فقال شعراً يمدح عبد الله ابن عرقه، ويهجـو محمـد ابـن يـزيد، حيث تبرز مظاهر التعصب الطائفي والعِرقي، ويفتخر علاّن الشعوبي بالأمجاد الفارسية، ويعلي من شأنها، يقول[1]:

أيُّهَـــا الّلاطِـــي بِحُفْـــرَتِهِ | في قَـــرَارِ الأَرضِ مَجْعُـــولُ
قـــد تجالَلْـــتَ علـــى دَخَـــلٍ | واسْـــتَخَفَّتكَ الـــتَّهاويلُ
وأبـــو العـــبَّاسِ غَاديَـــةٌ | لِعَـــزَاليْهِ الأَهالـــيلُ
رُسْـــتُميٌّ في ذُرَى شَـــرَفٍ | زَانَـــهُ تَـــاجٌ وإكلـــيلُ
وَعَلـــيهِ مِـــنْ جَلاَلَـــتِهِ | كَـــرَمٌ عِـــدٌّ وَتَبجـــيلُ
كِـــسْرَوِيَّاتٌ أُبُوَّتُـــنَا | غُـــرَرٌ زُهْـــرٌ مَقَاويـــلُ[2]

---

(1) الحموي، معجم الأدباء، ج12/ 194- 196.

علاّن الـشعوبي: هـو علاّن الورّاق الشعوبي، أصله من الفرس، وكان علاّمة نسّابه بالأنساب والمثالب والمنافرات، انقطع إلى البرامكة وعمل نسّاخاً في بيت الحكمة للرشيد والمأمون (معجم الأدباء،ج12/ 194).

(2) **تجاللت**: تعاظمت. **التهاويل**: التصاوير أو الألوان المختلفة. **ذخل**: غش.

وكان يزيد بن محمد المهلبي من العرب الغُيَّر الناقمين من نفوذ الآخر، وكان يُظهر سخطه على الخلفاء العباسيين الذين آثروا الآخر من الفرس وغيرهم، وفضَّلوهم على العرب، وسمحوا لهم بالتطاول على العرب والعروبة، وأظهر الشاعر عتبه ولومه على بعض خلفاء بني العباس الذين أطلقوا حرية القول والفعل للعناصر الفارسية، وأنكر عليهم تفضيلهم العبيد من الموالي وغيرهم على العرب، يقول في ذلك معاتباً[1]:

لا حِزنَ إلا أراه دون ما أجِدْ … وهل كَمن فقدت عيناي مُفتقد
لو أنّ سيفي وعقلي حاضران له … أبليته الجهد إذ لم يبله أحد
جاءت فتيةٌ والعينُ هاجعةٌ … هلا أتته المنايا والقنا قصد
أضحى شهيد بني العباس موعظة … لكل ذي عزّة في رأسهِ صيد

ويخاطب ولاة الأمر من بني العباس، يعاتبهم على تقديم العناصر الأجنبية على العرب، الأمر الذي أدى إلى ضعف الخلافة[2]:

لما اعتقدتم أناساً لا حِفاظَ لهم … ضَعتُم وضيّعتمُ من كان يُعتقدُ
ولو جَعلتم على الأحرارِ نعمَتكم … حمتكم السادةُ المذكورة الحشدُ
قومٌ هم الأصلُ والأنسابُ تجمعهم … والمجدُ والدينُ والأرحامُ والبلَدُ
إن العبيدَ إذا أذلَلتهم صلحوا … على الهوانِ وإن أكرمتهم فَسَدوا
إذا قريش أرادوا شدَّ مكّهمو … بغير قحطان لم يُبرَح بها مُرَدُ
قد وُتِر الناسُ طرائم قد صمتوا … حتى كأن الذي نيلوا به رشد

---

(1) المبرد، الكامل، ج3/ 1466.
وينظر: الحصري، زهر الآداب، ج1/ 218.
(2) المصدر نفسه، 3/ 1467- 1468.

مـن الألى وهـبوا للمجـد أنفسهم   فمـا يـبالون مـا نالـوا إذا حُمـدوا

ومـع انفـراد الموالـي وسـيطرتهم علـى مقالـيد الحكم في العصر العباسي تبرز الشعُوبيَّة وتزداد حدَّة، وتنحو منحى جديداً، وهي إن كانت تقـوم علـى المـساواة والفخر بالأمجاد تتحول إلى مناوشة العرب، والطعن علـيهم في ديـنهم ولغتهم وشعرهم، والإعلاء من شأن الآخر وحضارته، والإشادة بدور الموالي في القضاء على الدولة الأموية ذات الهُويَّة العربية، ويظهـر ذلـك جلياً في شعر شعراء العصر العباسي الأول، كبشار بن برد، وأبي نواس، والخُريمي، وغيرهم.

ولـما كـان بـشار بـن برد، وأبو نواس من أبرز الشعراء العباسيين الـذين ظهـر اتجـاه الـشعُوبيَّة في شعرهم، فسنتناول دراسة شعوبيتهم التي تمثلت بالطعن وهجاء العرب عند بشار، وتمرد أبي نواس وشعوبيته.

بشار وهجاء العرب:

كان بشار بن برد (ت 168هـ) من أوائل شعراء العصر العباسي الـذين ظهـرت عـصبيتهم لأقـوامهم الفـرس، وأذكـى بشار نار العصبية الجنـسية/ العـرقية بـين العـرب والفرس، واتخذت شعوبية بشار جوانب مـتعددة، كمـا تظهـر في شـعره، فكـان ينـسب نفـسه إلى أشـراف العجم وملـوكهم، ومـن ثمـة يتـبرأ مـن ولائه في العرب، فبينما كان بشار يفخر بمواليه القيسيين من العرب في العصر الأموي، نجده يعلن تبرأه من الولاء للعرب، بل يدعو الموالي إلى رفض الولاء ونبذه، يقول[1]:

---

(1) بـشار بـن بـرد بـن يـرجوخ، (ت 168هـ)، **ديـوانه**، تحقـيق: الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، منشورات الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1976م، ج4/ 75.

أصْبَحْتُ مَوْلَى ذِي الجَلال وبعضُهم مَوْلَى العُريب فَجُدْ بفضلك وَافْخَرِ
مَـوْلاَكَ أَكْـرَمُ مِـنْ تَمِـيم كُلِّـهَا أَهْـلِ الفِعَـالِ وَمِـنْ قُـرَيْشٍ المَشْعَرِ
فَارْجِـع إلى مـولاك غـيرَ مُدَافِـعٍ سـبحانَ مـولاك الأجـلِّ الأكْـبَـرِ

ويعلـن بـشار نـسبه إلى كـسرى مـن آل ساسـان مـن جهـة أبيه، وأخـواله قياصـرة الروم من جهة أمه، ويفاخر بشار العرب بنسبه العريق في الفـرس والـروم، ثـم يُعرِّض بالعرب ويتهجم على حضارة العرب في البادية والصحراء التي تتمثل بالرعي والحِداء وراء الإبل، ويعلي من شأن حضارة قومه الفرس في مقابل إزدراء حياة العرب، يقول[1]:

هَـلْ مِـنْ رسُـول مُخْبِـرٍ عنِّـي جَمِـيعَ العَـرَبِ
مَـنْ كـانَ حـيَّاً مِـنْهُمُ ومـن ثـوى في التُّـربِ
جَـدِّي الـذي أسمـو بِـهِ كِـسْرى وساسـانُ أبـي
وقيـصرٌ خالـي إذا عَـدَدْتُ يـوماً نَـسَبِي
كَـمْ لـي وكـمْ لـي مِـنْ أبٍ بـتاجِهِ مُعْتَـصِبِ
يَـسْعَى الهبانـيقُ لـه بآنـياتِ الـذَّهبِ
لم يُـسْقَ أقطـابَ سِـقىً يـشْرِبها في العُلَـبِ
ولا حـدا قـطُّ أبـي خَلْـفَ بعـيرٍ جَـرِبِ
إنَّـا مُلُـوكٌ لم نَـزَلْ في سـالِفاتِ الحِقَـبِ
نحـنُ ذوو التِّـيجان والـ ـمُلْـكِ الأشَـمِّ الأَغْلَـبِ

[1] ديوان بشار بن برد، ج1/ 389- 391.

ويتخذ بشار من المقارنة بين حضارة أجداده الفرس وحياة العرب مقياساً في فخره بقومه وبذاته، ويبرز تفوقهم حضارياً، وجاء في معرض رد بشار على أعرابي كان قد سمع شعراً لبشار. فقال الأعرابي: ما للموالي والشعر؟ فامتعظ بشار وغضب وقال قصيدة طويلة، جمع فيها بين الفخر بذاته وقومه، وقابل بين حضارة أجداده الفرس وما فيها من دعة عيش ونعومته، وحضارة العرب وما فيها من شظف العيش وخشونته، يقول[1]:

أَعَـاذِلُ لا أَنَـامُ علـى اقْتِسَارِ   وَلاَ أَلْقَـى علـى مـولى وَجَـارِ
سَـأُخْبِرُ فَاخِـرَ الأَعْـرَابِ عَنِّـي   وَعَـنْهُ حِـيْنَ بَـارَزَ للفخـارِ
أنـا ابـن الأكـرمين أبـاً وأمـاً   تـنازعني المـرازب مـن طخـارِ
أَحِيَنَ لَبِسْتَ بَعْدَ العُرِي خَزّاً   وَنَادمـت الكِـرَامَ علـى العُقَـارِ
تُفَاخِـرُ يَـا بْـنَ رَاعِـيَةٍ وَرَاعٍ   بَنْـي الأَحْرَارِ حَسْبُكَ مِنْ خِسَارِ

ويتخذ من حياة البادية والصحراء أسلوباً في الطعن على العرب في حياتهم القاسية، وما طرأ على حياة العربي من تطّور بفعل الأثر الفارسي، وينعى على العرب أسلوب الحياة والعيش في الصحراء[2]:

---

(1) المصدر نفسه، ج3/ 207- 211.

(2) ديوان بشار، ج3/ 209- 211.

روي أن أعرابياً دخل على مجزأة بن ثور السدوسي وعنده بشار وعليه بزّة الشعراء، فقال الأعرابي: من الرجل؟ فقيل له شاعر. فقال: أمولى هو أم عربي؟ قيل له: بل مولى. فقال الأعرابي مستخفاً: وما للموالي والشعر؟ فغضب بشار، وقال لمجزأة: أتأذن لي يا أبا ثور؟ فقال له: قل ما شئت يا أبا معاذ. فأنشد الأبيات.

الأصفهاني، الأغاني، ج3/ 95- 96.

لَعمرُ أبـي لقـد بُـدِّلْتَ عَيْـشا بعيـشِكَ والأمُـورُ إلى مَجَـارِ
وَكُـنْتَ إذا ظمِـئِتَ إلى قـرَاح شَـرِكْتَ الكلـبَ في ذَاكَ الإطَارِ
وَتُـــدلِجُ للقـــنافذ تُـــدَرِّيَها وَيُنِـسيكَ المَكـارِمَ صَـيْدُ فَـارِ
وَتَغْـبِطُ شـاويَ الحِـرباءِ حتَّـى تَـرُوحَ إلـيه مِـنْ حُـبٍّ القُـتَارِ
وَفَخْـرُكَ بـينَ يَـرْبوع وَضَـبٍّ على مثلـي مـن الحَدَث الكِبَارِ
مَقَامُـكَ بَيْنَـنا دَنَـسٌ عَلَيْـنَا فَليـتَكَ غائِـبٌ في حَـرٍّ نـارِ

ومـن مظاهـر الـشعُوبيَّة عند بشار، الفخر بموطنه خراسان ونسبه العجمـي، وأنـه ينتسب إلى أشرف قبيلة في العجم، وهو أنف الكرم، ثم يـصف كـرام الفـرس بـ "قريش العجم" في مقابل قريش العرب وكان يعتدُّ بأصـله، وعـندما سُئل: فـيمن تعـتدُّ يـا بـشار؟ قـال: أمّا اللسان والزي فعربيان، وأمّا الأصل فعجمي، كما قلت[1]:

ونُبِّـئتُ قـوماً بهـم جِـنَّةٌ يقولـونَ مَـنْ ذا وكـنتُ العلـمْ
ألا أيهـا الـسائلي جَاهِـداً ليعـرفني، أنـا أنـفُ الكـرمْ
نمـت في الكـرام بـني عامـرٍ فروعـي وأصـلي قريش العجمْ

كما كان بشار يفتخر بموطنه "خُراسان" يقول في ذلك[2]:

ودعانـي معـشر كُلُهـم حمـقٌ دَامَ لهـم ذاك الحُمُـقْ
لـيس مـن جُرْمٍ ولكـن غاظهمُ شـرفي العـارضُ قـد سدَّ الأفقْ

---
(1) ديوان بشار بن برد، ج4/ 178- 179.
(2) المصدر نفسه، ج4/ 134.

مـن خُراسـان وبـيتي في الـذُّرى   ولـدى المـسعاةِ فرعـي قد سَبَق

لقـد كـان بـشار يحمـل حقـداً دفيناً للعرب، اتخذ من حياتهم في الـبادية، وأسلوب عيشهم للطعن والهجوم عليهم، واتّخذ من إعلاء شأن الفرس وحضارتهم ديدناً له في شعوبيته.

تمرد أبي نواس وشعوبيته:

أبو نواس، الحسن بن هانيء، الفارسي أصلاً، العربي ولاءً، أحد شـعراء العـصر العباسي، فهو شاعر الخمر والمجون والشعُوبيَّة، كان يفاخر العـرب بانتـسابه إلى ملـوك الفـرس، ويتغنّـى بحـضارتهم، ويـتهكم على العرب ساخراً من حياتهم، متهكّماً بمفاخر العرب، يقول[1]:

إذا مـــا تميمـــيٌّ أتـــاكَ مُفاخـــراً   فقـل عَدٍّ عن ذا، كيف أكْلُكَ للضبِّ
تُفاخِـــرُ أبـــناءَ الملـــوكِ سَـــفاهةً   وبَـولُكَ يجـري فوق ساقِكَ والكَعْبِ
فـنحن ملكنا الأرضَ شرقاً ومغرباً   وشيخُكَ ماءٌ في الترائِب والصُّلبِ

وكـان يدعـو إلى تـرك أسـاليب العـرب في بناء القصيدة العربية، وراح يتمـرد علـى المقدمـة الطللـية، فـيطعن علـى العـرب تلك التقاليد والـسنن المـتوارثة، ويمـزج دعـوته هـذه بهجـاء العرب والفخر بالفرس، يقول[2]:

دع الرَّسْـــمَ الـــذي دَثَـــرا   يُقاسِـــي الـــرِّيحَ والمطـــرَا

---

(1) ديوان أبي نواس، ص 510.

(2) المصدر نفسه، ص 557.

ألم تــــرَما بنَــــى كــــسْرَى وســــابورٌ لِمــــن غــــبرا
مــــنارة بــــين دجلــــة والــــفــــرات تفــــيأت شــــجراً
بــــأرضٍ باعَــــدَ الــــرَّحــــمنُ عــــنها الطّلــــحَ والعُــــشرا

لقـد أعلـن أبـو نواس تمرده وهجومه على عمود الشعر العربي، وثـار على المقدمة الطللية في القصيدة العربية، فكان يدعو إلى التحرر من نمـط المقدمـة الكلاسيكية، ويـسخر مـن هـذه التقاليـد الـتي اعتاد عليها الشعراء، وكان يتهكم ساخراً من المقدمة الطللية، ومن تهكمه قوله[1]:

دع الأطـلال تـسفيها الجَـنُوبُ وتبلـى عَهْـد جـدَّتِها الخُطـوبُ
وخـلِّ لـراكِب الوجـناءِ أرضـاً تُخُـبُّ بهـا النَّجيـبةُ والنّجـيبُ
بــلادٌ نبــتُها عُــشَرٌ وطلــحٌ وأكثـر صَـيدِها ضـبعٌ وذيـبُ
ولا تأخـذ عـن الأعـراب لهـواً ولاعيــشاً فعيــشُهمُ جَــدَيبُ
دع الألــبانَ يــشربُها رِجــالٌ رقــيق العــيشِ بيــنهم غــريبُ
فأطــيبُ مــنه صــافيةٌ شَــمُولٌ يطـوفُ بكأسِـهَا سـاقٍ أديـبُ
فهـذا العـيشُ لا خِـيم الـبوادي وهـذا العـيشُ لا اللَـبنُ الحليبُ
فـأين الـبدو مـن إيـوان كسرى وأيــن مــن المـيادين الـزّروب

إنَّ أبـا نـواس يجاهـر بدعـوته إلى نـبذ المقدمـة الطللية في الشعر، ويـسخر من وقوف الشعراء على الأطلال البالية وسؤال الديار الدارسة، ويدعـو إلى تمـثُّل مظاهـر حـياة العصر اللاهية المترفة، ويقارن الشاعر بين حـياة الأعـراب الخـشنة وعيشهم الجديب، بحياة المدينة وحضارة الفرس،

(1) ديوان أبي نواس، ص 13.

حيث السقاة والحوانيت، ويفضل حياة اللّذة على تلك الحياة الغليظة، ويفخر بحضارة الفرس ولينها، ويتهكم من وقوف الشعراء على الرسوم الدارسة، يقول[1]:

قل لمن يبكي على رَسْمٍ درسْ ... واقفاً ما ضرَّ لو كانَ جلس
أترك الرَّبع وسلمى جانباً ... واصطبح كرخيَّةً مثل القبسْ

ويقول أيضاً[2]:

عَاجَ الشقيُّ على دَارٍ يُسائِلها ... وُعُجْتُ أسألُ عن خمَّارة البَلَدِ
لا يرقىء اللهُ عَيْنَى من بكى حَجَراً ... ولا شفى وَجْدَ من يَصبُو إلى وَتَدِ
قالوا ذكَرْتَ ديارَ الحيِّ من أسَدٍ ... لا درَّ دَرُّكَ قلْ لي مَنْ بنوأسدِ
ومن تميمٌ ومن قيسٌ وإخوانُهُم ... ليس الأعاريبُ عند الله من أحَدَ

لقد كان أبو نواس أحد شعراء التمرد والشعُوبيَّة في العصر العباسي، مزج بين شعوبيته واعتزازه بتراث الفرس ودعوته إلى التمرد والتحرر من التقاليد الفنية القديمة، كما كان يجاهر بارتكاب المعاصي والتهتُّك والمجون، ويتمرد على التقاليد والأعراف والمعتقدات، وكان يسوق السخريةِ المبطنة من حياة العرب وتقاليدهم.

ويمكن ملاحظة شعوبية أبي نواس في شعره من خلال عصبِّيته للفرس وحضارتهم، والدعوة إلى التجديد وهدم القديم، والجرأة في المجون، وارتياد الحوانيت والأديرة، وشرب الخمرة التي يمزجها بذكر

---

(1) المصدر نفسه، ص 134.
(2) ديوان أبي نواس، ص 46.

الفرس، وبنسبتها إلى كسرى، يقول[1]:

مـصَّورةٍ بـصورة جـنْدِ كـسرى   وكـسرى في قـرار الطـرِّ جَهـارِ
وجـلُّ الجند تحت ركابِ كسرى   بأعمـــدةٍ وأقبـــيةٍ قِـــصَارِ

ويصف الخمر بأنها من ذخائر كسرى لأولاده، يقول[2]:

ذخائـــرُ كـــسرى لأولادهِ   وغـرسُ كـرامٍ بـني الأصـفرِ

وقوله أيضاً[3]:

تُـدَارُ علينا الـراح في عسجدّيةٍ   حَبَـتْها بألـوان التـصاوير فارسُ
قـرارتها كـسرى، وفي جنَـبَاتِها   مهـاً تَـدَّريها بالقـسيِّ الفوارسُ

ويمكـن القـول: إن أبـا نـواس كـان متمرداً على المجتمع والعرف والـدين، وأظهـر سـخطه علـى الأعـراف الـسابقة، فكـان يُظهر توقه إلى التحـرر، بدافـع مـن شـعوبيته واتجاهـه الفكـري والـسياسي، لذلك أخذ بالمجاهـرة بالـثورة علـى المقدمة الطللية، كا لجأ إلى الخمرة والمجون والمبالغة في اللهـو تقـيّة وسـتاراً لإخفـاء شـعوبيته ومواقفه السياسية[4] "فالمبالغة في مجاهـرة أبي نواس باقتراف المعاصي من قبل التقيّة التي تشكل غطاءً واقياً

(1) الديوان، ص 77 وينظر: شراب خسرواني، ص 95.

(2) المصدر نفسه، ص 682.

(3) المصدر نفسه، ص 13.

(4) الزعيم، أحلام، أبو نواس بين العبث والاغتراب والتمرد، دار العودة، بيروت، (ط1)، 1981 م، ص 8.

لمواقفه السياسية، التي تبعده عن مخاطر البطش التي كان يتعرض لها كل من له انتماء سياسي، أو مذهبي يتعارض مع الانتماء السياسي السائد آنذاك".

شعوبيون مقلون:

ولم يكن بشار وحيداً من شعراء الموالي في التبرؤ من الولاء والانتماء للعرب، والتعريض بحضارتهم، بل ظهر غيره من الشعراء الذين هاجموا حضارة العرب، كأبي نواس، وعلي بن الخليل، والخُريمي.

روى أن علياً بن الخليل الشاعر مرَّ بأحد أصدقائه من الفرس الذين ادّعوا الانتساب إلى العرب، فأخذ يسخر من مثل هذا الفعل، وراح يسفّه حياة العرب، ويسخر منهم، يقول[1]:

يا أيُها الراغبُ عن أصلهِ ... ما كُنْتَ في موضع تهجين
متى تعرّبتَ وكنت امرأً ... من الموالي صالح الدِّين

ونجد أحد الشعراء الذين ظهر الاعتزاز بالأصل الفارسي في شعره. بو يعقوب الخريمي، وهو يمثل صورة هادئة من صور الشعُوبيَّة، رسعره يمثل الشعُوبيَّة المعتدلة، أكثر فيه من ذكر الأماكن الفارسية، يقول في الفخر والاعتزاز بقومه الفرس[2]:

---

(1) الأصفهاني، الأغاني، ج14/ 118.

* **علي بن الخليل**: مولى يزيد بن مزيد الشيباني، أحد شعراء الكوفة وظرفائها، من جيل مطيع بن إياس سُجن مع صالح بن عبد القدوس بتهمة الزندقة.

المرزباني، معجم الشعراء، ص 36. الأصفهاني، الأغاني، ج14/ 112.

عبد الرحمن، عفيف، معجم الشعراء العباسيين، ص 32.

(2) أبو يعقوب الخريمي، إسحاق بن حسان الصغدي (ت 214هـ)، ديوان الخريمي، جمع وتحقيق: علي جواد الطاهر ومحمد جبار المعيبد، دار الكتاب الجديد، بيروت، (ط1)، 1971م، ص 38.

إني امرؤ من سُراة الصُّغد البسني عِرقُ الأعاجم جلداً طيّب الخبرِ

وقال مفتخراً[1]:

رسا بالصُّغد أصلُ بني أبينا وأفرُعنا بمرو والشاهجانِ
فكم بالصُّغد لي من عمّ صدق وخال ماجد بالجُوزجان[2]

ومن أبرز مظاهر شعوبية الخُريمي اعتزازه بأهل خراسان والصغد، واعتداده بكسرى ابن هرمز وخاقان، يقول[3]:

وناديتُ من (مرو) و(بلخٍ) فوارساً لهم حَسَبٌ في الأكرمين حسيب
فيا حَسْرَتا لا دار قومي قريبة فيكثرُ فيهم ناصري فيطيب
وإنّ أبي ساسان كسرى بن هرمز وخاقان لي لو تعلمين نسيبُ
ملكنا رقابَ الناس في الشرك كلُّهم لنا تابعٌ طوعُ القياد جنيب

كما تعددت الأصوات الشعُوبيَّة التي يظهر فيها الاعتزاز القومي والتعصب العرقي للعناصر الفارسية، وأخذ الشعوبيون يعلون من شأن الفرس والأعاجم، ويهاجمون العرب، ويودّون لو ثأروا لأمجادهم

(1) المصدر نفسه، ص 60.

(2) **الصغد**: من بلاد سمر قند. **الشاهجان**: مدينة في بلاد فارس. **الجوزجان**: اسم مكان في بلاد خراسان.

(3) المصدر السابق، ص 15.

الخُريمي: أبو يعقوب إسحاق بن حسّان الصغدي، نشأ في خراسان وسجستان، من شعراء العصر العباسي، نزل بغداد أيام الرشيد اتصل بمحمد بن منصور بن زيد كاتب البرامكة، وأبي الحسن بن التختاخ كاتب يحيى البرمكي، توفي عام 214 هوقد جاوز الثمانين، كف بصره في آخر أيامه، مدح الخلفاء والوزراء والأشراف.

عبد الرحمن. عفيف، معجم الشعراء العباسيين، ص 77.

ولآبـائهم، وأزالـوا حكم العرب، بل وردّهم إلى ديارهم في الحجاز، ومن الأصـوات الـشعُوبيَّة الحاقـدة علـى العـرب، الممتلـئة حقداً وضغينةً لهم، إبراهيم بن ممشاذ المتوكلي (الأصبهاني)، يقول[1]:

أنـا ابـنُ الأكـارمِ مـن نَسلِ جَمْ ... وَحَائِـزُ إرثِ مُلُـوكِ العَجَـمْ
وَمُحيي الَّذي بَادَ مِنْ عِزِّهم ... وَعَفَّـى عَلَـيهِ طِـوَالُ القِـدَمْ
وَطَالِبُ أوتَارِهم جَهْرَةً ... فمـن نَـامَ عـن حَقِّهـم لم أنَـمْ
يَهُمُّ الأنامُ بلذّاتهم ... ونفـسي تَهُـمُّ بـسوقِ الهمـمْ
وإنّي لآمُلُ مِن ذِي العُلاَ ... بُلُـوغَ مُـرادِي بخـيرِ النَّـسَمْ
معي عِلمُ الكائناتِ الّذي ... بـه ارتجـي أن أسُـودَ الأُمَـمْ[2].

فالـشاعر يعتـز بقوميـته الفارسـية، ويفخـر بانتسابه إلى (جمشيد) ملـك فـارس، ويـريد إحـياء الأمجـاد الفارسـية، والثأر لقومه من العرب الـذين أخـضعوا فـارس، وقوّضوا ملك الأكاسرة، وتبرز ضغينة المتوكلي وحقـده الـدفين على العرب والعروبة، ويتمثل ذلك في أمله الامتناهي في بلـوغ غايـته المتجـسدة في إعـادة الأمجاد الفارسية، ثم يخاطب الشاعر "بني هاشـم" الـذين يمثلون العـرب ويفخـر بـدور الفرس في الدعوة العباسية، ويسخر من حياة العرب، متوعداً ومهدداً إذ يقول[3]:

---

(1) الحموي، ياقوت، معجم الأدباء، ج2/ 18.
إبراهيم بن ممشاذ المتوكّلي: أبو إسحاق إبراهيم الأصبهاني، أصله من أصبهان، أحد بلغاء العصر العباسي، كان من ندماء المتوكّل، فسمّي: المتوكلي، كتب قصيدته إلى المعتمد الخليفة العباسي (ياقوت الحموي، ج2/ 18).

(2) **عفّى عليه**: محى واندرست آثاره. **السيف الخذم**: السيف القاطع الحاد.

(3) الحموي، معجم الأدباء، ج2/ 18.

فَقُلْ لبني هاشمٍ أجمعينَ هَلُمُّوا إلى الخَلْعِ قَبْلَ النَّدم
ملكناكُم عَنْوَةً بالرِّما حِ طعناً وضَرباً بسيفٍ خَذِمْ
وأولاكُمُ المُلكَ آباؤُنا فما إنْ وَفَيتُمْ بشُكْرِ النِّعمِ
فعودُوا إلى أرضكُمْ بالحجازِ لأكلِ الضِّبابِ وَرعي الغَنَم
فإنّي سأعلو سَرِيرَ المُلوكِ بحدِّ الحُسامِ وَحَرفِ القلمِ

الفصل الثالث

"الرُّوم والتُّرك في الشعر العربي"

- **أولاً: العرب والرُّوم.**
  - صراع العرب مع الرُّوم وأثر ذلك في الشعر.
  - وصف جيش الروم، فداء الأسرى، شعر الوفود، شعر الخصومات السياسية.
- **ثانياً: النفوذ التُّركي والتمثيل الشعري**
- **ثالثاً: السود والشعر العربي.**
  - **نفي الآخر الأسود في الشعر العربي.**
- **رابعاً: صدى ثورات الآخر وتمرده في الشعر العربي.**

الفصل الثالث

"الرُّوم والترك في الشعر العربي"

أولاً: العرب والرُّوم

كان العرب على صلة بالحضارة البيزنطية، فاتصل العرب بالرُّوم، منذ العصر الجاهلي، وقد عرف الرُّوم بعلاقاتهم المتوترة مع العرب، فالروايات والأخبار حول علاقة العرب بالرُّوم تبين أنها علاقة قائمة على العِداء والحروب المستمرة وازدادت معرفة العرب المسلمين بالرُّوم منذ العهد الإسلامي، وكانت أول غزوة إلى بلاد الرُّوم في عهد الخليفة أبي بكر في سنة (15هـ)[1].

وتمكن العرب والمسلمون من احتلال بلاد وأراضٍ واقعة تحت نفوذ الرُّوم، مما زاد العداء بينهما، حيث اتسمّت علاقة العرب بالرُّوم بالتوتر شبه الدائم، فكثرت الحروب والمعارك في العصرين الأموي والعباسي.

ومنذ قيام الدولة الأموية اشتعلت الحروب بين العرب والرُّوم، إذ فتح معاوية كثيراً من المدن والبلاد الخاضعة للإمبراطورية البيزنطية كقيسارية وغيرها من الحصون الكثيرة، ودأب الأمويون على إرسال الجيوش إلى بلاد الرُّوم، وتعددت الغزوات الصيفية التي وصلت حدود قسطنطينية، وكان الوليد بن عبد الملك يغزو بلاد الرُّوم في كل عام، فقال الشاعر في ذلك[2]:

---

(1) تاريخ الطبري، ج4/ 153- 155.

(2) الأخطل، أبو مالك غياث بن غوث التغلبي، شعر الأخطل صنعة السكري رواية أبي جعفر بن محمد بن حبيب، تحقيق: فخر الدين قباوة، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، (ط1)، 1979م، ج1/ 45- 46.

وفي كُـلّ عـام مِـنْكَ للـرُّومِ غـزوةٌ بعـيدةُ آثــارِ الــسنابكِ والــسَّربِ
وإنّ لهـــا يَومـــيَنِ: يَـــوم إقامـــةٍ ويوماً تشتكي القضُّ من حَذَرِ الدّربِ

وكانـت مـناطق الثغور على حدود الدولة العربية مع الرُّوم تمثل مـسرحاً للـصراع الحربـي بـين العـرب والرُّوم، كما كانت تمثل جانباً من التفاعل الحضاري والثقافي والاختلاط الفكري والأدبي وانعكست طبيعة هـذه العلاقة القائمة على الصراع على الأدب، ورافق الشعر العربي هذه الحروب، فصّور الشعراء جيش الرُّوم، ومعارك العرب معهم.

وأمّـا تـسمية الرُّوم، فقد أطلق العرب على الرُّوم عدة تسميات، حيث تـرد لفظـة البيـزنطيين في مقابـل لفظـة الـرُّوم، نـسبة إلى عاصـمة الإمـبراطورية الرُّومانية "بيزنطة" التي اتخذها قسطنطين عاصمة لهم، ويغلب اسـتخدام لفـظ البيزنطيين عند دارسي التاريخ والمؤرخين، بينما يستخدم كـتّاب الأدب والـشعر العربـي لفظ الرُّوم في الغالب، والتي ربما تعود إلى نسبهم واسم أبيهم: (الرُّوم بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم) أو نسبة إلى مدينة (رومية) من أكبر مدن الرُّومان[1].

---

(1) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت 346هـ)، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، تحقيق: قاسم الشماعي، الرفاعي، دار القلم، بيروت، (ط1)، 1989م، ج1/ 286- 287. ومـن التـسميات التي أطلقت على الرُّوم "ذات القرون"، وربما سُمّي الرُّوم "ذات القرون" نسبة إلى ضـفائرهم وقـرونهم؛ لأنهم لا يجزّون شعورهم، بل يوفرونها ويضفرونها، أو يجدلونها ضفائر تـسمّى "القرون" ومن هنا عرفهم العرب بهذه القرون والضفائر التي يستخدمونها من شعورهم، ويـبدو أن هذه التسمية أطلقت عليهم في العصر الإسلامي، ولكنها لم تستمر طويلاً، إذ لم أجد لهـا صـدى في الشعر الذي قيل في حروب الرُّوم مع العرب في العصرين الأموي والعباسي إلا مـا ندر. في حين نجد تسمية "بني الأصفر" هي الأكثر شيوعاً في شعر العصر العباسي، المسعودي، مـروج الـذهب، ج1/ 288، الأزهـري، أبو منصور (توفي 370هـ)، تهذيب اللغة تحقيق: عبد السلام هارون، الدار المصرية للتأليف والترجمة. 1964. ج9/ 86/ 87.

وصف العرب الآخر ومنهم الرُّوم من خلال اللون، كالصفرة، أو الصّهبة، أو حُمرة الأنوف، وارتبطت هذه الأوصاف للدلالة على الآخر؛ لأن اللون هو أول ما يتبدّى للإنسان عند رؤيته الآخر، وبذلك اتخذ الشعر العربي اللون عنصراً من عناصر الهُويَّة والاختلاف والعرب تصف العجم بالحُمرة عامة، وكان لفظ العجم يطلق على الآخر من غير العرب، وعلى الرُّوم خاصة، ولذلك وصفهم الشعر العربي بالحُمرة والشقرة، وكانت صفة الصُّهبة من الصفات التي وُصِف بها الرُّوم، فهم صُهب السِّبال، قال أحد الشعراء في وصف جيش الرُّوم[1]:

جاؤوا يجرُّون الحديدَ جَرّاً   صُهب السِّبال يبتغون الشَّرا

والصُهبة تعني الشقرة في شعر الرأس أو اللّحية، وهي تختص بلون الشَّعر، وهي حمرة يعلوها سواد، ويقال للأعداء صُهب السِّبال، وأصل الصّهوبة للروم، وإلى ذلك أشار عبيد الله بن قيس الرقيات[2]:

فَظِلالُ السُّيوفِ شيَّبن راسي   وطِعَاني في الحربِ صُهْبَ السِّبالِ

إن وصف الشعراء العرب للروم بالصفرة أو الصهبة يتعلق بألوانهم التي تميل إلى الحمرة، وصهبة الشَعْر، وسبوطته، لأن السبوطة اقترنت بالعجم أيضاً، وقد وُصِف الصحابي الجليل صهيباً الرُّومي بالأصهب؛ لأنّهُ كان شديد الصهوبة تشوبها حمرة[3].

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، (صهب).

(2) ديوان ابن قيس الرقيات، ص 113.

(3) ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي (ت 852هـ) ،**الإصابة في تميز الصحابة**، دار الكتب العلمية، بيروت، ج3/ 254.

وهـذه الـصفة وردت في شـعر الفرزدق في مدح سليمان بن عبد الملـك عـندما ولـي الخلافـة، حيث وصف الرُّوم في بلاد الشام بالأقشر، يقول[1]:

فما كُنتُ عن نفسي لأرحلَ طائعاً إلى الـشامِ حتـى كُنتَ أنتَ المؤمَّرا
فلمـا أتانـي أنهـا ثبـتتْ لَـهُ بأوتـادِ قَـرمٍ مـن أُمـيَّةَ أزهـرا
نهـضتُ بأكـناف الجـناحين نهضةً إلى خير أهلِ الأرض فرعاً وعُنصرا
فحـبُّك أغـشاني بـلاداً بغيـضةً إلـيَّ وروميـاً بعمّـان أقـشرا

ويوظف أبو نواس الألوان في وصف أدوات الخمر، فيشبِّه زقاق الخمـر بالأحـباش لـشدة سـوادها، أمَّـا الدِّنان فيصفها بالحُمرة، ويشبهها بالرُّوم، يقول[2]:

إلى بـيتِ خَمَّـارٍ أفـادَ زِحامُـهُ لـه ثـَرْوةٌ والـوجْهُ مـنه بَهـيمُ
وفي بيـــتِهِ زِقٌّ ودنٌّ ودَوْرَقٌ وَباطِـيَةٌ تـروي الفتـى وتُنـيمُ
فأزقاقُـه سُـودٌ، وحُمـرٌ دِنانُـه فَفـي البـيتِ حُبشانٌ لديهِ ورُومُ
ودهقانـةٍ ميـزانها نُـصب عيـنها وميـزِانُها للمـشترين غُـشُومُ[3]

وأنكر بعض الشعراء إدعاء الآخر بالانتساب إلى العرب، وإنكار نـسبه بدلالـة اللـون؛ لأن اللـون ارتـبط بالدلالـة علـى الهُويَّة عند بعض الـشعراء، فقـد هجا أبو العتاهية والبة بن الحباب، وأنكر عليه انتسابه إلى

---

(1) ديوان الفرزدق، ج1/ 241- 242.
(2) أبو نواس، ديوانه، ص 131.
(3) **الـزق**: وعـاء الخمـر. **بهـيم**: شديد السواد. **الدّن**: هو وعاء أكبر من الزق، يحفر له في الأرض. **الباطية**: إناء واسع الأعلى ضيق الأسفل.

العـرب، وكـان والبة قد ادّعى الانتساب للعرب، واتخذ الشاعر في هجاء والـبة وكـشف إدعائـه الحمـرة الـتي اتـصف بهـا والبة، فالحمرة والشقرة ليست من ألوان العرب، يقول[1]:

وابـن الحُـبابِ صَـليبةٌ زَعَمـوا ... وَمِـنَ المُحـالِ صـليبةٌ أشـقرْ
مـا بـالُ مَـنْ آبـاؤهُ عَـرَبُ الألـ ... ـوانِ يُحْـسَبُ مـن بـني قَيْـصرْ
أتَـرَونَ أهْـلَ الـبدوِ قـد مُسِخُوا ... شُـقْراً أمـا هـذا مـن المنكَـرْ

فالـشقرة تنفـي النـسب إلى العـرب، ويـصبح اللـون يحمل دلالة كاشـفة عـن الهُـويَّة وعلامة مهمة في تحديد نسب المرء، فالشقرة من ألوان الـرُّوم لا مـن ألـوان العـرب، وبذلك ينكر الشاعر على والبة الادعاء في النسب إلى العرب، لأن لون الشقرة يفضح دعواه ويكشفها.

ومـن الـصفات الـتي أطلقـت على الرُّوم، وصفهم بأنهم علوج، وقـد ورد وصـف الـرُّوم بأنهم قوم من العلوج؛ والعلج: الرجل الشديد الغلـيظ، وقـيل: كُل ذي لحية والعِلج: هو الرجل من كفّار العجم، ويقال للـرجل الـشديد من الكُفّار علج أيضاً، وقد ورد لفظ العلج للدلالة على العدو في الحديث الشريف. في قوله ﷺ: "فأتني بأربعة أعلاج من العدو"[2].

---

(1) أبـو العتاهية، إسماعيل بن القاسم، أبوالعتاهية أشعاره وأخباره، تحقيق: شكري فيصل، مطبعة جامعة دمشق، 1964م، ص 559- 560.
والـبة بـن الحـباب: هو والبة بن الحُباب الأسدي (ت 170هـ)، أستاذ أبي نواس ومؤدِّبه، وله أشـعار كثيرة في المجون والخلاعة والفتك، هاجى بشاراً وأبا العتاهية فغلباه، وكان ظريفاً شاعراً غزلاً وصافاً للشراب والغلمان.
الأصفهاني، الأغاني، ج18/ 73.
عبد الرحمن، عفيف، معجم الشعراء العباسيين، ص 578.

(2) ابن الأثير الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر، ج3/ 552.
وينظر: ابن منظور، لسان العرب، (علج).

وهجا أبو فراس الحمداني قوماً من بني كعب، بوصفهم بأنهم علوج، وأضاف إلى ذلك احمرار الأنوف، ليعرِّض بنسبهم، وأنهم من الرُّوم كما تدل على ذلك الألفاظ التي انتقاها الشاعر[1]:

عُلُوجَ بني كعبٍ بأيِّ مشيئةٍ ... تروُمُون يا حُمرَ الأنوف مقامِي
نفيتُكُمُ عن جانبِ الشَّامِ عَنوةً ... بتدبيرِ كَهْلٍ، في طِعانِ غُلامِ
وفتيانِ صدقٍ من غطاريفِ وائلٍ ... خِفافِ اللِّحى، شُمِّ الأنوفِ، كِرامِ

ومن الصفات اللونية التي ارتبطت في دلالتها بالرُّوم في الشعر العربي، زرقة العيون، وربما تحمل هذه الدلالة تمثيلاً سلبياً، لأن بعض الشعراء عدَّ زرقة العيون من العيوب ويقال للرومي: أزرق بدلالة لون العينين، وقد تقرن زرقة العيون بسبوطة الشعر. وربّما مَزج الشاعر بين زرقة العيون وسواد اللون، مما يوحي بأن زرقة العيون من الصفات السلبية للآخر، وتشير إلى هُوية غير العربي.

ومن الإشارات إلى ذلك، قول أبي تمام[2]:

مُـثقَّفَاتٍ سَلَبْنَ الرُّوم زُرْقَتَها ... والعُرْبَ سُمْرَتها والعاشِقَ القَضَفَا

---

(1) أبو فراس، ديوان أبي فراس الحمداني، جمع وتحقيق: سامي الدَّهان، منشورات المعهد الفرنسي، بيروت، (ط1)، ديوانه، 1994م، ج1/ 364.
وينظر: في وصف الرُّوم بالعلوج:- ديوان الفرزدق، ج1/ 127، ج1/ 148.
ديوان جرير، ج1/ 961.ديوان البحتري، ج3/ 1652، ج3/ 1684، ج3/ 1722، ج3/ 1872.

(2) ديوان أبي تمام، ج3/ 371.

ويصف عبد الله بن أبي سُبرة أحد فرسان الرُّوم بزرقة العينين، وشَعْره الجعد، وذلك من قصيدة يرثي بها يده التي قطعت في حروب الرُّوم، يقول[1]:

يُمنى يدي غَدَتْ عنّي مُفارِقة | لم أستطع يوم فلطاس لها تَبَعا
كأنَّ لُمَّتَهُ هُدَّابُ مُخملةٍ | أحَمُّ أزرقُ لم يَمْشط وقد صلعا
فإن يكن أطربُونُ الرُّوم قطَّعها | فقد تركتُ بها أوصاله قِطَعا

وقال أحد الشعراء في زوجه النصرانية، واصفاً جمالها وحسنُها الذي لا عيب فيه سوى زُرقة عينيها، ولذلك فقد عد الشاعر زرقة العين من العيوب، يقول[2]:

فَإنْ تَكُ نصرانيّةً أم خالد | فإنَّ لها وجهاً جميلاً يزينها
ولا عيبَ فيها غير زرقة عينها | كذاك عتاق الطير زرقٌ عيونها

ومزج بعض الشعراء بين زرقة العينين وشدة سواد الجسم في معرَض التشبيه، فيشبِّه الشاعر الليل الطويل شديد السواد، وقد تلألأت فيه النجوم الزرقاء، بالحبشي الأسود، وأما النجوم فيشبّهها بأحداق الرُّوم، كناية عن زرقة عيون الرُّوم وسواد الأحباش[3]:

---

(1) القالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم البغدادي، (ت 356هـ)، **كتاب الأمالي**، دار الكتب العلمية، بيروت، ج1/ 47- 48.
وينظر: الطبري، تاريخ الرسل والأمم، ج3/ 612- 613.

(2) الخالديان: أبو بكر محمد (ت 380هـ)، وأبو عثمان بن سعيد (ت 391هـ)، **كتاب الأشباه والنظائر (من أشعار المتقدمين والجاهلية والمخضرمين)**، تحقيق: محمد يوسف نجم، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1965م، ج2/ 308.
وينظر: الطبري، تاريخ الرسل والأمم، ج3/ 612- 613.

(3) ابن الشجري، الحماسة الشجرية، ج2/ 726.

وليلٍ تهلك الرُّكبانُ فيه إذا مَدَّ الرُّواق على الآكامِ
كأن نجومَهُ أحداق رومٍ وسائِرَ جسمه من آل حامِ

وارتبط ذكر الرُّوم بالملك عند العرب، فالتاج من الإشارات التي تدل على ملك الرُّوم أو الفرس، لارتباط الملك بالجاه والسلطان، واستخدم الشعراء التاج في مدح الخلفاء وينسب التاج إلى هرقل أو قيصر من ملوك الرُّوم فيقال: تاج قيصر أو تاج هرقل، وربما يعود ذلك إلى تقدير العرب لملوك الرُّوم ومُلكهم، يقول أيمن بن خريم في نسبة التاج إلى هرقل، عندما مدح بشر بن عبد الملك[1]:

ودَعْ بِشْراً يُقوّمهمْ ويُحْدِثْ لأهل الزَّيغِ إسلاماً جَديداً
كأنّ التاج تاجَ بني هِرَقلٍ جَلَوهُ لأعظمِ الأيام عيدا
على ديباجِ خَدَّي وَجهِ بِشرٍ إذا الألوانُ خالفتِ الخُدودا

وأما لغة الرُّوم، فقد أحسَّ بعض الشعراء بالغربة الثقافية واللغوية، عندما شكّلت لغة الآخر حاجزاً يمنع التواصل، وقد وصف العرب لغة الآخر من الأعاجم عامة بالتراطن، لأنها تشكّل حاجزاً للتفاهم والتواصل مع الآخر.

---

(1) الأصفهاني، الأغاني، ج20/ 198.
أيمن بن خريم: هو أيمن بن خريم بن فاتك، من بني أسد، شاعر إسلامي وأموي، أسلم يوم فتح مكة، وكان أبوه قد صحب الرسول ﷺ وروى عنه، كان يُسمّى: خليل الخلفاء، لعلمه، وبيانه، وفصاحته، اتصل بعبد العزيز بن مروان، وعبد الملك بن مروان.
ينظر: ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج1/ 541.
الأصفهاني، الأغاني، ج20/ 194- 200.
ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، ج1/ 92.

صراع العرب مع الرُّوم وأثر ذلك في الشعر:

كـان العـرب يـتطلعون إلى فتح القسطنطينية، مركز الإمبراطورية الـرُّومانية مـنذ العصر الإسلامي، فقد أرسل العرب والمسلمون الحملات المتتالـية لغـزو بـلاد الشام، ونشر الإسلام، وفتح البلاد، وكانت الحروب مـستمرة بـين العرب والرُّوم، وازدادت حدة الصراع العربي مع الرُّوم في العـصر العباسـي، وأطلـق على هذه الغزوات والحروب "حروب الثغور"، وهـي مـناطق الـثغور المـتاخمة لحدود الرُّومان مع العرب، ولذلك حرص بعـض الخلفـاء والـولاة مـن العرب على حماية هذه الثغور، والعمل على تقويتها وتحصينها.

وفي عـام (133هــ) أغـار الـرُّوم علـى ثغور الدولة الإسلاَمية، واسـتطاعوا دخـول جزيـرة ملطـية وهـدمها وقـتل مـن فـيها وإحراقها، وأخـذت الحـرب تـتخذ طابـع الغارات والغزوات المتتالية، وتمثّلت بنظام الـصوائف[1]، حـيث عمل القادة العرب على تجهيز الجيوش وإرسالها إلى بـلاد الـرُّوم، وتطـوّر الـصراع العربـي الرُّومي إلى أكثر عنفاً واشد عِداءً، عـندما أرسـلت (إيرنـي) إمـبراطورة الـرُّوم- آنـذاك- الجـيوش الرُّومية لاحـتلال مـناطق وجزر عربية، فأحرق الرُّومان جزيرة "مرعش" وقتلوا من فـيها، وكـان أن ردَّ الخليفة المهدي بغزو (سمالو) واحتلالها- والتوغل في أراضي الرُّوم[2].

---

(1) ينظـر: عبد الرحمن، نصرت، شعر الصراع مع الرُّوم في ضوء التاريخ، ص14- 15 **الصوائف**: هي الغزوات التي كانت تنفذ في فصل الصيف.

(2) ابن الأثير الكامل في التاريخ، حوادث سنة، 133هـ، ج5/ 89.

وازدادت حدّة الصراع العربي الرُّومي في عهد الرشيد وأبنائه: الأمين والمأمون، والمعتصم من بعدهم وكان الرشيد قد أخضع الرُّوم إلى دفع الجزية، وأوصل الجيش العربي إلى حدود القسطنطينية، وحاصرها، فطلب الرُّوم الصلح ودفعوا الجزية وهم صاغرون، وإلى ذلك أشار مروان بن أبي حفصة الشاعر[1]:

أطَفْتَ بقسطنطينةِ الرُّوم مُسنِداً ... إليها القنا حتى اكتسى الذلَّ سُورُها

وما رِمْتَها حتى أتتك ملوكُها ... بجزيتها، والحربُ تَغْلَى قُدرُوها

ولّما تولى "نقفور" مُلك الرُّوم، نقض العهد مع الرشيد، وامتنع عن دفع الجزية وكتب إليه[2]: "من نقفور- ملك الرُّوم- إلى هارون- ملك العرب- أما بعد، فإن الملكة التي قبلي أقامتك مقام الرُّخ، وأقامت نفسها مقام البيدق فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أضعافها إليها، ولكن ذلك ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي هذا فاردد ما حصل لك من أموالها، وافتد نفسك بما يقع من المصادرة لك، وإلا فالسيف بيننا وبينك"[3].

ولّما وصل كتاب نقفور إلى هارون الرشيد، أمتعض وغضب غضباً شديداً، وعَلِمَ أنّ الرُّوم نقضوا عهدهم السابق، واخلفوا مواثيقهم،

---

(1) مروان بن أبي حفصة، شعره، جمع وتحقيق: حسين عطوان، دار المعارف، مصر، (ط1)، 1988 م، ص 60.

(2) الطبري، محمد، بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، (2/ 629- 630) و(8/ 307- 308).
وينظر: النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، (ت 733هـ)، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق: عبد المجيد ترحيبي، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، (ط1)، 2004، ج 21/ 105.

(3) **الرُّخ**: من أحجار الشطرنج. **البيدق**: هو الجندي من أحجار الشطرنج.

فكتب على ظهر الكتاب ما جاء فيه: من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الرُّوم، قد قرأت كتابك، والجواب ما تراه دون أن تسمعه، والسلام". ثم سار إلى بلاد الرُّوم، فأحرق الحصون وفتح المدن الرُّومية، ومنها "هرقلة" التي دخلها وسبى من كان فيها، مما دفع بنقفور إلى طلب المهادنة، وأقَرَّ بدفع الجزية، فوقفت الحرب وعاد الرشيد إلى بغداد.

ولكن نقفور عاد مرة ثانية ونقض العهد بدافع كبريائه وخداعه، وبدأ يستعد لغزو العرب وبلادهم، وأشفق الناس على الرشيد، وأحجموا عن إخباره، ولكن يحيى بن خالد بذل أموالاً للشعراء لينشدوا شعراً يحمل نقض نقفور العهد أمام الرشيد، فدخل أحد الشعراء إلى الرشيد، وقال شعراً في مدح الرشيد وفيه خبر نقض نقفور لعهوده ومواثيقه، ومما قال[1]:

نَقَضَ الذي أعطيتَه نقفور ... فعليه دائرةَ البوارِ تدور
أبشر أمير المؤمنين فإنّه ... فتحٌ أتاك به الإله كبير
فلقد تباشرت الرعيّة أن أتى ... بالنقض عنه وافِدٌ وبشير
نقفور إنّك حين تغدر إن نأى ... عنك الإمام لجاهل مغرور
ألقاك حينك في زواخر بحره ... فطمت عليك من الإمام بحور

ولّما سمع هارون الرشيد القصيدة، علم أن نقفور قد نقض العهد، وقال: أو قد فعل؟ وسار إلى بلاد الرُّوم، وأعاد هرقلة، بعد أن أحرقها وخرَّب حصونها وكانت من أهم المدن الرُّومية وقال الشاعر

(1) الطبري، تاريخ الملوك والرسل، ج2/ 109.

المكي في ذلك[1]:

هـوت هـرقلة لمّا أن رأت عجباً حـوائماً ترتمـي بالـنفط والـنار
كـأن نيرانـنا في جـيب قلعـتهم مـصبغاتٌ علـى أرسـان قـصّار

وقال أبو العتاهية في ذلك أيضاً[2]:

ألا نـــادت هـــرقِلةُ بالخـــراب مـــن الملـــك الموّفـــق بالـــصواب

واستمر الصراع العربي الرُّومي في مدٍّ وجزر، وفي عهد المأمون تتكرر مسألة العهود والصلح بين الطرفين، فيتبادل "نقفور" الرسائل مع المأمون.

وكان المعتصم قد تمكن من غزو بلاد الرُّوم وفتح مدينة عمورية، ذات الحصون المنيعة بالاعتماد على جنده من الأتراك، وكان لوقعة عمورية صدىً كبيرٌ في الشعر العربي حيث سجَّل أبو تمام هذا النصر المؤزّر على الرُّوم في قصيدة يمتدح فيها المعتصم، ويصف ما حلَّ بالرُّوم من هزيمة وإذلال، ويصف "تيوفيل" قائد الرُّوم: من خلال القصيدة، يقول[3]:

لمّـا رأى الحَـرْبَ رأي العـينِ تـوفَلِسٌ والحَـرْبُ مـشتَّقة المعنـى مـن الحَرَبِ
غـــدا يـــصرِّف بالأمْـــوال جـــرْيَتها فعـــزّهُ البَحْـــرُ ذو التّـــيار والحَـــدَبِ

---

(1) الطبري، ج8/ 320. الشاعر المكي: لم أعثر على ترجمة له.
وينظر: الحموي، شهاب الدين أبي عبيدة الحموي البغدادي (ت 126هـ)، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، (ط2)، ج5/ 398.
هـرقلة: مدينة ببلاد الرُّوم، سُمّيَت بهرقلة نسبة إلى: هرقلة بنت الرُّوم بن النضير بن سام بن نوح، غزاها الرشيد وفتحها.

(2) ديوان أبي العتاهية، ص 491.

(3) ديوان أبي تمام، ج1/ 64- 65.

هيهات زُعْزِعتْ الأرضُ الوقور به عن غزوِ مُحتَسبٍ لا غزو مكتسبِ

وفيها يصور قتلى الرُّوم[1]:

تسعون ألفاً كآساد الشرى نضجت جلودهم قبل نضج التين والعنب

وبوفاة المعتصم (ت 227هـ) يتحول الصراع مع الرُّوم من صراع الدولة إلى حرب الولايات، إذ أصبحت حماية الثغور ملقاة على عاتق ولاة هذه الثغور وحكامها، وفيهم من أبلى بلاءً حسناً في حروب الرُّوم، وأفاض الشعراء في مدح هؤلاء الولاة وصوَّروا بطولاتهم، أمثال: أبي سعيد الثغري، الذي أسهب البحتري في تصوير بطولاته.

على أن بعض الولاة كانوا يتقاعسون عن قتال الرُّوم، إمّا لعدم مقدرتهم على خوض الحرب، أو توانوا عن ردِّهم وقتالهم لأسباب أخرى، وقدّم بعض الشعراء احتجاجه على مثل هذا التخاذل، ومن ذلك ما ورد أن الرُّوم أغاروا على سواحل أفريقيا، واستولوا على دمياط، وكان عنبسة بن إسحاق (238- 242هـ)، والي الخليفة المتوكل على مصر، قد توانى عن قتال الرُّوم وردَّهم، مما أثار غضب أحد الشعراء، فنظم يحيى بن الفضل قصيدة عاب فيها تقاعس عنبسة، وهجاه شعراً، وأرسل قصيدته إلى الخليفة احتجاجاً على تقاعس الوالي، يقول منها[2]:

أتَرْضَى أنْ تُوطَأَ حَرِيمُكَ عَنوةً وأن يُستباحَ المسلمونَ وَيَخْرَبُوا

---

(1) المصدر السابق، ج1/ 65.

(2) الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب (ت 353هـ)، الولاة والقضاة، تحقيق: محمد حسن إسماعيل وأحمد فريد المزيدي، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، (ط1)، 2003، ص 151- 152.

وينظر: ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت، (ط1)، 1992م، هامش ج2/ 354، والأبيات فيها اختلاف.

حمارٌ أتى دمياطَ والرُّوم وثب | بتينس منه رأي عين وأقرب
مقيمون بالأشتوم يبغون مثل ما | أصابوه من دمياط والحربُ ترتب
فلا تنسنا إنّا بدار مضيعةٍ | بمصر وإن الدين قد كاد يذهبُ

ومن ثمة تحول الصراع مع الرُّوم إلى حروب مستمرة في بلاد الشام، وأخذ سيف الدولة الحمداني على عاتقه محاربتهم ومقارعتهم، فكثرت المعارك والوقائع الحربية بين العرب الحمدانيين والرُّوم، وأشاد الشعر العربي ببطولة سيف الدولة وشجاعته في حرب الرُّوم، وفي تلك المعارك أُسر الشاعر العربي "أبو فراس الحمداني"، وبقي أسيراً عند الرُّوم مدّة من الزمن، أنتج أجمل أشعاره في الأسر، ويظهر أثر البيئة الرُّوميّة واضحاً في شعره[1]، وأكثر الشعراء من مدح سيف الدولة، كأبي فراس الحمداني والمتنبي والسّري الرّفاء، وغيرهم، وفي عام (357هـ)، دخل الرُّوم بلادِ الشام.

وقد واكب الشعر العربي الحروب مع الرُّوم منذ العصر الإسلامي والأموي، وخلال العصر العباسي، وظهر أثر ذلك من خلال الشعر المدحي الذي قيل في مدح الخلفاء والقادة والولاة، من مثل مروان بن أبي حفصة في مدح الرشيد، وأشجع السلمي، وأبي تمام والمتنبي وأبي فراس الحمداني وغيرهم، وظهرت بعض صور الرُّوم ومشاهد وفادات رسل الرُّوم إلى العرب وتصوير هزائم الرُّوم، وسقوط بعض المدن الرُّومية، كما وصف جيش الرُّوم وقادته وفداء الأسرى وهي من المشاهد التي عرض لها الشعراء في قصائدهم.

---

(1) عبد المهدي، عبد الجليل حسن، أبو فراس الحمداني حياته وشعره، مكتبة الأقصى، عمان، (ط1)، 1981م، ص 272.

وصف جيش الرُّوم:

تطرَّق شعر الصراع مع الرُّوم إلى وصف الجيش العربي، ولجأ إلى تضخيم صورة جيش الرُّوم عدداً وعُدَّة، وكثيراً ما كان الشعراء يصفونه بكثرة العدد، وأنّه يملأ الأرض ضجيجاً، فيه من كل الأعراق والأجناس الأجنبية، فهو يقوم على المرتزقة، تعددت أجناسه ولغاته، بحيث إن وسيلة التفاهم والتخاطب بين هذا الجيش تحتاج إلى وجود التراجم والمترجمين، كناية عن تعدد الألسنة والأعراق في جيش الرُّوم وعن كثرتهم.

ويصف المتنبي جيش الرُّوم بكثرة السلاح والعتاد، فلا تبدو إلا قوائم خيولهم لكثرة ما حملوا من الأسلحة والعتاد، يقول[1]:

أتَـوْكَ يَجُـرُّونَ الحَديـدَ كـأنَّهُم ... سَـرَوْا بِجِـيادٍ مـا لَهُـنَّ قـوَائِمُ
إذا بَـرَقُوا لَـمْ تُعْـرَف البِيضُ مِنهُمُ ... ثِـيَابُهمُ مِـنْ مِـثْلِهَا والعَمَـائِمُ
خَميسٌ بشرْقِ الأرضِ وَالغَرْبِ زَحْفُهُ ... وفي أُذُنِ الجَـوزَاءِ مِـنْهُ زَمَـازِمُ
تَجمَّـعَ فِـيه كُـلُّ لِـسْنٍ وأُمَّـةٍ ... فمـا تُفْهِـمُ الحـدَّاثِ إلاَّ التَّـراجِمُ

ومن الصفات السلبية التي وصف الشعراء بها بطارقة الرُّوم بشكل خاص، وجيش الرُّوم عامّة، الخوف والجبن عند اللقاء، وما يعتريهم من ذلة وخوف، فهم مجُبولون على التضرَّع والذل والمهانة، والمجبول لا بد أن يرتد إلى ما جُبل عليه، فابن هانئ ينفي الشجاعة وقوة البأس عن بطارقة الرُّوم في الحروب، وإلى هذا المعنى أشار في قوله[2]:

---

(1) شرح ديوان المتنبي، ج4/ 99- 100.
السرى: السير في الليل. الجياد: مفرد جواد وهي الخيل. البيض: سيوف.
الخميس:الجيش العظيم، الذي يتكون من خمس إجزاء. اللسن: اللغة.

(2) ابن هانيء الأندلسي، محمد بن هانيء الأندلسي (ت 362هـ)، **ديوان محمد بن هانيء الأندلسي**، تحقيق: محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، (ط1)، 1995م، ص 292.

هَـلْ كانَ يُعرَفُ للبطارِقِ قَبْلَ ذا بـأسٌ ورأيٌ في الجِـلادِ أصـيلُ؟
أنّى لهم همٌّ ومِن عَجَبٍ ومَتى غدت اللّقاحُ الخُورُ وهي فُحولُ
أهـلُ الفِرار فليتَ شعري عنُهم هـل حدّثـوا أن الطِّـباعَ تحـولُ
الأكثــرينَ تخمطــاً وتكبّــراً مــا لم تُهــزُّ أسِــنَّةٌ ونُــصُولُ
حتى إذا ارتعصَ القنا وتلمَّظت حـربٌ شـروبٌ للـنفوس أكولُ
رَجَعُـوا فأبـدوا ذِلَّـةً وضَـراعةً وإلى الجِـبِلةِ يَـرْجِعُ المجـبولُ[1]

وقد وردت في شعر الصراع بعض الألقاب والتسميات المتعلقة بقادة جيش الرُّوم، كالدمستق الذي يعني: قائد الحرس في جيش الرُّوم، ومن ثمّة أصبح ينوب عنه البطريق، بعد أن أصبح أباطرة الرُّوم من غير أهل البلاد، ثم غدا الدمستق يُمثِّل أهم وظيفة عسكرية في الدولة الرُّومانية.

ويُطلـق لفظ (البطارقة أو البطريق) على حاكم الثغور، وهو قائد الجنود في الـثغور والمتـصرِّف بـشؤونها إدارياً واقتـصادياً.ومـن الألفاظ الأخـرى المـتعلِّقة بجيش الـرُّوم الـتي وردت في الـشعر لفـظ (الزروار)، ويطلق على حاكم الولايات الحصينة الواقعة على الحدود، وهذه الألقاب تقارب الرتب العسكرية في وقتنا الحاضر[2].

والدمـستق هـو قائـد الأجناد جميعها، وقائد الجند الواحد يُدعى (البطريق)، بينما قائد الموقع يطلق عليه (الزروار). واقترن لفظ (الزروار)

---

(1) **ارتعص**: اضطراب وتحرك **المتخمط**: الذي غضب وثار.

(2) ينظر: نصرت، عبد الرحمن، شعر الصراع مع الرُّوم، ص 224.

وينظـر: رنـسيمان، سـتيفن، الحضارة البيزنطية، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصرية للكتاب، 1997م، ص 592. وينظر: ص162- 164.

مع البطاريق في الشعر، وجمع أبو فراس الحمداني هذه التسميات في قوله[1]:

وابنُ "بقسطنطين" وهو مُكبّلٌ ... تحفُّ بطاريقٌ بِهِ وَزَرَاوِرُ
وولىّ على الرسمِ "الدمستق" هَارِباً ... وفي وجِهِهِ عُذْرٌ من السَّيفِ عَاذِرُ
فَدى نَفْسَهُ بابنٍ كَنَفْسِهِ ... وللشِّدَّةِ الصَّمَّاءِ تُقنى الذّخائِرُ

ويقول أيضاً[2]:

وغدا البَطارِقُ والزَّراوِر حُسَّراً ... في أسرِ ميمُونِ النقيبةِ خِضْرِمِ

وأما هزائم الرُّوم فقد صوَّر الشعر العربي الهزائم المتلاحقة التي حلَّت بجيش الرُّوم ووصف ما أصاب الرُّوم من القتل والجراح، كما وصف الشعر مشاهد المعارك، وصوّر الرُّوم وهم يفرّون من ساحات الوغى، وقد امتلأت قلوبهم رعباً وهلعاً، مخلّفين قتلاهم وجرحاهم، وقد تناثرت دماؤهم على الأشجار المحيطة فغطتها، حتى بدت تلك الأشجار سوداء اللون لكثرة ما انتشر عليها من الدماء والأشلاء، وهي صورة دموية يصف فيها الشاعر المعركة يقول[3].

وقد سَوَّدتْ شَجَرَ الجبالِ شعورُهم ... فكأنَّ فيه مُسِفَّةَ الغربان
وجرى على الوَرَقِ النجيع القاني ... فكأنّه النارنجُ في الإغصان

(1) ديوان أبي فراس الحمداني، ج2/ 118، وينظر: ج2/ 378.
(2) المصدر السابق، ج2/ 378.
(3) المصدر نفسه، ج4/ 316.

وفي العـام (341هــ) هـزم سيف الدولة الدمستق وجيش الرُّوم في مـرعش، وتغنّـى المتنبي بانتصار سيف الدولة على الرُّوم، وصوَّر هزيمة الدمـستق، وقـد ولّـى هاربـاً ونجـا بنفسه، بعد أن خلّف أصحابه وأمواله وراءه يقول[1]:

سَـرَايَاكَ تَتْرَى والدُّمُسْتُقُ هَارِبٌ ... وَأَصـحَابُهُ قَتْلَـى وَأَمْـوَالُهُ نُهبَى

أَتَى مَرْعَشاً يَسْتَقْرِبُ البُعدُ مُقبِلاً ... وأدبَـرَ إذ أقـبلتَ يـستبعِدُ القُرْبَا

كَذَا يَتْرُكُ الأَعْدَاءَ مَنْ يَكْرَهُ القَنَا ... وَيَقفُـلُ مَـنْ كانـت غنيمتُهُ رُعبَا

وَلكـنَّهُ ولَّــى ولِلطَّعــنِ سَــوْرَةٌ ... إذا ذكَـرَتْها نَفْـسُهُ لَمَـسَ الجنْـبا

وصوَّر ابن نباتة الشاعر هرب (نقفور) وهزيمته يوم الحدث، وقد نجـا مـن المـوت المحقـق، فولّى هارباً بعد أن نالت منه سهام سيف الدولة ورماحـه، وتركت هذه السهام والرماح أثراً بارزاً وخروقاً في جسده، فبدا متعـباً ومـنهكاً كالحطّـاب الـذي يـنوء بحمـل حطـبه، وقـد أصابه الأرق والتعب وأبعده عن النوم لما أصابه من الجهد والمشقة[2]:

وأفلــتَ نقفــورٌ يُــرقِّع جِلــدَهُ ... وفــيه لآثــارِ الــسِّلاح خُــروقُ

يَجُـرُّ العوالي والسِّهام بِجِسمِهِ ... كمحـتطبٍ للحمـل ليس يُطيقُ

---

(1) شـرح ديـوان المتـنبي، ج1، ص 188، وينظر في ذكر أسر قسطنطين وإصابة الدمستق بالجراح، ج3/ 327، وتصوير هزيمة الدمستق في الحدث الحمراء، ج4/ 105.

(2) ابـن نـباتة الـسعدي،أبو نـصر عـبد العزيز بن عمر السعدي، ديوان ابن نباتة السعدي، دراسة وتحقيق: عبد الأمير مهدي ،منشورات وزارة الإعلام،العراق، 1977، ج1/ 197.

وكـذلك صـوَّر المتـنبي هـرب الدمـستق مـن أرض المعركة، فقد أصـابه الهـول والذهـول والفزع، وبدا شاحب الوجه، وظلّت حالة الفزع تلاحقـه حتـى بعد أن بلغ مأمنه، حتى أصبح كالمخبول، فلجأ إلى الإكثار مـن شـرب الخمرة لعلّها تنسيه وتزيل عنه حالة الهلع والخوف، ولكنها لم تقـوَ علـى التخفـيف مـن حالـة الفزع الذي أُصيب به، وهي صورة تمثل شدة الهول الذي رافق الدمستق عند هربه[1]:

أجَـلٌ مِـنْ وَلَـدِ الفُقّـاسِ مُنْكِـتفٌ ... إذا فـاتهنّ وامـضى مـنه منـصرِعُ
ومـا نجـا مـن شـفار البيض مـنفلتٌ ... نجـا وَمِـنهُنَّ في أحـشائِهِ فَـزَعُ
يُباشِـرُ الأَمْـنَ دَهْـراً وَهْـوَ مُخْتَـبَلٌ ... وَيَـشْربُ الخمـرَ حَوْلاً وَهْوَ مُمْتَقِعُ[2]

كمـا ذكـر المتـنبي، أيـضاً، هزيمة ابن شمشقمق، أحد قادة الرُّوم، وتهكـم بـه وسـخر منه، ومن هزيمته النكراء، ويصوّر هرّبه، وقد تقطّعت أنفاسه من شدة هلعه وجريه هرباً عن أرض المعركة، يقول[3]:

آلى الفَتَـى ابـنُ شُمُـشقيقٍ فأحنَـثَهُ ... فتىً من الضَّرْبِ تُنسى عِندَهُ الكَلِمُ
أينَ البطاريقُ والحلفُ الذي حَلَفُوا ... بِمَفْرَقِ الملكِ والزَّعمُ الذي زَعَمُوا
وَلّـى صَـوارِمَهُ إكـذابَ قـولِهِمِ ... فَهُـنَّ ألـسنَةٌ أفـوَاهُها القِمَـمُ
وَأسْـلَمَ ابـنُ شَمَـشقَيقٍ ألِيّـتَهُ ... ألاّ انْثَنـى فَهْوَ ينأى وَهْيَ تَبتسِمُ

---

(1) شرح ديوان المتنبي، ج2/ 337.

(2) الفقـاسّ: هو جد الدمستق، وقيل هو: (الدمستق بردس بن الفقاس) المختبل: المضطرب الذي أصابه الذهول. الممتقع: متغير اللون.

(3) المصدر نفسه، ج4/ 130- 140.

وإلى قـريب مـن ذلـك، عـرض السّري الرَّفَّاء إلى تلك الهزيمة في معرض مدح سيف الدولة، يقول[1]:

ولّـى الـشميقُ لا يهفو به طَرَبٌ إلى المحـلِّ ولا يدنـو بـه سـببُ

يتـضَّح مما سبق، أن صورة جيش الرُّوم لا تظهر بصورة واضحة في شـعر الحـرب مع الرُّوم في العصر العباسي، ومعظم ما وصل من شعر في وصـف جـيش الـرُّوم يقتـصر على ذكر هزائم الرُّوم، مع التُّركيز على ذكـر قائـد الجيش الرُّومـي، وقد أصابه الهلع والخوف الشديد عند اللقاء فولّـى هاربـاً، ومعظـم هـذه الأوصاف وردت أثناء مدح سيف الدولة أو أحـد القـادة العرب، ولذلك عرض الشعراء لصورة جيش الروم، وصور هزائم قادة الروم وجيوشهم، وكثرة القتلى والجرحى بين صفوفه، وأطال الـشعراء في مـدح القـادة العـرب وجيوشهم، وبلاء الفرسان في الحروب والمعـارك، وأضـفوا علـيهم كل صفات البطولة والشجاعة والنصر، بينما ركّـز الشعر العربي على هزائم جيش الرُّوم ونعتهم بالذل والجبن الشديد ولجـأ الشعراء العرب إلى وصف قادة العرب في صراع الرُّوم بالأسود، في مقابـل وصـف الرُّوم وقادتهم بالكلاب مما أنتج ثنائية الأسد/ الكلب في شـعر الـصراع مع الرُّوم، وكان ظهور هذه الثنائية منذ العصر الإسلامي، فقـد وردت أبـيات شـعرية تنـسب لضرار بن الأزور، يذكر ثنائية: الأسد والكلب للمقابلة بين العرب والرُّوم يقول[2]:

---

(1) الـسّري الـرَّفاء: الـسّري بـن احمـد الكـندي (ت 362هــ)، **ديوانه**، تحقيق: أكرم البستاني، دار صادر، بيروت، (ط1)، 1996م، ص 35.

(2) ديوان بني أسد، ج2/ 396، نقلاً عن: المزروعي، فاطمة، صورة الآخر، ص 144.

سَـأُفني كِـلابَ الـرُّوم في كـلِّ مَعْـركٍ وَذلـــكَ والـــرحمنِ أكـــبرُ همَّـــتي
فـيا ويل كلب الرُّوم أنْ ظفرتْ يَدي بــه سّــوفَ أصْـليه الحُـسامَ بـنقمتي

كمـا لجـأ الـبحتري إلى هـذه الثنائـية في مدح الممدوح أثناء حربه للروم، متخذاً الأصوات للدلالة على هذه الثنائية، إذ يقول[1]:

إذا مـضى مُجْلِباً يقعقعُ في الدَّرْ ـــبِ زئيراً أنسى الكِلابَ العُواءَ

لقـد صـوّر الـشعر العربـي طبيعة العلاقة مع الرُّوم بالصراع بين الأسـد والكلـب، فهـي تقوم على القتال والصراع الدائم، ولعلهم أرادوا مـن الأسـد الـشجاعة واليقظة والقوة والحذر، وفي وصف الرُّوم بالكلب دلالة إلى اللؤم والنجاسة[2].

وفي أثناء تصوير هزائم الرُّوم عرض الشعر العربي إلى السبايا من الرُّوميَّات، وقد عاد بها العرب على ظهور الإبل، يقول السّري الرَّفّاء[3]:

ثـم أثنـيتَ وآسـاد الشرى جَزَرٌ بالمُـرهفاتِ وغـزلان النقا سَلَبُ
سبيٌ تحصَّن منه الجيشُ وارتبطتْ قُـبُّ الجـياد فلا ماشٍ ولا عَزَبُ

(1) ديوان البحتري، ج1/ 17.
(2) المزروعـي، فاطمـة، صـورة الآخـر في الأدب الجاهلي، رسالة دكتوراه، جامعة اليرموك، أربد، 2005م، ص 145.
(3) ديوان السّري الرَّفاء، ص 35.
وينظر: ص 376.

غـدا يـنازل ليـثاً أو يقارعُـه وراحَ يحـوي غـزالاً أو يغازلــه

وقد يعّير بعضهم الرُّوم بكثرة السبايا منهم من النساء والأطفال، أو من بنات ملوك الرُّوم، كما قال أبو فراس[1]:

ومُستردفاتٍ من نساءٍ وصبيةٍ ... تثنّى على أكتافهنَّ الضفائِرُ
بُنيّات أملاكٍ أتينَ فُجاءَةً ... قُهرنَ وفي أعناقهنَّ الجواهِرُ

فِداء الأسرى:

كان الصراع مع الرُّوم مستمراً طوال العصر العباسي، بين مَدٍّ وجزر، وسجل الشعراء انتصارات العرب وشجاعتهم، كما عرضوا لوصف هزائم الرُّوم، من خلال قصائدهم المدحية، وإذا كان الشعر قد واكب حروب العرب مع الرُّوم، وسجل بطولات القادة العرب، كما وصف جيوش العرب والرُّوم، فقد تطرَّق بعض الشعراء إلى ذكر خبر فداء أسرى تلك الحروب، وكان من الطبيعي أن يقع الأسر والسبي بين الطرفين نتيجة الحروب المستمرة فقد وردت بعض الأخبار تؤكد أمر فِداء الأسرى، وجاء وصف مشاهد فِداء الأسرى عرضاً من دون الدخول في تفصيل أمر هذا الفِداء.

ومن أوائل الأخبار التي تؤرخ لأمر الفِداء بين العرب والرُّوم، ما أورده الطبري[2] من خبر الفداء بين المسلمين والرُّوم، في شعبان من السنة (231هـ)، وقد ذكر أعداد أسرى الرُّوم وأسرى العرب، وفصَّل في طريقة تبادل الأسرى التي كانت تتم بين الطرفين.

---

(1) ديوان أبي فراس الحمداني، ج2/ 114.

(2) ينظر: الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج8/ 141- 145.

وينظر في تفصيل هذا الفداء: فازيليف، العرب والرُّوم، ترجمة: محمد عبد الهادي شعيرة وفؤاد حسين، طبعة دار الفكر العربي، 1980م، ص 175- 183. وينظر ايضاً: ص 196.

وعـرض الـبحتري لحادثة فداء الأسرى في عهد الخليفة العباسي المعتـز سـنة (253هـ)، فقـال الـشاعر قصيدةً في مدح المعتز، ويذكر أمر الفِـداء، ومـا بذلـه الخلـيفة من أموال لافتداء أسرى العرب والمسلمين في الرُّوم، وقال البحتري في ذلك[1]:

لـئن تمّ الفِـداءُ كمـا رَجْـونا ... بيمـنِكَ بعـدُ مُكـثٍ وانـتظارِ
فمـن أزكـى خِلالِـكَ أن تُفَادِي ... أسَـارَى المـسلمينَ مـن الإسَـارِ
بَـذَلْتَ المـالَ فـيهم كـي يَعُودُوا ... إلى الأهلـينَ مِـنهم والـدِّيار

وكان تبادل أسرى الحرب بين العرب والرُّوم معروفاً، وكان أول فِـداء للأسـرى العـرب من الرُّوم في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد سـنة (189هـ)[2]، فلـم يبق بأرض الرُّوم أسيرٌ إلا وقد فودي به، ومدح الشعراء الرشيد، وذكر مروان بن أبي حفصة ذلك في شعره[3]:

وفكّت بك الأسرى التي شيّدت لها ... محـابسُ مـا فـيها حَمـيمٌ تـزورُها
علـى حـين أعـيا المسلمين فكاكها ... وقالـوا سـجون المـشركين قبورُها

ومن ذلك أيضاً أن قسطنطين ابن الدمستق قد وقع في أسر سيف الدولـة سـنة (142هـ) وظـلّ أسـيراً، حتـى مات في أسره، وقال النامي الشاعر في ذلك[4]:

وقـد سار في الرُّوم الدمستق باغياً ... لـهُ سـاعةٌ نكـراءُ في نـوبٍ نُكّـدِ

(1) ديوان البحتري، ج2/ 938.
(2) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج8/ 318، وينظر: ج10/ 46.
(3) شعر مروان بن أبي حفصة، ص 61.
(4) ينظر: نصرت عبد الرحمن، شعر الصراع، 371.

وأسلمَ قسطنطين للأسِرْ بَرْدسٌ   وولّى وقد خدته فوهاء في الخدّ

وفي عهد سيف الدولة حدث فداءان: الأول كان في العام (335هـ) عند نهر اللامس، والثاني كان في سنة (355هـ) عند نهر كركر، وإلى فداء كركر، أشار ابن نباتة في قوله[1]:

بكركرَ من جبال الرُّوم شُمٌّ   تراها للنجوم مُصافحاتِ
وهبنا لا نخاف الرُّوم فيها   فكيف بسدّها كلّ الجهاتِ

ومدح الببغاء الشاعر سيف الدولة لافتدائه أسرى العرب، يقول[2]:

ما المالُ إلا ما أفادَ ثناءَ   ما العِّزُ إلا ما ثنى الأعداءَ
وفديتَ من أسرِ العدوّ معاشِراً   لولاكَ ما عرفوا الزّمان فِداءَ
كانوا عبيد نداك ثم شريَتَهُم   فغدوا عبيدك نعمةً وشِراءَ
والأسرُ إحدى الميتتين وطالما   خَلَدوا به فأعدتهم أحياء

وكان بعض أسرى العرب لدى الرُّوم يلقى الإهانة والتعذيب، وربما كانوا يُكرهون على اعتناق النصرانية[3]. أما أسرى الرُّوم فكانوا

(1) ديوان ابن نباته، ج1/ 95، وينظر: ج1/ 257.
كركر: حصن قرب ملطية ياقوت، معجم البلدان، ج4/ 452.

(2) الببغاء، عبد الواحد بن نصر المخزومي، شعر الببغاء، دراسة وتحقيق: سعود محمود عبد الجابر، مؤسسة الشرق للطباعة والنشر، قطر، (ط1)، 1983م، ص 37- 38.

(3) ينظر: الصولي، (ت 335هـ)، اخبار الشعراء المسمّى: كتاب الأوراق، جمع وتحقيق: ج هيوارث ون، مكتبة التعاون، بيروت، د.ت، ص 42.
قصيدة إبان اللاحقي لسوار بن عبد الله قاضي البصرة، وأولها:

نفّر نومي الخبر الساري   إذا صرخ النعيُّ بسوّار

يلاقون المعاملة الحسنة، ويصوِّر ابن نباته أسرى الرُّوم وقد قدمت لهم الثياب والمال والمعاملة الطيّبة، وبالغ الشاعر في وصف إكرام سيف الدولة لأسرى الرُّوم من البطارقة، يقول[1]:

ما بالبطارقِ شيءٌ غيرُ أسرِهُمُ ... بالقولِ دون ترامي الحربِ بالشُّعلِ
كانت سحائبُكَ فيهم كلُّ بارقةٍ ... حمراءَ تهطلُ بالأيدي وبالقللِ
فاليومَ سُحبُكَ فيهم كلُّ بارقةٍ ... غرّاء تهطلُ بالأموالِ والحُللِ
حتى تمنى مليك الرُّوم حظّهُمُ ... وأنّهُ معهم في الأسر لم يَزلِ
وقال ياليتني من بعضهم بَدَلٌ ... فهل تراك قوي العزمِ في البَدَلِ

شعر الوفود:

يقصد بشعر الوفود: الشعر الذي قيل في وصف وفود الرُّوم على خليفة المسلمين، حيث كان الرُّوم يرسلون الوفود بين الحين والآخر، وصّور الشعراء قدوم تلك الوفود بين يدي الخليفة.

كانت الوفادات تتم بين العرب والرُّوم، وترسل الوفود إما لعقد الاتفاقيات والمهادنات بعد وقف الحرب، أو أن يأتي الوفد لأمر تبادل الأسرى في أوقات السلم، كما قد تذهب الوفود للتهنئة بخليفة جديد أو ملك اعتلى عرشه، وما إلى ذلك من أمور تستدعي إرسال الوفود، وكانت هذه الوفود تنقل ما تشاهده وتلامسه من مشاهد، وطقوس، واستقبال عند الطرف الآخر، ولذلك كان استقبال هذه الوفود يتم بتقاليد وأعراف خاصة، لا تخلو من استعراض للقوّة ومظاهر الإكرام والضيافة

---

[1] ديوان البحتري، ج3/ 1597- 1598.

هٰذه الوفود[1].

ومن وفادات الرُّوم إلى العرب، وفد الرُّوم إلى الخليفة العباسي المتوكِّل، فأكرمهم وأحسن استقبالهم، وعندما وصل وفد الرُّوم وأُدخل إلى الخليفة، رأوا مظاهر السلطان والقداسة، فأذهلهم ما رأت أعينهم، حتى تمنَّوا لو أنهم استطاعوا التعبير عمّا في نفوسهم لنطقوا بالتكبير والتهليل لما شاهدوه من عظمة ومهابة، واستصغروا أباطرتهم أمام عظمة سلطان الخليفة، وعندما قُدِّمت لهم أمور الضيافة والأطعمة، ازدادوا ذهولاً لما يشاهدون من تعدد الأصناف، حتى غدوا لشدة ذهولهم يتأملون ما يشاهدون، ومنهم من أصابه العجب، فانحرفت أيديهم عن أفواههم لذلك، كما صوّر ذلك البحتري[2]:

ورأيتُ وَفْدَ الرُّوم بَعدَ عِنَادِهِمْ … عَرَفُوا فَضَائلَكَ التي لا تُجهلُ
نَظَرُوا إليك فَقَدَّسُوا ولو أنَّهم … نَطَقُوا الفصيحَ لَكَبَّروا وهَلَّلوا
لَحَظُوكَ أوّل لحظةٍ فاستصْغروا … مَنْ كان يُعْظَمُ فيهم ويُبَجَّلُ
حَضَرو [illegible] ماطَ فكلّما رامُوا القِرَى … مالت بأيديهم عقُولٌ ذُهَّلُ
تهوى أكفُّهُمُ إلى أفَواهِهِمْ … فَتَجُورُ عن قَصدِ السَّبيلِ وتَعدِلُ
مُتحيِّرون فباهِتٌ مُتعجِّبٌ … مِمَّا يرى أو ناظرٌ مُتأمِّلُ
ويودُّ قومهم الأُولى بعثوا بهم … لو ضمَّهم بالأمسِ ذاك المحفلُ
قَدْ نافسَ الغيبُ الحضورَ على الذي … شَهِدُوا وقد حَسَدَ الرَّسول المرسِلُ

---

(1) ينظر: فازيليف، العرب والرُّوم، ص 357- 60.

(2) ديوان البحتري، ج3/ 1599- 1602.

وفي العام (305هـ)[1] قَدِمَ وفدٌ من الرُّوم إلى الخليفة العباسي المقتدر، يطلب الفِداء والهِدنة، فصفّ الغلمان والحجّاب في استقبالهم، وجاء وصف الخليفة وقد تهيأ لاستقبال هذه الوفادة، فلما دخلوا إلى المقتدر "وكان جلوسه في التاج، وقد لبس أنواع الديباج المطَّرز بالذهب، وهو على سرير مطرّز بالدبيقي وعليه السواد، وعلى رأسه الطويلة، وعن يمنة السّرير تسعة عقود معلّقة مثل السبح، وعن يُسرته تسعة عقود من أكبر الجواهر ...، فلما دخلوا قبَّلوا الأرض وسلَّموا بحيث استوقفهم نصر الحاجب، وأمر المقتدر بفتح القبة وإصلاح الشجرة التي تخرج من الأرض، وفيها أنواع الحركات التي تملأ الفوارات التي تفور بماء الورد والمسك ..."[2].

وعلى الرغم من المبالغة الشديدة في الوصف، من حيث كثرة عدد الوفد، ومن حيث مظاهر الملك الذي فيه المقتدر، فالذي يمكن أن يستخلص مما جاء فيه هو اهتمام الخلفاء وحرصهم على إظهار العظمة، والسلطان، والمهابة أمام هذه الوفود، والتأنق في إظهار أجمل المظاهر والقداسة.

ومن صور وفود الرُّوم أيضاً، وفد إمبراطور الرُّوم، وقد قَدِم إلى سيف الدولة، وهو يسيرُ بين سماطين من الجند، ويصف المتنبي زيارة رسول إمبراطور الرُّوم وقد تقدَّم إلى الأمير وهو يقبّل الأرض بين قدميه، وكان قد قَبَّل يد الأمير وكمُه قبل ذلك، ثم يسلم الرسالة التي يحملها، والظاهر أن بعض الزيارات بين ممثلي الرُّوم والعرب تشبه زيارات

---

(1) ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد (ت 630هـ)، **الكامل في التاريخ**، طبعة دار الفكر، بيروت، ج6/ 158.

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج6/ 156- 158.

الأمراء والملوك هذه الأيام، من حيث مظاهر الاستقبال والحفاوة والتكريم.

وقد صوّر المتنبي هذه الوفادة قائلاً[1]:

أتاكَ يَكادُ الرَّأسُ يَجْحَدُ عُنقَهُ وتنقدُّ تحت الذُّعرِ مِنْهُ المَفَاصِلُ
يُقومُ تقويمُ السِّماطَيْنِ مَشْيَهُ إليكَ إذا ما عَوَّجَتْهُ الأفاكِلُ
وَقَبَّلَ كُمَّاً قبَّلَ التُّربَ قَبْلَهُ وَكلُّ كَمِيٍّ واقفٌ مُتَضائِلُ
وأسْعَد مُشْتاقٍ وأظْفَرُ طَالِبٍ هُمَامٌ إلى تَقْبيل كُمِّكَ واصِلُ
مكانٌ تمنَّاهُ الشّفاهُ ودُونَهُ صُدُورُ المَذاكي والرِّماحُ الذَّوابِلُ

شعر الخصومات والمناظرات السياسية بين الرُّوم والعرب:

يُقصد بشعر الخصومات تلك الرسائل الشعرية التي تبادلها العرب مع الرُّوم، والتي شكّلت خصومات سياسية، تبادل فيها الطرفان التهديد والوعيد، ومن تلك الخصومات الشعرية، القصيدة التي قبلت على لسان نقفور (ملك الرُّوم)، كان أرسلها إلى المطيع بالله الخليفة العباسي (ت 352هـ)، وهي قصيدة طويلة نُسبت إلى نقفور، ويُطلق عليها القصيدة النقفورية، وفيها هجاء للعرب والمسلمين، وتهديد للدولة الإسلامية بالحرب واحتلال المدن العربية، ويبرز الفخر بجيش الرُّوم وقوّته، وما استولى عليه من مناطق ومدن عربية كثيرة، كأرمينية وطرسوس وكركر وغيرها، كما تحمل القصيدة تهديداً بالقضاء على دولة

---

[1] شرح ديوان المتنبي، ج3/ 233- 234.

يجحد: ينكر **تنقد**: تنقطع **السماطين**: الصفان من الجند **المتضائل**: المتصاغر الذليل
المذاكي: الخيل. **الذوابل**: الرماح الطويلة.

الإسلام والانتصار لدين المسيح قال ابن كثير[1]: "أرسل نقفور ملك الرُّوم إلى الخليفة العباسي المطيع قصيدة يفخر فيها، ويتعرّض لسبِّ الإسلام والمسلمين، ويتوّعد فيها أهل حوزة الإسلام بأنّهُ سيحتلها كلّها، وينتصر لدين المسيح"، ثم أورد القصيدة، وهي قصيدة طويلة، يقول فيها[2]:

من الملكِ الطُّهر المسيحيُّ مالُكٌ   إلى خَلَفِ الأخلافِ من آل هاشمِ
إلى الملك الفضلِ المطيعِ أخي العُلا   ومن يُرتَجى للمعضلات العظائِمِ
أما سَمِعَتْ أذناك ما أنا صانعٌ   ولكن دَهاكَ الوْهنُ عن فِعل حازم
فإن تَكُ عمّا تقلّدت نائماً   فإني عما همّني غيرُ نائمِ

...

ثغورُكم لم يبقَ فيها لوهنِها   وضعفُكُم إلاّ رُسومُ المعالِم
فتحنا الثغورَ الأرمنيّة كُلّها   بفتيانِ صدقٍ كالليوثِ الضراغم

ويعدد ناظم القصيدة المدن والأماكن التي دخلها الرُّوم، ووصف ما أصابها وأصاب أهلها من قتل ودمار، وفيها تهديد ما بقي من بلاد الإسلام والدولة الإسلامية، وأنه (ملك الرُّوم) سيفتح ما تبقّى من بلاد عربية وإسلامية، وينشر دين الصليب بالقوة والعنف[3]:

---

(1) ابن كثير، أبو الفداء الحافظ بن كثير (ت 774هـ)، البداية والنهاية، تحقيق: احمد عبد الوهاب فتيح، دار الحديث، القاهرة، (ط1)، 1994م، ج11/ 160 والقصيدة: ج 11/ 160- 163.
نقفور: ملك الرُّوم واسمه الدمستق، كان من أغاظ الملوك قلباً، وأشدهم كفراً، وأقواهم بأساً، استولى على كثير من سواحل بلاد المسلمين قسراً، وكان لا يدخل بلداً إلا ويقتل الرجال ويسبي النساء والأطفال، توفي 356هـ.

(2) المنجد، صلاح الدين: قصيدة إمبراطور الرُّوم في هجاء الإسلام والمسلمين، دار الكتاب الحديث، بيروت، (ط1)، 1982م، ص 11.

(3) المنجد، صلاح الدين: ص 15- 22.

فكم ذات خدرٍ حُرَّةٍ علويّةٍ — منعَّمة الأطراف ريّا المعاصمِ
سبينا فُسقنا خاضعاتٍ حواسراً — بغير مُهورٍ، ولا حُكم حاكمِ

...

سأفتح أرض الله شرقاً ومَغرباً — وأنشُرُ ديناً للصليب بصارمي
فعيسى علا فوق السموات عَرْشُهُ — يفوزُ الذي والاه يوم التخاصمِ

وتدور القصيدة حول ثلاثة أفكار: ذكر المناطق والمدن التي احتلها الرُّوم، تهديد المسلمين والعرب باحتلال ما تبقى من بلادهم، والأمر الآخر، التعريض بالدين الإسلامي والرسول ﷺ والمفاضلة بين الديانات.

ومهما يكن من مدى صحَّة نسبة القصيدة أو وضعها وعدم صحتها، فهي تمثِّل حالة فريدة، وخصومة دبلوماسية لا سابق لها، فلم يرد أن أرسل أحد ملوك العجم قصيدة شعرية بلغة العرب يهدد فيها الدولة العربية والدين الإسلامي، وتمثّل حالة نادرة من الخصومات العربية مع الآخر الرُّومي.

وقد أثارت هذه القصيدة حفيظة بعض الشعراء العرب، فردُّوا عليها بقصائد مشابهة لها في مضمونها، ومن أولئك الشعراء: القفّال الشاشي وابن حزم الأندلسي.

وفي قصيدة القفّال يرد مزاعم نقفور، وينفي عنه صفة الطُّهر التي وصف بها نفسه، ويصفه بالإلحاد والكفر والغدر، يقول[1]:

أتاني مَقالٌ لأمرئٍ غير عالم — بطرق مجاري القولِ عند التخاصم
تسمّى بِطُهرٍ وهو الجسُ مُشركٍ — مُدنّسةٌ أثوابُهُ بالمداسم

(1) المنجد، صلاح الدين، ص 28.

وقال مسيحيٌّ وليس كذاكُمُ أخو قسوةٍ لا يحتذي فعل راحمِ

وتكثر المعاني الدينية في القصيدة، ويقابل بين ديانة الإسلام ودين المسيح، فالديانة النصرانية الصحيحة لا تدعو إلى الظلم والقسوة والغدر، تلك الصفات التي اتصف بها نقفور، ومن ثمة يرتد الشاعر إلى الماضي ليذكّر نقفور بأن المسلمين ظلّوا ينتصرون على الرُّوم طيلة ثلاثة قرون مضت، يقول[1]:

مئينَ ثلاثاً عن سنين تتابعتْ ندوسُ الُذرى من هامِكُم بالمناسمِ
ولم تُفتَحِ الأقطارُ شرقاً ومغرباً فتوحاً تنامَتْ في جميع الأقاليمِ
أتذكرُ هذا أم فؤادكُ هائمٌ فليسَ بناسٍ كُلٌّ ذا غيرُ هائم

ويعرض إلى تلك البلاد التي دانت للإسلام ودخلت فيه من هندٍ، وسند، وبلاد المشرق، وهؤلاء سيكونون مع العرب المسلمين في قتال الرُّوم جهاداً في سبيل الله، وإذا كان بعض العرب قد أصابهم الخوف والهلع من الرُّوم، وارتدَّ بعضهم فإن المسلمين يزدادون قوة وعدداً بدخول الهند والسند والصين في الإسلام[2]:

لِئَنْ كان بعضُ العربِ طارتْ قلوبُهم أو ارتدَّ منهم حَشوةٌ كالبهائمِ
لقد أسْلَمت بالشرق هندٌ وسندها وصينٌ وأتراكَ الرجال الأعاجمِ

وأمَّا قصيدة ابن حزم* في الرد ومناقضة القصيدة النقفورية، فهي طويلة جداً، يقول في مطلعها[3]:

---

(1) المصدر نفسه، ص 29.
(2) المنجد، صلاح الدين، ص 32- 33.
* ابن حزم: هو أبو محمد بن حزم الأندلسي (ت 456هـ).
(3) صلاح الدين المنجد، ص 41.

من المُحتمي بالله ربِّ العوالم ودينِ رسولِ الله من آل هاشمِ
مُحمّدٍ الهادي إلى الله بالتُّقى وبالرُشدِ والإسلام أفضل قائم

...

إلى قائلٍ بالإفكِ جَهْلاً وضِلّةً عن النقفورِ المفتري في الأعاجمِ
دعوتَ إماماً ليس من أمر آله بكفّيه إلا كالرُّسومِ الطواسمِ
دهته الدواهي في خلافتهِ كما دَهَتْ قبله الأملاك دُهْمُ الدواهم

فالشاعر يبدأ قصيدته بالدفاع عن الخليفة العباسي، وما آل إليه من الضعف، فالأمر ليس بيده، وأن الفتن والمصائب التي حدثت في عهده هي كالمصائب والدواهي التي أصابت كرام الرجال من قبله فالضعف الذي دبَّ في الدولة الإسلامية في خلافة المطيع أدّى إلى أن تطمع الرُّوم ببلاد الإسلام، فَوَثَبَ نقفور على المدن العربية ودخلها في غفلة من العرب والمسلمين الذين انشغلوا في حروبهم الداخلية، ثم يفخر الشاعر بانتصارات العرب والمسلمين على الرُّوم في العصر العباسي وأيام هارون الرشيد، ويذكّر ببطولة الدولة الحمدانية في قهر الرُّوم[1]:

ولمّا تنازعنا الأمورَ تخاذلاً ودانت لأهل الجهل دولةُ ظالم
وقد شغلت فينا الخلائف فتنةٌ لعبدانهم من تُركهم والدلائم
بكفر أياديهم ومجد حقوقهم لمن رفعوهُ من حضيضِ البهائم
وثبتم على أطرافنا عندَ ذاكُمُ وثُوب لصوصٍ عند غفلة نائم

ويعدد انتصارات العرب على الرُّوم في مصر وتونس والأندلس، ويفاخر بكثرة السبايا من الرُّوم، ثم يتهدد الرُّوم إن هم أقدموا إلى بغداد

(1) المصدر نفسه، ص 42- 43.

وغيرها عن مدن الدولة العباسية، فأنّى للروم أن يُقدموا على ذلك، وما ادعاء نقفور بأنّه سيحتل البلاد العربية كلّها إلا الأماني التي يتمناها الضعيف فلن ينالوا من حاضرة الخلافة العباسية أو من مكة، لأن الله سينصر المسلمين عليهم، يقول[1]:

فهيهات سامَّرا وتكريت منكُمُ ... إلى جبلٍ تلكم أمانّي هائم
مُنى يتمناها الضعيفِ ودَونها ... تطايرُ هاماتٍ وحَزٌّ الغلاصم

...

ومن دونِ بيت الله في مكّة التي ... حباها بمجدٍ للثريّا ملازمٍ
دفاع من الرحمنِ عنها بحقِّها ... فما هو عنها ردّ طرفٍ برائِم

ومن المناظرات الشعرية بين العرب والرُّوم ما دار بين أبي فراس والدمستق قائد الرُّوم، حيثُ تغنّى أبو فراس الحمداني بمفاخر الحمدانيين في حروب الرُّوم، وما أحرزه العرب من انتصارات عليهم، وراح يستذكر تلك الحروب في مناظرة بينه وبين الدمستق، فقد أحفظ أبو فراس الدمستق في تلك المناظرة التي جرت بينهما في القسطنطينية، فكان أن قال له ملك الرُّوم: "إنّما أنتم كُتّابٌ، أصحاب أقلام، ولستم بأصحاب سيوف، ومن أين تعرفون الحروب؟ فقال له أبو فراس: "نحن نطأ أرضك منذ ستين سنة بالسيوف أم بالأقلام؟ وقال شعراً في ذلك[2]:

أَتَزْعُمُ يا ضَخْمَ الْلغَادِيدِ، أَنَّنَا ... وَنَحْنُ أُسُودُ الحَرْبِ، لاَ نَعْرِفُ الحَرْبَا؟
فَوَيْلَكَ؛ مَنْ لِلْحَرْبِ إِنْ لَم نَكُنْ لَهَا ... وَمَنْ ذا الَّذي يُمْسِي وَيُضحِي لَهَا تِرْبَا

(1) صلاح الدين المنجد، ص 47.
(2) ديوان أبي فراس الحمداني، ج2/ 36.

وَمَنْ ذاَ يلُفُّ الجَيْشَ في جَنَباتِهِ　　وَمَـنْ ذاَ يقُـوُد الـشُمَّ أو يَـصْدِمُ القَلْبا

ويذكّـر الشاعر الدمستق بإحدى المعارك التي انتصر فيها العرب، وقـتلوا "تـيفولس" وأسـر ابـن أخته، مُعرِّضاً بهزيمة الرُّوم، وما أصابهـم من قتل وأسر في تلك المعارك، يقول:

وَوَيْلَكَ مَنْ أرْدَى أخَاكَ بمُرعَشٍ　　وجلَّـل ضـرباً وجـه والـدك العـضبا
وَوَيْلَكَ مَنْ خَلَّى ابْنُ أُخْتِكَ مُوْثقاً　　وَخَــلاَّكَ بْالْلقَــانْ تَبْــتَدِرُ الــشِّعْبَا
أتُــوْعِــدُنا بـالحَـرْبِ حَتّى كَـأَنَّـنَـا　　وَإِيـاكَ لم يُعَـصَبْ بهـا قَلْبُـنا عَـصْبَا
لَقَدْ جَمَعَتْنا الحَرْب مِنْ قَبْلِ هَذهِ　　فكـنا بهـا أُسـداً وكـنتَ بهـا كلـبا

ثانياً: النفوذ التُّركي والتمثيل الشعري

الـترك مـن الأمـم القديمة التي عرفها العرب، وتتكون من قبائل، وبطـون، وأفخـاذ كقبائل العرب، كانت مواطنهم أواسط آسيا، وهم أهل باديـة وخـيام وغـزو[1] ولمّـا ظهر الإسلام وانطلقت الفتوحات، وتم فتح بلاد الترك دخل كثير منهم في الدين الإسلامي، وأخذوا يدينون بالإسلام مثل غيرهم من الأمم والأجناس التي خضعت لدولة الإسلام.

وقـد ورد في الحـديث الـشريف ذكـر الـترك، قال (ص): "اتركوا الـترك مـا تركوكم"[2] كما نهى عمر بن الخطاب، عن التعرض لهم، وذلك لأنهم يتصفون بسرعة الغضب وشدة الشر، فقـال في ذلـك: "هـذا عـدوّ

---

(1) ينظر. زيـدان، جرجي، تاريخ التمدن الإسلامي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، ج3/ 149.

(2) الجاحظ. رسائل الجاحظ/ رسالة في "مناقب الترك"، ج1/ 76.

شديد كَلَبه، قليل سَلَبه"[1].

ويرد ذكر الترك منذ العصر الإسلامي في أثناء فتح بلاد الترك، فقد وصف أحد شعراء الفتوح قوة بأس الترك وشدّتهم في المعارك والحروب، يقول ثابت قطنة[2]:

سَأغزو التُّركَ إنَّ لهم عُراماً | وبأساً حينَ تَزحفُ للزِّحامِ
هو الموتُ الزُّؤامُ إذا تنادَوا | لحربٍ يُستطارُ لها عُقَامِ
تَراهُم في الحديدِ كأُسدِ غابٍ | على جُردٍ عوابسَ كالجَلامِ

وتعمّقت صلة العرب بالأتراك في العصر العباسي، واختلطوا بهم عن طريق المصاهرة، فكان لهم حضورهم في المجتمع الإسلامي في العصر العباسي، حيث استقدمهم المعتصم من بلادهم، وأكثر منهم واعتمد عليهم.

ويمتاز الترك بقوة البدن والشجاعة، والمهارة في فنون القتال، والقدرة على احتمال المشاق والصبر على السفر، "فهم أصحاب عمد وسُكّان فيافٍ وأربابَ مواشٍ، وهم أعراب العجم..."[3].

---

(1) المصدر نفسه، ج1/ 57.

(2) ثابت قطنة، ثابت بن كعب، **شعر ثابت قطنة**، جمع ماجد السامرائي، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1968م، ص 36. وينظر ص 47، ص 55.

ثابت قطنة: هو ثابت بن كعب، يكنّى: أبا العلاء، شاعر وفارس شجاع من شعراء الدولة الأموية، ذهبت إحدى عينيه في حروب الترك، فكان يضع عليها قطنة فسمي بذلك.

ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ج2/ 630.

الأصفهاني، الأغاني، ج14/ 167.

(3) المصدر نفسه، ج1/ 70- 71.

وذكـر الجاحظ العديد من مناقب الترك في رسائله، وخص الترك برسالة في ذكر مناقبهم، وأفاض فيها في أوصافهم ومآثرهم، فهم من أهل الخـيام، لا يعـرفون الـصناعة ولا الـتجارة، ولا الطـب ولا الفِلاحـة والهندسـة، ولـذلك لم يكـن همّهم غير الغزو والغارات والصَّيد وركوب الخيل، وصار ذلك صناعتهم وتجارتهم وفخرهم[1].

وكـان بعض الترك يدّعي الانتساب إلى العرب، فبعضهم انتسب إلى مـذحج، قال الهيثم ابن عدي، وقد كان سقط إلى بلاد الترك رجلٌ من مـذحج فأنـسل نـسلاً كـثيراً ولـذلك قـال شـاعر الـشعُوبيَّة مـن قصيدة طويلة[2]:

زعمـتم بـان التُّرك أبناءُ مذحجٍ ... وبيـنكم قُربـى وبـين البرابـرِ

وذلكـم نـسلُ ابـن ضبّة باسـلٍ ... وصـوفان أنـسال كـثير الحرائـر

وقال آخر في إنكار إدعاء الترك إلى مذحج[3]:

متـى كـان الأتـراكُ أبناء مذحجٍ ... الا إنّ في الدنيا عجيباً لمن عجب

وكانـت العـرب تـضرب المثل في شدة العداوة بالترك، وإلى ذلك أشار الشاعر عملّس ابن عقيل بن عُلّفة[4]:

---

(1) الجاحظ، رسائل الجاحظ ،ج1/ 72- 73.
وينظـر الزمخـشري، جـار الله (ت 538هـ)، **ربيع الأبرار وفصوص الأخبار**، تحقيق: عبد المجيد دياب ورمضان عبد التواب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1992م، ج1/ 229.

(2) الجاحظ، رسائل الجاحظ، ج1/ 75.

(3) المصدر السابق، ج 3/ 75.

(4) المـصدر نفـسه، ج3/ 76، أبو حسان: هو الضب، يُضرب به المثل في العداوة والعقوق، فيقال: هو أعقُّ من ضبٍ، لأن الضبَّ يأكل أولاده.
ينظـر: الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري (ت 185هـ)، **مجمع الأمثال**، دار الكتب العلمية، بيروت، (ط1)، 1988م، ج2/ 56.

تـبدّلتُ مَنهُ بعَدَ ما شابَ مَفرِقي   عَـداوةَ تُركيٍّ وبُغْضَ أبي حِسْلِ

واخـتلط الـترك بالعـرب في العـصر العباسـي اخـتلاطاً كـبيراً، واصـطنع الخلـيفة العباسـي (المعتصم) كثيراً منهم، واشتراهم وبذل فيهم الأمـوال، وبلـغ عددهم ثمانية عشر ألفاً، وبنى لهم مدينة سامرَّاء وقرّبهم مـنه، وصـاروا مـن جلسائه وخاصته، ولا عجب في ذلك، لأن الترك هم أهل أمه، لذلك كثر الترك في قصر الخليفة، وسطع نجمهم وأسند المعتصم إليهم قيادة الجيوش.

وعندما اشتد التنافس بين العرب والموالي من الفرس، وازدادت الفـتن والحـروب، أخذ المعتصم يقرِّب العنصر التُّركي ويميل إليه، واعتمد علـيهم في مـواجهة الـشعُوبيَّة وثـورات الفـرس، وخـصومه من العرب، فاعـتمد عليهم وقرّبهم، وكان المعتصم شديد الإعجاب بقوة الترك ونقاء عـصبّيتهم، لذلك استخدمهم في قمع ثورات الفرس، وميّزهـم بالزي عن سـائر الجـند وأقطعهـم البلاد، وابتاع لهم الجواري التُّركيات، ومنعهم من أن يتـزوجوا من المولدين خوفاً من تحضّرهم واختلاطهم بالأمم الأخرى فتذهب عصبيتهم وتضعف عزيمتهم[1].

أدت سياسة المعتصم في تقريب الترك إلى تعاظم نفوذهم وارتفاع شـأنهم في الدولـة العباسـية، حـيث أسـند ولايـة بعـض الأقاليم للترك، فكانـت ولاية مصر لأحد القادة الترك ويدعى "إِشناس"، كما عهد المعتصم

(1) ابن تغري بردى، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت 874هـ)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهـرة، قدم له وعلق عليه، محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، (ط1)، 1992م، ج2/ 283- 285.

ولاية خراسان والسند إلى "إيتاخ" التُّركي[1]، مما زاد في نفوذهم فقويت شوكتهم، وعظم أمرهم، وأخذوا يتدخلون في شؤون الدولة وسياستها وأمور الخلافة، وأصبحوا يولون من يشاؤون من الخلفاء، ويعزلون من يشاؤون وبدأ عصر نفوذ الأتراك في الدولة العباسية، فاستمرت سيطرة العنصر التُّركي في الدولة العباسية حتى نهاية العصر العباسي على وجه التقريب.

وكان من نتيجة تحكم العناصر التُّركية في الدولة العباسية، أن ضعفت الخلافة العباسية في القرنين الثالث والرابع الهجريين، وسقطت هيبتها، فكانوا يحيكون المؤامرات لقتل الخلفاء، وتولية من يريدون، فقد خلعوا المستعين، وبايعوا المعتز، وقتلوا المتوكل والمهتدي وغيرهم، وقد أدرك المنتصر بن المتوكل خطر الأتراك على الدولة وعلى العرب، ولكنه كان مستضعفاً، وقال في ذلك يصف ذاته، وما له من أمر الخلافة[2]:

الذُّل يأباه الفتى الحرّ	**ما للكريم معهُ صبرُ**
لو يعلم الناسُ الذي نالَني	**فليسَ لي عندَهم عُذرُ**
كان إليّ الأمرُ في ظاهرٍ	**وَليسَ لي في باطنٍ أمرُ**

وضاق الناس من اضطهاد الأتراك، وسوء أعمالهم، وتحكمهم في جباية الخراج، وتعسُّفهم في أمور الجباية، وعانى الناس الظلم والقهر والعنَت من تسلط الأتراك وتحكمهم، فأخذ الناس يضجّون من تعسُّفهم

---

(1) المصدر السابق، ج2/ 394- 395.

(2) المرزباني، معجم الشعراء، ص 400.

وينظر: التميمي قحطان، اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري، دار المسيرة، بيروت، د.ت، ص 134.

وظلمهـم، ويـشكون من قسوتهم، وإلى ذلك أشار أحد الشعراء إلى تحكم الترك وتسلطهم، فقال يخاطب بني العباس[1]:

بـني عمـنا وليـتم الـترك أمـرنا ... ونحـن قـديماً أصـلها وعمـودها
فما بـال عجـم الـترك تقسم فيئنا ... ونحـن لـديها في الـبلاد شـهودها

واتـسع نطـاق الـتظلم مـن تـسلط الترك، وامتدت الشكوى من جـورهم واسـتفحال خطـرهم إلى الخلفـاء أنفسهم، فكان المهتدي الخليفة العباسـي يـضيقُ ذرعـاً بهـم، وكـان يُـضمِر حنقه عليهم، وينتهز الفرص للتخلص منهم، روى أنه قال[2]:

أمَـا وَالَّـذي أعْلَـى الـسَّماءَ بِقُـدرةٍ ... وَمَـا زَال قدما فَوْقَ عَرْشٍ قَدْ استوى
لِـئن تمَّ لـي الـتَّدبيرُ فَمَـا أرِيـده ... لَتَفْـتَقِدُّن التُّـرك طُـرًّا فـلا تُـرى

وكـان الخلفاء يدركون خطر الأتراك وتأثيرهم في سلطة الخلافة، فعمل بعضهم على موالاتهم، وعندما عزل الترك المستعين (ت 252هـ)، وأسندوا الأمـر إلى المعتـز بـالله، روي أنـه جلـس علـى سـرير الخلافـة، وأحضر المنجمين، فسألهم: كم يظل خليفة للمسلمين؟ وكم يعيش؟ فقال بعـض الظـرفاء في المجلـس: أنـا أعَرَفُ من هؤلاء المنجمين بمقدار خلافته وعمـره، فقالوا: فكم تقول إنه يعيش؟ وكم يملك؟ فقال: طالما أراد الترك ذلك، فغلب الضحك على مَن في المجلس[3].

---

(1) ينظر: الحصري، أبو إسحاق القيرواني، زهر الآداب، ج1/ 331.
وينظـر: المـصري، حـسين نجيب، بين الأدب العربي والتُّركي، دراسة في الأدب الإسلامي المقارن، الدار الثقافة للنشر، القاهرة، (ط1)، 2003م، ص 8.
(2) المرزباني، معجم الشعراء، ص 401.
(3) ابـن الطقطقـا، محمـد بـن علـي، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر، بيروت، 1970م، ص 181.

ومن خلال النص السابق، يظهر أن نفوذ الترك في شؤون الخلافة العباسية بلغ أثراً كبيراً، وخطراً عظيماً، فالترك يولّون ويعزلون من يشاؤون من الخلفاء، وكان العامة من الناس يدركون أثرهم وخطرهم في سياسة الدولة، فقد قويت شوكة نفوذهم، حتى أصبح الخليفة لا يملك من الأمر إلا ظاهره، ليس عليه سوى تنفيذ ما يأمرون، بل أصبح الخليفة أداة طيّعة في أيدي الترك، وقد صوَّر أحد الكتّاب حال الخلافة والخليفة في فترة نفوذ الترك، فالخليفة كالببغاء يردد ما يقوله: "وصيف وبغا" أكبر قادة الترك في قصور العباسيين[1]:

خِلافَـــــةٌ جَائِــــــرةٌ	فاسِـــدةٌ مـــا تُبتَغـــى
خَلـــــيفَةٌ في قفـــــصٍ	بـــينَ وصـــيفٍ وبُغـــا
يقـــولُ مـــا قـــالا لـــه	كمـــا تقـــولُ البـــبغا

وشبه أحد الشعراء الخليفة وإمام المسلمين بالضيف الذي حل على الأتراك، وصوّر شدة بطشهم وطغيانهم، يقول[2]:

للهِ دُرُّ عَـــصَابة تـــركيّة	رَدُّوا نـوائِبَ دهـرِهم بالسّيفِ
قَـتلوا الخليفةَ أحمـد بـن محمـد	وكسوا جميع الناس ثوب الخوفِ
وَطغـوا فأصبحَ ملكـنا مُتَقسّماً	وَإمَامنا فـيه شـبيه الضّيفِ

بل أصبح الترك يملكون الأمر، كما قال أحد الشعراء[3]:

---

(1) الثعالبي، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ص 488.

(2) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج4/ 158.

(3) المصدر نفسه، ج4/ 166.

أصبَحَ التُّركُ مالكي الأمر والعا لَمُ مــا بــين ســامعٍ ومطــيع

لقد كان خطر الأتراك في العصر العباسي كبيراً، فاستبدوا بالأمر والسلطان، منذ أن استقدمهم المعتصم وأسند إليهم المناصب، كما عهد إليهم قيادة الجيش، وكان المعتصم يعمل على إقامة التوازن بين العرب والموالي من الفرس، فاتخذ الآخر التُّركي لهذه الغاية، عندما اشتد التناحر والتنافس بين العرب وغيرهم من الفرس، ولمّا كانت كفّة العناصر الفارسية هي الراجحة في الدولة العباسية لجأ المعتصم إلى العنصر التُّركي للحدّ من نفوذهم وسلطانهم، مما أدّى إلى تهميش العرب وإلغاء دورهم في شؤون الخلافة، وأدّى تزايد عدد الترك وتضخّم قوتهم، وزيادة عددهم إلى تفرّدهم بسلطان الخلافة، وأصبح الخليفة في إمرة الترك، فكانوا يعزلون من عصى أمرهم، ويوّلون من أطاع رأيهم، وقد صوّر المعتمد (ت 279هـ)- الخليفة العباسي ذلك أجمل تصوير، يقول[1]:

أَلَيْسَ من العجائب أنَّ مثلي يَـرَى مـا قـلَّ ممتـنعاً عَلـيْهِ
وتـؤخذُ باسمِـهِ الدُّنـيا جميعاً ومـا مـن ذاك شـيءٌ في يديـه
إلـيه تحمـل الأمـوال طُـرّاً ويُمـنع بعـض ما يُجبى إلـيه

لقد استبد العجم من الترك بشؤون الخلافة، فعزلوا الخلفاء بل قتلوا بعضهم، وكان لمقتل المتوكل على أيدي الترك أثرٌ كبير في نقمة العرب عليهم، وارتفع صوت الشاعر العربي في التعريض بهؤلاء العجم،

---

(1) جبور، جرائيل سليمان، الملوك الشعراء، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، (ط1)، 1981م، ص 142.

فكانوا عُرضة لهجاء الشعراء، وأخذ بعض الشعراء يحث العباسيين على اصطناع العرب والاعتماد عليهم للخلاص من نفوذ الآخر من الترك، وتسلطهم، وإعادة الهُويَّة العربية إلى الخلافة والدولة؛ لأن عجم الترك لا ينبغي الوثوق بهم أو إكرامهم، فهم عبيد لا يستقيمون إلا بالإذلال والهوان، وفي ذلك يقول يزيد بن محمد المهلبي، في خطاب بني العباس[1]:

لَمّا اعتقدتمْ أناساً لا حفِاظَ لهم ... ضِعتُم وضيّعَتم مَنْ كان يُعتَقدُ

ولو جعلتم على الأحرارِ نعمتكم ... حمتكم الذّادة المنسوبة الحسُدُ

قومٌ همُ الأصلُ والأسماءُ تجمعكم ... والدّنُ والمجدُ والأرحامُ والبلدُ

إن العبيدَ إذا أذللتهم صَلَحوا ... على الهوانِ وإن أكرمتهم فَسَدُوا

ورثى علي بن الجهم المتوكل الذي قتله الترك، في قصيدة من روائع شعره، تفجّع فيها على موت الخليفة، ثم يعرِّض بعصابة الترك الذين قتلوه، ويشنّع على قتلة الخليفة الناكثين عهودهم، بعد أن قدَّم لقصيدته بمقدمة فريدة يصف فيها أيام المتوكل، والتي رمز لها بالسحابة، يقول في مطلعها[2]:

وساريةٍ ترتادُ أرضاً تجودُها ... شَغَلْتُ بها عَيْناً قليلاً هُجُودُها

---

(1) الحصري، أبو إسحاق إبراهيم بن علي القيرواني (ت 453هـ)، زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق: علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، (ط2)، 1969م، ج1/ 218.
يزيد بن محمد المهلبي: شاعرٌ عباسي، من أهل البصرة، شعرهُ قليل، كان نديماً للمتوكل، ومدح المنتصر، كما مدح المتوكل، ورثاه بقصيدة من عيون الشعر، (ت 259هـ).
ينظر: عبد الرحمن، عفيف، معجم الشعراء العباسيين، ص 591.

(2) ديوان علي بن الجهم، ص 56.

ويتخلص الشاعر من وصف السارية إلى رثاء المتوكل والتنديد بالترك، فهم عبيدُ أمير المؤمنين وأعظمُ آفات الملوك عبيدها، وينكر على القتلة الباغين، ويصفهم بالغدر والمكر والخيانة معرِّضاً بالمنتصر، يقول:

عَزيزٌ علينا أنْ نرى سَرَواتِكُمْ   تُفَرَّى بأيدي الناكِثينَ جُلودُها
ولكن بأيديكُم تُراقُ دماؤُكُمْ   ويَحْكُمُ في أرحامِكُم من يكيدها
ألهفاً وما يُغْني التَّلهفُ بَعْدَما   أذِلَّت لِضِبْعان الفَلاةِ أسُودُها
عبيدُ أميرِ المؤمنينَ قتلنَهُ   وأعظَمُ آفاتِ المُلوكِ عبيدُها

ويعرّض بقتلة المتوكل فيصفم بالكفر والإلحاد، فهم زنادقة، يقول[1]:

فيا ناصرَ الإسلامِ غرَّكَ عُصبَةٌ   زَنادِقَةٌ قد كنتُ قَبلُ أذُودُها

...

أشاع وزيرُ السُّوءِ عنكَ عَجائباً   يُشيدُ بها في كُلِّ أرضٍ مُشيدُها
وباعَدَ أهْلَ النُّصحِ عنكَ وأوغِرتْ   صُدُورُ الموالي واستَسرَّتْ حُقودُها

كما رثى أحد الشعراء المستعين الذي خلعه الأتراك ثم قتلوه، ويعرض بهم مشيراً إلى ظلمهم وغدرهم، يقول[2]:

عين لا تبخلي بسفح الدموع   واندبي خير فاجع مفجوع
بَكَرَ التُّرك ناقمينَ عليه   خالعيه أفديه من مخلوع

---

(1) المصدر نفسه، ص 64- 65.

(2) المسعودي، مروج الذهب، ج4/ 165- 166.

قـتلوه ظلمـاً وجـوراً فألفـو ... هـ كـريم الأخـلاق غير جزوع
لم يهابـوا جيشاً ولا رهبوا السيـ ... ـف فلهفـي على القتيل الخليع

وفي عهد الخليفة المنتصر (247- 248هـ) الذي كان مستضعفاً، حاول أن يتخلَّص من تنفّذ الترك بعد أن عطف عليهم وقرّبهم، ومال إلى الطالبـية والعلـويين، وتقـرّب منهم، كما حاول نشر العدل والإنصاف في المجـتمع، وذلـك من أجل تحقيق أهدافه والتخلّص من الترك، فمالت إليه قلوب العامة والخاصة، يقول يزيد بن المهلبي في مدح المنتصر[1]:

ولقـد بـررت الطالبـية بعـد مـا ... ذمـوا زمانـاً بعـدها وزمانـا
ورددت إلفـة هاشـم فـرأيتهم ... بعـد العَـداوة بيـنهم إخـوانا
آنِـستَ لـيلهم وَجُـدْتَ علـيهم ... حتـى نـسوا الأحقاد والأضغانا
لو يعلم الأسلاف كيف بررتهم ... لـرأوكَ أثقـل مَـنْ بهـا ميـزانا

وبذلك استطاع المنتصر تحقيق التقارب بين العرب، وإخماد الثائرين والمعارضين من العلويين وغيرهم، فقويت شوكته، ولتنفيذ مآربه، جهّز جيشاً كبيراً بقيادة القائد التُركي (وصيف) وأرسله إلى محاربة الرُوم، وبذلك تمكّن من إبعاد أحد أهم العناصر المؤثرة من الأتراك في أمور الحكم ولّما رأى المنتصر (بغا) وهو الشخصية الرئيسة الثانية– ومن حوله الأتراك في قصر الخلافة، قال للفضل بن المأمون: "قتلني الله، إن لم أقتلهم، وأُفرِّق جمعهم، هؤلاء قتلة الخلفاء"[2].

---

(1) حسن، إبراهيم، تاريخ الإسلام، ج3/ 7.
عمارة، محمد، العرب والتحدي، ص 120.
(2) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج9/ 240.

ولم يكن للترك حضارة ولا سياسة، بل هم أعراب العجم، وكثرت الفتن والثورات في ذلك الزمن، مما دفع بعض الشعراء إلى تصوير ما آلت إليه الدولة العربية وخلافتها من ضعف وانهيار باعتمادها على الآخر، والتعريض بالمعتصم الذي أعلى من شأن الترك، وفي مقابل تهميش العنصر العربي، يقول دعبل في ذلك[1]:

لَقَدْ ضَاعَ أمرَ الناسِ إذ ساسَ ملكهم   وصيفُ وأشناسٌ وقد عَظُمَ الكَربُ
وهمُّك تركيٌّ عليه مهانةٌ   فأنتَ لـه أمٌّ وأنتَ لـه أبُ

وانعكست سياسية المعتصم بتقريب العنصر الأجنبي سلباً على الدولة العباسية في نواحي الحياة كافة ولاسيّما في المستويين: السياسي والاجتماعي، فقد فسدت الخلافة العباسية، وتحكّم الترك بمصير الخلفاء مما أغرق البلاد بالفوضى السياسية، وأرهق المجتمع بالضرائب والظلم، مما دفع إلى نقمة المجتمع من التسلط التُّركي والتبرّم من قهرهم وظلمهم، وانعكس ذلك في الشعر العربي، فصوّر ابن المعتز حالة المجتمع والدولة هذه في أرجوزة طويلة منها[2]:

وكلُّ يومٍ مَلِكٌ مقتولٌ   أو خائفٌ مروَّع ذليلُ
وكم أميرٍ كان رأس جيشٍ   قد نغّصوا عليه كل عيش
وكل يومٍ شغبٌ وغضبُ   وأنفسٌ مقتولةٌ وحربُ

---

(1) ديوان دعبل الخزاعي، ص 103.
ينظر: التميمي، قحطان، اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري، ص 251.
(2) ابن المعتز، عبد الله، الخليفة العباسي، ديوان أشعار الأمير أبي العباس، ج2/ 6.

لقد واكب الشعر تلك الأحداث، وانعكس أثر العناصر التُّركية في المجتمع العربي والدولة العباسية في الشعر العباسي، فعرض الشعر العربي لمظاهر تسلط الترك ونفوذهم على الخاصة والعامة، وصوّر غدرهم ونكثهم بالعهود وجورهم وظلمهم، ومن الأوصاف التي وصف الشعراء الترك بها: الكفر والإلحاد والزندقة، وأنهم عبيد وأعراب العجم، وما امتازوا به من غدر وخيانة وفساد الأمر، وما إلى ذلك من صفات سلبية، وصوّر بعض الشعراء آثار الترك من القتل، والتخريب، وقتل الخلفاء، وإذلال الناس.

وبرز أثر الأتراك في شؤون الدولة وسياسة الخلفاء، لما امتازوا به من منزلة ومكانة لدى الخلفاء، وكان المتوكل أول خليفة يقتله الأتراك، وبذلك يمثل نفوذ العناصر التُّركية وسيطرتهم جانباً من تطرف العناصر الأجنبية وتطاولها على حكام العرب قتلاً وتعذيباً.

ثالثاً: السود والشعر العربي

نفي الآخر الأسود في الشعر العربي:

يمثّل رفض الآخر ونفيه، انتزاع خاصيَّة الإنسانية لديه، وسلبه من قيم الكرامة والإنسانية، ونفي صفات الكرامة والعدالة والمساواة عنه، وإضفاء السمات الحيوانية أو البهيمية عليه، ويمثّل هذا الموقف رفض الآخر المختلف عن الذات في اللون والثقافة، فالآخر المختلف لوناً وعرقاً قد يقصى وينفى في الخطاب الشعري، وذلك بفعل ما يمكن أن يطلق عليه العنصرية العرقية أو اللونية، وربَّما يتعرض الآخر الأسود إلى الامتهان والنفي بسبب سواد جلدته ولونه، فيكون عرضة للهجاء والسخرية

بـذلك، ومـن صـور نفـي الآخـر الأسـود في الـشعر العربي هجاء المتنبي الشاعر العربي كافوراً الإخشيدي.

وقـبل المتـنبي نجـد صـورة رفض الآخر الأسود في الشعر العربي مـنذ العـصر الأمـوي، وقبل ذلك العصر، ومن مظاهر نفي الآخر، هجاء الفـرزدق لأحـد العبـيد الـسود، عندما رآه يجلس في صدر مجلس شراب، فأغاظـه ذلـك، وعـدَّ جلـوس ذاك العبد الأسود في صدر المجلس، إذلالاً وامتهاناً بالنسبة للأبيض، فقال(1):

قُعُـودُك في الـشَّربِ الكِـرام بلـيَّة ... وراسُكَ في الإكليلِ إحدى الكبائرِ
وما نطَقَتْ كأسٌ ولا طابَ طَعمُها ... ضَـرَبْتَ علـى جَمَّاتِهـا بالمـشافِرِ

والفرزدق كان قد هجا نصيباً الأسود قائلاً(2):

وخـيرُ الـشِّعر أكـرمهُ رجـالاً ... وشـرُّ الـشِّعرِ مـا قـال العبـيدُ

وتظهر صورة نفي الآخر، وتزداد حدّة في رفض الأسود وإقصائه في شـعر المتـنبي، في هجـاء كافور، وإضفاء الصفات الحيوانية عليه، يقول المتنبي في قصيدة يهجو فيها كافوراً(3):

عـيدٌ بأيـة حـالٍ عُـدْتَ يـا عيدُ ... بمـا مـضى أم بأمـرٍ فـيك تجديدُ
أكلّمـا اغـتالَ عَـبْدُ السوءِ سيِّده ... أو خانـهُ فَلَـهُ في مـصر تمهـيدُ

---

(1) ديوان الفرزدق، ج1/ 181.
(2) الأصفهاني، الأغاني، ج1/ 221. لم أجد البيت في الديوان.
(3) شرح ديوان المتنبي، ج2/ 139- 144.

صار الخصيُّ إمام الآبقين بها فالحرُّ مستعبدٌ والعبدُ معبُودُ
العبدُ ليس لحرٍ صالحٍ بأخٍ لو أنّهُ في ثياب الحُرِّ مولودُ

إن المتنبي يقدِّم نصاً شعرياً صريحاً في رفض الآخر ونفيه، ذاك الآخر الأسود المختلف لوناً ونسباً عن ذات الشاعر والذات العربية، وبالتالي ينفي الصفات الإنسانية عنه، ويمتزج هذا الرفض بالسخرية، والاستهزاء، والتهكمّ؛ فالآخر يرفض ويُقصى بسبب سواده ووضاعة نسبه، بفعل العنصرية اللونية، كما يجري تمثيله بصورة سلبية دونية، ولذلك يصبح الأسود موضوعاً للسخرية والاحتقار والتندر عند المتنبي، يقول[1]:

لا تشترِ العبدَ إلاّ والعَصَا مَعَهُ إنَّ العَبيدَ لأنجاسٌ مناكِيدُ
مَنْ علَّمَ الأسْودَ المخصيَّ مَكرُمَةً أقومُهُ البيضُ أم آباؤهُ الصِّيدُ
أم أذنُهُ في يد النَّخَّاسِ داميةً أم قَدْرُهُ وهو بالفَلْسَينِ مَردُودُ

ويتعاظم رفض الآخر الأسود في خطاب المتنبي الشعري، ويزداد عنفاً من خلال وصف المهجو بصفات سلبية.كالجبن والخزي واللؤم، وهي صفات يجسِّدها المتنبي في وجود كافور الداخلي، وهي مواقف كامنة في نفسيته، يقول[2]:

أولى اللِّئامِ كُويفيرٌ بمعذِرَةٍ في كُلِّ لُؤمٍ وبعضُ العَذرِ تفنيدُ
وذاك أنَّ الفحولَ البيضَ عاجزةٌ عن الجميلِ فكيف الخِصيَةُ السُّودُ

---

(1) المصدر نفسه، ج2/ 144- 148.
(2) شرح ديوان المتنبي، ج2/ 148.

وعلى الرغم من أنّ هجاء المتنبي كافوراً ربما يكون قائماً على الدوافع الشخصية، فلم يحظَ الشاعر ببابه ما يرضي طموحه ويلبي جموح نفسه، لذلك ارتدَّ إلى هجائه أقذع الهجاء؛ ويكشف هذا الهجاء رفض الآخر الأسود عامّة، فالنفي عند المتنبي يعود إلى التمييز بين الأبيض والأسود، فالمتنبي ينطلق من عنصريةِ اللون/ الشكل، ويشكّل موقفاً من الآخر الأسود، ذاك الموقف الذي يجسِّد تناقضاً في منظومة الوعي الإسلامي في الفكر العربي الذي دعا إلى العدالة والمساواة بين الناس، وأن لا فضل لأبيضَ على أسود.

والمتنبي في هجاء كافور يقدّم خطاباً شعرياً يفيضُ بالسلبية ويكشف عن نزعة عنصرية، كما يحمل نبرة صريحة في سلبيتها إزاء الآخر الأسود المختلف لوناً وعِرقاً، مع تميّزه بنوع من التعالي والفخر وتعاظم الأنا في شعره ويكرِّس المتنبي ازدراء الآخر الأسود ورفضه عندما يضفي صفات الغناء والطرب على هذا العبد الأسود، فهذا الأسود يؤتى به من خارج بلاد العرب بهدف جلب المسرة والتسلية، وإضحاك النساء البواكي والأطفال، يقول[1]:

وَمِثْلُكَ يُؤتى من بلادٍ بعيدةٍ ... لِيُضحِكَ ربّات الحِدادِ البواكيا

لقد كشف المتنبي عن نزعة عنصرية عند هجاء كافور، فأنكر عليه كل معاني الإنسانية، وأنزله منزلة الحيوان والبهائم، ولذلك تعبِّر كافوريات المتنبي الهجائية عن نزعة عرقية أساسها ثنائية: الأبيض والأسود.

---

(1) المصدر نفسه، ج4/ 434.

رابعاً: صدى ثورات الآخر وتمرده في الشعر العربي

انتقلت الخلافة العربية الإسلامية إلى العباسيين بعد سقوط الدولة الأموية، فظفرت الثورة العباسية بالبيت الأموي عن طريق مساعدة الآخر من الموالي والفرس، الذين كان لهم دورٌ كبير ومهم في إسقاط الدولة الأموية، فكان الموالي والفرس يتوقون إلى الخلاص من الأمويين، والتخلص من حكم العرب، ولذلك نجد كثيراً من الموالي ينضمون إلى الثورة العباسية ويقومون بدوراً كبير فيها.

وحظي الموالي من الفرس وغيرهم بالمكانة الاجتماعية، والحرية الدينية، والسياسية في عصر الدولة العباسية، وتولوا أعلى المناصب القيادية والإدارية، فاصطبغت الدولة العباسية بالصبغة الفارسية وأحس الموالي من الفرس بدورهم ومكانتهم، وأخذوا يديرون الدولة العباسية، وأخذت بعض العناصر الأجنبية في التمرد والخروج على الدولة، وكثرت الفتن والثورات وحركات التمرد، وإذا كان الشعر قد صوَّر الحياة بجوانبها المختلفة في العصر العباسي، فإنه لم يغفل عن الإشارة إلى هذه الثورات والفتن وتمثيلها في الشعر، كالشعر الذي صوّر ثورة الزنج وتمردهم، وحركات الراوندية والخُرمية وغيرها من التيارات والحركات غير العربية الفكرية والسياسية، وكان من أوائل حركات التمرد حركة سنباذ، الفارسي النسب، مجوسي الديانة، في العام (137هـ)[1].

ولم يكن الشعر العربي ليغفل عن التعرض لمثل هذه الأفكار والمعتقدات الدخيلة على الفكر العربي، وأدرك بعض الشعراء خطر هذه

---

(1) ينظر: الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج7/ 495.

الثورات والفتن، ذلك الخطر الذي بدأ يتهدد الذات العربية في عقيدتها الدينية وهويتها القومية، وكانت الخُرمية، بقيادة "بابك الخرمي" من أخطر هذه الثورات وأكثرها أثراً في العصر العباسي، فقد تشعّبت إلى فرق وطوائف كثيرة، يجمعها القول بالرجعة، والإكثار من الصلاة على "فيروز" وهي اعتقادات ومبادئ تخالف عقيدة الإسلام، وتمثل مبادئ المزدكية التي ظهرت في بلاد فارس قبل الإسلام.

ومن فرق الخرمية، المازيارية والبابكية، الذين كانوا يُسمَّون بالمحمَّرة، وقد ذكرهم البحتري في شعره، يقول[1]:

تلك المحمَّرةُ الذين تهافتوا   فمشرِّق في غيِّهِ ومُغرِّبُ

واستطاع المعتصم القضاء على خطر الخُرمية، وقتل بابك الخُرمي وصلبه في بغداد، وقد ركّز الشعر العربي على صورة بابك مهزوماً أو مقيّداً، ومصلوباً، كما مدح الشعراء القادة العرب والترك، وصوّروا انتصاراتهم وبطولاتهم في قتل بابك والقضاء على حركته، ومن ذلك ابن الزيات الذي عرض ما آل إليه مصير بابك، ووصف الحرب معه، يقول[2]:

---

(1) ديوان البحتري، ج1/ 74.

(2) ابن الزيات، محمد بن عبد الملك، ديوانه، تحقيق: يحيى الجبوري، دار البشير، عمان، (ط1)، ص 278- 279.

ابن الزيات: هو محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة، يكنى: أبا جعفر، ويعرف بابن الزيات، وزر في عهد المعتصم والواثق، وكان عالماً باللغة والأدب، ومن بلغاء الكتاب والشعراء، نكبه المتوكل وعذّبه حتى مات.

ينظر: (عبد الرحمن، عفيف، معجم الشعراء العباسيين، ص 196).

(الجبوري، يحيى، محمد بن عبد الملك الزيات سيرته وأدبه وتحقيق ديوانه، ص 9، وينظر: ص 67).

وسَقَيت بابك كأس حتفٍ مَرَّةً   بفوارسٍ سحبوا القنا يتلونَهُ
فتجالدَ الزَّحفانِ يوماً كاملاً   والقوسُ يُخضِبُ بالذي يبرونَهُ
ـى رأيت الخُرّميّة ريضَةً   والبَدُّ أنكَرَت الفجاجَ رنينَهُ
يبكي الذين تُخِرّموا من أهله   ونساءُ بابكَ حُسَّراً يبكينَهُ

والبحتري يصف جيش بابك بكثرته حتى كادو يملأون الأنجاد والأغوار، مبيّناً ما حلَّ بهم على يد (اسحق المصعبي) أحد قادة المعتصم، يقول[1]:

تلك المحمَّرةُ الذين تهافتوا   فمشرِّق في غيِّهِ ومُغرِّبُ
والخُرميَّةُ إذ تجمع منهمُ   بجبال "قُران" الحَصَى والأثلبُ
جاشُوا فذاك الغَورُ منهم سائلٌ   دُفَعاً وذاك النجدُ منهم مُعشِبُ
يتُسرَّعون إلى الحُتوف كأنَّها   وفرٌ بأرضِ عدوِّهم يُتنهَّبُ[2]

وأكثر الشعراء من مدح أبي سعيد الثغري، أحد قادة المعتصم في قتال بابك، ومدحه وتصوير بطولاته، وعرض البحتري صورة جيش بابك الذي وصفهُ بالكثافة والرعونة، وقد أصبحوا أذلاء تعلوهم المهانة والاستسلام بعد إبادتهم وأسر من تبقى منهم، يقول في مدح الثغري[3]:

فيم ابتدارُكمُ الملامَ وَلُوعا   أبكيتُ إلاَّ دِمنةً ورُبُوعا

---

(1) ديوان، البحتري، ج1/ 74- 76.
المحمَّرة: من فِرق الخرميةِ، كانت تتخذ اللون الأحمر شعاراً لها.
(2) الغور: المنخفض من الأرض. **الأنجاد**: ما ارتفع من الأرض.
(3) ديوان البحتري، ج2/ 1253- 1256.

لله دَرُّك يَـــومَ بَابَـــكَ فارســـاً بطـلاً لأبـواب الحُـتوفِ قـروعا

لَمّـا أتـاكَ يقُـودُ جيـشاً أرعـناً يُمـشى عليـه كـثافةً وجُمُـوعا

وزعـتهم بـين الأسـنة والظـبا حتـى أبـدت جمـوعهم تـوزيعا

حتـى ظفـرتَ بـبذّهم فتركـتَهُ للـذُّل جانِـبُه وكـان منـيعا[1]

وأما خطـر البابكـية علـى الـدين والعرب، فقد كان كبيراً، فقد كـادت مـصابيح الهدى تخبو لولا بطولة القائد العربي (اسحق بن إبراهيم المـصعبي) الـذي أبلى بلاء حسناً في الدفاع عن الدين بقتالهم حتى تركهم بين مجدَّل ومرمَّل، يقول البحتري[2]:

حتـى إذا كادتْ مصابيحُ الهُدى تخـبُو وكـاد مُمَـرُّه يتقـضّبُ

ضـرب الجـبالَ بمـثلها مـن رأيهِ غـضبانُ يطعنُ بالحِمامِ ويضرِبُ

فمجـدَّلٌ ومـرمَّلٌ، وموسَّـدٌ ومـضرَّجٌ ومـضمَّخٌ ومخـضَّبُ

سُـلبوا وأشْـرقت الدماءُ عليهم مُحمـرَّةً فكـأنهم لم يُـسلَبُوا

ويعرض الشاعر نهاية ثورة بابك وصلبه، وقد عُلِّق على أعواد المشانق أمام مرأى من الناس، يقول البحتري[3]:

مـا زلـتَ تقرَعُ بابَ "بابكَ" بالقَنا وتَـزُورُهُ في غـارةٍ شـعواءِ

(1) **الإبتدار**: التعجل والتسرع. **الأرعن**: الأحمق **الظبا**: حد السيف والرمح.

(2) المصدر نفسه، ج1/ 75- 76.

(3) ديوان البحتري، ج1/ 9- 10.

حتى أخذتَ بنصل سَيْفكَ عَنْوةً — منهُ الـذي أعـيا عـلى الخُلفَـاءِ
أخليـتَ مـنه ألـبذّ وهـي قـرارُهُ — ونَــصَّبْتَهُ عَلَمــاً بــِ "سَــامرَّاءِ"
لم يُـبقَ منه خوفُ بأسِكَ مطعماً — للطَّــير في عــودٍ ولا إبــداءِ
فــتراهُ مطَّــرداً علــى أعــوادِهِ — مــثل اطّـراد كـواكب الجـوزاءِ
مستـشرفاً للـشمس منتـصباً لهـا — في أخــريات الجـذعِ كالحــرباءِ

وانتدب المعتصم القائد التُّركي "الأفشين" لإخماد ثورة بابك والقضاء عليه في موطنها، وتمكن الأفشين من القبض على بابك وأسره، حتى قَدِم به إلى المعتصم، وكان المعتصم قد كافأ الأفشين بأن عقد له التاج وأجلسه على سريرٍ أمامه، فقال اسحق بن خلف في ذلك[1]:

مـا غبتَ عنَ حرْبٍ تحرَّق نارُها — بالـبذِّ كـنتَ هُـنا وأنـتَ هـناكا
عـزَّت بأفـشينٍ حُـسامِكَ أمَّـةٌ — والـدِّينُ مُمـسِكٌ بـه استمـساكا
لَمَّــا أتــاك بـــبابكٍ توّجــتهُ — وأحـقُّ مَـنْ أضـحى لـه تاجاكا

وعـندما تم إخمـاد ثورة بابك، وقُضي عليه، قام في مجلس المعتصم الخطـباء فـتكلموا وقالـت الـشعراء، وممّـن قـام في ذلك اليوم إبراهيم بن المهـدي، الـذي هـنأ المعتـصم بالفـتح وعدّ ذلك فتحاً عظيماً لم يرَ الناس مثله، وقال[2]:

.

---

(1) أبو حنيفة الدينوري، أحمد بن داوود (ت 282هـ)، الأخبار الطوال: ص 593- 594.
(2) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج4/ 57.
وينظر: العزيز، حسين قاسم، البابكية، ص 344.

وهنيـئاً هـيأ الله لـك الفـتحَ الخطـيرا

فهـو فـتحٌ لم يـرَ الـناسَ لـه فـتحاً نظـيرا

وجـزى الأفـشين عـبد الله خـيراً وحُـبُورا

فلقـد لاقـى بـه بابـكُ يـوماً قمطريـرا

وكان الأفشين قد عمل على تحريض المازيار على التمرد والثورة سراً بعد أن تمكن من القضاء على ثورة الخُرمية، بل حرّضه على خلافة بابك، وربما يعود ذلك إلى أن الأفشين لم يكن مُخلصاً بولائه للعرب، وأراد من ذلك الوصول لأعلى المراتب السياسية، وكان يُظهر عكس ما يبطن، ولكن الشاعر العربي أبا تمام كشف غدر الأفشين وخيانته، مبيناً أنه لا يزال على دين المجوس، يتصف بالحقد، ويعمل على إثارة الفتن سِراً، قال في ذلك[1]:

الحـقُّ أبلـجُ والـسيوفُ عـوار   فحـذارِ مـن أسـدِ العرين حِذار

مـا كان لولا فحشُ غدرة خيذرٍ   لـيكونَ في الإسـلام عـام فجّـار

مـا زالَ سِرُّ الكفـرِ بين ضُلوعِهِ   حتى اصطلى سرَ الزناد الواري

نـاراً يـساورُ جسمه مـن حرِّها   لهـبٌ كمـا عـصفرت شـق إزار

صـلّى لهـا حـيّاً وكـان وَقُـودَهَا   ميّـتاً ويدخُلـها مـع الفُجّـار

وكـذاكَ أهـلُ النارِ في الدنيا هم   يـومَ القـيامة جُـلُّ أهـل الـنَّار

[1] ديوان أبي تمام، ج2/ 198- 203.

ولم يكد المازيار قد بدا دعوته حتى قُبض عليه، وكان مصيره صلباً إلى جانب بابك في سامِراء وذلك لأنّهُ يمثل الغدر واللؤم، وعرَّض ابن الزيات بذلك قائلاً[1]:

والمازيـــارُ وقـــد تقلَّـــدَ غـــدرةً ... قطعَـــتْ نـــياط فـــؤادِهِ ووتيـــنَهُ
مـن بعد ما جعل الشواهق عصمة ... وصياصــــيا بـــضلاله يغـــرينه
ظـــناً بـــأنَّ الغـــدْرَ يمـــنع أهلَـــهُ ... كَـــذِباً فكـــذَّبت الحـــتوفُ ظـــنونَهُ

وبذلك تم إنهاء تمرد البابكية والمازيارية، وإخماد تمرد الخُرمية، واستبشر المسلمون بذلك كثيراً، وأخذوا يتحدثون عن هذا النصر كأحاديث الناس المستبشرة بانهمار الغيث والمطر، كما يقول أبو تمام[2]:

يـا مـشهداً صَـدَرتْ بفرحته إلى ... أمـصارها القصوى بنو الأمصار
رمقــوا أعالــي جذعِــهِ فكأنمــا ... وجـدوا الهِـلال عـشيَّةَ الإفطـار
وتحدثـوا عن هلكه كحديث من ... بالــبدو عــن متــتابع الأمطــار
وتباشــروا كتباشــر الحــرمين في ... قُحــمِ الــسنين بأرخص الأسعارِ
ولقد شفى الأحشاءَ من بُرحائها ... أن صــارَ بابــك جــار مازيَّــار

---

(1) شعر ابن الزيات، ص 280.
المازيار: هـو المازيـار بـن قارن، أحد قادة المعتصم، عصى وأظهر الخلاف على المعتصم سنة (224هـ)، فقاتله المعتصم وأسر وجيء به إلى سامراء.
الصياصي: الحصون. الوتين: عرق القلب.
(2) ديوان أبي تمام، ج2/ 204- 207.

الفصل الرابع

"الأحباش والزِّطُّ والزِّنوج والأمم الأخرى"

- أولاً: العرب والأحباش
  - نسبهم وصفاتهم
- ثانياً: الزّط وتمثيلاتهم في الشعر العربي
- ثالثاً: الزِّنوج، ثورة الزنوج وصدى ذلك في الشعر
  - ابن الرومي بين التصوير والتحريض
- رابعاً: مظاهر من حضارة الآخر في الشعر العربي
  - وصف الساقية/ الساقي
  - الأعياد والمناسبات
  - مظاهر التسلية والألعاب
- خامساً: العرب والهند

الفصل الرابع

"الأحباش والزُّطّ والزِّنوج والأمم الأخرى"

أولاً: العرب والأحباش

تقع الحبشة في مجاورة بلاد العرب، وقد أَقام العرب علاقات تجارية مع الحبشة منذ العصر الجاهلي، كما وجد العبيد من السود الذين ينتسبون إلى الحبشة في الجزيرة العربية وكانت العلاقة مع الحبشة ذات طابع عِدائي، فقد غزا الأحباش بلاد العرب (اليمن) في عهد الدولة الحميرية، وانتشرت الديانة النصرانية في بلاد اليمن والجزيرة العربية عن طريق الحبشة التي كانت على صلات ثقافيةٍ ودينيةٍ وسياسيةٍ مع الرُّوم الذين يدينون بالنصرانية كما ظهرت الديانة اليهودية وتسرَّبت إلى بعض القبائل العربية، وقد عمل الأحباش على نشر المسيحية وتنصير أهل البلاد الجنوبية؛ لكي تكون هذه البلاد منافسة لمكة الوثنية في جزيرة العرب، حيث أقام أبرهة الحبشي أكبر كنيسة نصرانية في اليمن (القليس) لمنافسة مكة الوثنية، وكان الأعشى الشاعر قد وصفها بكعبة نجران، يقول[1]:

وكعبةُ نجرانَ حَتمٌ عليـ ـكَ حتّى تُناخى بأبوابها
نزورُ يزيدَ وعبد المسيح وقيساً هُمُ خير أربابها

---

(1) الأعشى، ميمون قيس، ديوان الأعشى الكبير، شرح وتعليق: محمد محمد حسين، مؤسسة الرسالة، بيروت، (ط7)، 1983م، ص 223.

وأخذ العرب يشعرون بخطر الأحباش وتهديدهم المستمر لوجودهم وكياناتهم القبلية، عندما اصطدم الأحباش مع العرب في حوادث كثيرة، لذلك بدأ الشعور والإحساس بالقومية العربية في نفوس العرب، وغدا أمراً ضرورياً، فأخذ العرب يتحسسون واقعهم، ويتخلّون عن نزاعاتهم القبلية والطائفية شيئاً فشيئاً، للوصول إلى هُويَّة عربية تجمع القبائل العربية المتفرقة في مواجهة الأخطار الخارجية- ولاسيما خطر الأحباش- وظهرت الحنفية بين القبائل العربية، ودانوا لها، وعملوا على نشرها، وهي تمثل الفكر العقائدي لدى العرب في مواجهة العقيدة النصرانية التي يدين بها الأحباش ومن ورائهم الرُّومان[1].

وكانت علاقة الأحباش مع العرب ترتكز على الصراع العقائدي أو الديني، منذ عام (571م)، وقيام أبرهة الحبشي بغزو الجزيرة العربية قاصداً مكة المكرمة، وهو العام الذي سُمِّي عام الفيل، ولكن حملة أبرهة الحبشي أخفقت وانتهت بالفشل الذريع، حيث أرسل الله طيراً أبابيل ترمي أبرهة وجيشه بحجارة من سجيل حتى تم القضاء عليه قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾[2].

---

(1) ينظر: ضيف، شوقي، الشعر العربي وطوابعه الشعبية على مرّ العصور، دار المعارف، مصر (ط2)، ص 39- 41.

وينظر: بدوي، عبده، السود والحضارة العربية، ص 85.

(2) القرآن الكريم، سورة الفيل.

منذ ذلك الزمن ارتبط ذكر الحبشة عند العرب بحادثة الفيل، ومن ثَمة بحادثة قتل سيف بن ذي يزن غدراً على أيدي الأحباش، بعد أن استطاع جمع شتات القبائل العربية، وتمكن من طرد الأحباش واستعادة اليمن إلى حكم العرب بالاستعانة بالفرس، وأدّى ذلك إلى زيادة نفوذ الفرس في العرب[1].

نسبهم وصفاتهم:

ارتبط الأحباش باللون الأسود، فهم من فئة السود، وينتسب الأحباش إلى حبش بن كوش بن نوح وهم جنسٌ من السودان.

ويقال: الأحبش والحبشان، وأحبشت المرأة: إذا جاءت به حبشي اللون[2] وفي تأكيد نسبهم إلى (حام بن نوح) وشدة سوادهم، ما أشار إلى ذلك نصيب الشاعر الأسود، يقول[3]:

أخٌ لِي مَنْ بَنِي حَامِ بن نُوحٍ ... كَأنَّ جَبِيْنَهُ حَجَرُ المَقَامِ

وظلت علاقة العداء بين العرب والأحباش إلى ظهور الإسلام، فتحولت النظرة السلبية إلى الأحباش إلى صورة إيجابية في العصر الإسلامي، فكان النجاشي على الحبشة، وفي عهد النجاشي عُقدت المواثيق والأحلاف التجارية بين عرب الشمال وعرب الجنوب، وتحوَّلت الحبشة إلى مركز تجاري واقتصادي بالنسبة لقبائل العرب، وكانت رحلة

---

(1) القالي، أبو علي، الأمالي، ج2/ 269.

(2) ينظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة (حبش).

(3) الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد، (ت 429هـ)، **الكناية والتعريض**، تحقيق: عائشة حسين فريد، منشورات دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، (ط1)، 1998م، ص 92.

الشتاء والصيف، في الشتاء إلى بلاد اليمن، وفي الصيف إلى بلاد الشام، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ﴾[1].

وقام الأحباش بدور إيجابي في نصرة الرسول ﷺ والدين الإسلامي، فقد حظيت الحبشة بهجرة المسلمين والصحابة، فراراً من أذى قريش، وقدموا إلى النجاشي، فأكرمهم وأحسن ضيافتهم، ونصرهم فتحولت النظرة السلبية والعدائية إلى صورة إيجابية لدى العرب، وأقيمت صلات حسنة بين العرب المسلمين والأحباش، كما وردت بعض الأحاديث التي تحث المسلمين على التعامل مع أهل الحبشة برفق وإحسان، تقديراً لدورهم في نصرة الإسلام، ومن ذلك ما ورد أن الرسول ﷺ قال[2]: "اتخذوا السودان فإن ثلاثة منهم من سادات أهل الحبشة: لقمان الحكيم والنجاشي، وبلال المؤذّن". وفي فضل من له السبق في الإسلام، روي عن أنس ابن مالك قال: إن الرسول ﷺ قال[3]: "السباق أربعة: أنا سابق العرب، وصهيب سابق الرُّوم، وسلمان سابق الفرس، وبلال سابق الحبش".

---

(1) القرآن الكريم، سورة قريش، 1- 3.

(2) الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ج4/ 235.
وينظر: الهندي، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، ج9/ 70.
العجلوني: كشف الخفاء، ج1/ 31.

(3) المصدر نفسه، ج9/ 305. هكذا ورد، وأظنه: السابقون أو السبّاقون.
وينظر: الهندي، كنز العمال، ج11/ 408، رقم الحديث (31909).

وأمّا خصال الأحباش وصفاتهم، فأبرزها: شدة سواد اللون، وجعودة الشعر، وغيرها من الصفات التي ذكرها المؤرخون والشعراء للسودان عامة، منها: "تفلفل الشعر وخفّة اللّحا، وانتشار المنخرين، وغلظ الشفاه، وتحدد الأسنان وسواد اللون وكثرة الطرب، ....، ومن أممهم الحبش"[1].

وفي العصر الأموي، تختفي النظرة الإيجابية للأحباش، ونجد صورة الأحباش تعود إلى ما كانت عليه قبل الإسلام من سلبية وانتقاص، واستمرت تلك الصورة في العصر العباسي أيضاً.وصورة السود والأحباش في الشعر العربي مضطربة، معظمها صورة سلبية لا تخلو من الانتقاص، كما تتسم بالدونية، فيرد الهجاء باللون الأسود، وقد يشبّه الشاعر الحيوان كالبقر الوحشي، أو الإبل بالحبشان لسواده، ومن صورة الأحباش في الشعر، هجاؤهم بسواد الجلدة، وعظم الشفاه، وصفتي الشر واللؤم التي ارتبطت بالسودان عامة والأحباش بشكل خاص، مما شكل تلك النظرة الدونية، يقول عبد الله بن الزَّبير[2]:

وأنتم بني حامِ بن نُوحٍ أرى لكم — شِفاهاً كأذنابِ المَشافر وُرَّمَا
فإنْ قلتَ خَالي من قُريشٍ فلم أجدْ — من الناسِ شَرّاً من أبيك والأما
رأى جلدةً من آل حامٍ متينةً — ورأساً كأمثالِ الجَريبِ مؤَوّمَا

---

(1) أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل أبي الفداء (ت 732هـ)، المختصر في تاريخ البشر، منشورا المطبعة الحسينية المصرية، (ط1)، د.ت، ج1/ 95.

(2) عبد الله بن الزَّبير، (ت 75هـ)، شعر عبد الله بن الزبير، جمع وتحقيق: يحيى الجبوري، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1974م، ص 128.

عبد الله بن الزبير: هو ابن الأشيم بن قيس بن منقذ بن أسد بن خزيمة، شاعر كوفي، من شعراء الدولة الأموية، وهو أحد الهجائين المرهوب شرهم.

وكنتم سقيطاً في ثقيفٍ مكانكم بني العبد لا توفي دماؤكم دما[1]

وهجا يزيد بن مفرِّغ الحميري عناداً بن زياد، بأن أُمَّهِ حبشية، ويعيَّرهُ بسوادها، وهي تشبه النعامة في سوادها، يقول[2]:

لهفي على الأمر الذي كانت عواقبُهُ ندامة
وتبعتُ عبدَ بني علا جٍ تلك أشراط القيامة
جَاءَتْ به حبشيّةٌ سكّاءُ تحسبُها نعامة
فالهولُ يركبُهُ الفتى حَذَر المخازي والسآمة
والعبدُ يقرعُ بالعصا والحرُّ تكفيه الملامة[3]

ويصف بعض الشعراء نشاط البقر الوحشي والإبل بالحبشي، فيصبح الحبش مادة للتشبيه حيث يشبَّه الحيوان بالحبش، بدلالة اللون الأسود، وقد يشبّه الشعراء الحبشي بالزق الذبيح وقد قُطّعت أوصاله، وفي ذلك يقول العلوي الأصفهاني الشاعر[4]:

عَجِبْتُ من حَبَشيٍّ لا حَراكَ بهِ لا يُدركُ الثأرَ إلا وهو مَذبوحُ

---

(1) الجريب: نوع من المكاييل. المؤوم: هو عظيم الرأس. السقيط: الأحمق، الناقص العقل.

(2) الحميري، يزيد بن مفرّغ، (ت 69هـ)، ديوان يزيد الحميري، ص 209- 215.

(3) لهف نفسي: من اللهف وهو الأسى والحزن على شيء يفوتك. بني علاج: من ثقيف، منهم الحارث بن كلدة، وهو مولى عُبيد الذي ولد زياد وعلى فراشه. سكاء: صغيرة الأذن، وشبهها بالنعام لطول رقبتها وصغر أذنيها.

(4) العسكري، أبو هلال، الحسن بن عبد الله العسكري، (ت 395هـ)، **ديوان المعاني**، منشورات مكتبة القدسي، القاهرة، 1352هـ، ج1/ 329.

طَوراً يُرى وهو بين الشُّربِ مُضْطَجعٌ　　رغـو الـزِّقاقِ وطَـوراً وهـو مَـشْبوحُ

ومن وصف النعام بالحبش، قول الشاعر[1]:

ومَجُـــودٍ زَعـــلٍ ظِلْمانُـــهُ　　كَـرِجالِ الحَبْشِ بَـرْدى بالعَمَـدْ

ويشبّه النابغة الجعدي طول رقبة النعام، بالأحباش[2]:

وإذا نحـــن بإجـــلٍ نافـــرٍ　　ونَعَـامٍ خَـيطُهُ مِـثلُ الحَـبش[3]

كما ويشبّه الشاعر سواد العنب والنخيل بالزنج والحبشان، لسوادهما[4]:

مــن كــرومٍ تمايلــت بعناقـيـ　　ـدٍ كجُعـد الـزنوجِ والحُبـشان

وقوله[5]:

ونخيلٍ وَقَفْـنَ في معطف الرملِ　　وقــوف الحُبــشان في التــيجان

وجملـة الأمـر في علاقـة العـرب بالحـبش، أن نظـرة العـرب إلى الأحباش نظرة سلبية دونية في العصر الجاهلي، حيث كانت علاقة العرب

---

(1) ديوان عدي بن زيد، ص 43.

(2) الـنابغة الجعـدي، عـبد الله بـن قيس بن جعدة، (ت.ح 50هـ)، ديوان النابغة الجعدي، تحقيق: واضح الصمد، دار صادر، بيروت،(ط1)، 1998م، ص 103.

(3) **الأجل**: القطيع من الظباء. **الخيط**: جماعة النعام.

(4) العسكري، أبو هلال، ديوان المعاني، ج2/ 42.

(5) المصدر السابق، ج2/ 42.

بالأحباش قائمة على الغزو والقتال في العصر الجاهلي، وكانت الحبشة مركزاً من مراكز الرقيق الأسود الذي تدفق إلى جزيرة العرب واصطبغ الصراع مع الحبش بالصبغة الدينية والسياسية، وظلت نظرة الازدراء إلى السود حتى قبيل ظهور الإسلام، إذ تحوّل الصراع مع الحبش إلى صبغة دينية سياسية، وظلّت القبائل العربية في توتر وصراع من الأحباش، وعندما ظهر الإسلام واشتد أذى المشركين، أشار الرسول ﷺ على أصحابه بالهجرة من مكة إلى جوار النجاشي ملك الحبشة لما اتصف به من عدل وتسامح، فأكرمهم وأحسن استقبالهم، ومنذ ذلك الزمن تحولت نظرة العرب والمسلمين إلى أهل الحبشة إلى نظرة تقدير واحترام، وحسن جوار، وارتبطت هذه المنزلة والمكانة بملك الحبشة لدوره الكبير في نصرة الدين، وظلت تلك المنزلة الحسنة طوال العصر الإسلامي.

وفي العصر الأموي تحوّلت نظرة العرب إلى السود عامة- والأحباش خاصة إلى نظرة ازدراء وانتقاص، فكرّست الدولة الأموية الطابع القبلي، وأعلت من شأن العرب في مقابل اضطهاد الآخر من الأجناس غير العربية ومنهم الأحباش، فعادت صورة السود والأحباش إلى سابق عهدها من دونية وسلبية، وانعكس ذلك في شعر العصر الأموي، وبرز هجاء السود لسوادهم، واستمرت تلك الصورة السلبية في العصر العباسي، وكانت نظرة الدولة والمجتمع العباسي لهم نظرة انتقاص ودونية، فهم عبيد يقومون بخدمة أسيادهم، وكان السود في أدنى طبقات المجتمع، وظهرت حركة الزنج ومعظمهم من السود في محاولة للتخلّص من القهر والذل الذي كانوا يعانونه من أسيادهم، ومثّلت ثورة الزنج ثورة اجتماعية تطالب بالتحرر الاجتماعي.

السود والتمثيل الشعري:

كان السود في منزلة اجتماعية متدنية في العصر الأموي، ومعظمهم من بلاد الحبشة وأفريقيا، عملوا في الزراعة والصناعة، وخدمة أسيادهم، وبرز من هؤلاء السود من أجاد في نظم الشعر، إلاّ أنهم لم يسلموا من النظرة الإزدرائية الدونية، وتعرضوا إلى الهجاء من بعض الشعراء البيض لسواد جلدتهم، مما أثار غضبهم وحنقهم، فانتصروا لأنفسهم وسوادهم، ومن هؤلاء الشعراء السود، الحيقطان الشاعر فقد روي أن جريراً مرَّ به ذات يوم فرآه يلبس في يوم عيدٍ قميصاً أبيض على جسمه الأسود، فتهكَّم به جرير وقال ساخراً منه[1]:

كأنَّهُ لمَّا بدا للناس ... أيرُ حُمارٍ لُفَّ في قرطاسِ

ولمّا سَمِع الحيقطان هذا البيت اغتمَّ وغضب غضباً شديداً، وردَّ على جرير في قصيدة يهجو فيها جريراً والعرب عامّة، وافتخر بقومه السود من الأحباش، وهي قصيدة يحتج بها العجم والأحباش على العرب، ويقول فيها[2]:

لئن كنتُ جَعْدَ الرَّأسِ والجلدُ فاحمٌ ... فإنّي لَسَبْطُ الكفِّ والعِرضُ أزهرُ

---

(1) ديوان جرير، ج2/ 1030.

(2) الجاحظ، رسائل الجاحظ "فخر السودان على البيضان، ج1/ 183.

وينظر: بدوي، عبده، الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1988م، ص 150.

الحيقطان: من شعراء الدولة الأموية، أحد الشعراء السود، كان خطيباً لا يجاري، وأصل (الحيقطان): طائر الدرّاج.

وإنَ سـوادَ اللـون لـيس بـضائِري ... إذا كـنتُ يـوم الـرَّوع بالسَّيف أخطرُ
فـإن كـنتَ تبغـي الفخرَ في غير كنهه ... فَرهطُ النَّجاشي منك في الناس أفخرُ
تأبّـى الجَلَنْدي وابنُ كسرى وحارثٌ ... وهَـوذةُ والقِبطـيُّ والـشيخُ قيـصرُ
وفـاز بهـا دونَ الملـوك سـعادةً ... فـدامَ لـه الملـكُ المنـيعُ الموقَّـرُ
غـزاكم أبـو يكـسومَ في أمِّ داركـم ... وأنـتم كَقِبْص الـرَّملِ أو هـو أكثرُ

فالشاعر يفتخر بكرم أخلاقه ونقاء عرضه، وإن كان أسود الجلدة، جعد الرأس والشَعْر فإنه شجاع وسمح الأخلاق، وسواد لونه لا يضيره، كما يفخر بالنجاشي الذي نصر المسلمين وآواهم، وبكثرة من أسلم من الأحباش، في حين تأبّى غير النجاشي على نصرة الدين والإيمان بالله، ولذلك زال ملكهم، ودام ملك النجاشي وعزه المنيع.

ويتعرض الشاعر إلى هجاء جرير والعرب عامة وسلبهم من المكارم، ويذكّر العرب بغزو أبرهة الحبشي لبلادهم، كما يقارن بين حضارة الحبشة وحضارة العرب التي لا مصيف فيها ولا مشتى، يقول[1]:

وقُلـتم لَقَـاحٌ لا نُـؤدِّي إتـاوةً ... فإعطـاءُ أريـانٍ مـن الفَـرِّ أيـسرُ
ولـو كـان فـيها رغـبةٌ لمـتوِّجٍ ... إذاً لأتـتها بالمقَـاول حمـيرُ
ولـيس بهـا مـشتىً ولا متـصيَّف ... ولا كجُـؤاثاً ماؤهـا يتفجَّـرُ
ولا مـرتعٌ للعـين أو متقـنَّصٍ ... ولكـنَّ نجـراً والـتجارةُ تُحقَـرُ
ألـستَ كليبـيّاً وأمُّـكَ نعجـةً ... لكـم في سِمان الضَّأن عارٌ ومَفخرُ[2]

---

(1) الجاحظ، البيان والتبيين، ج1/ 184.

(2) لقاح: لا يدينون للملوك. **الأتاوة**: الخراج أو الجزية. **جؤاثا**: حصن لعبد القيس.

وكـان أحد الشعراء السود قد هجا بني أسد[1]، عندما سمع أحد شـعراء بـني أسـد يُعـرِّض بالـسود مـن الزنج وأهل النوبة، ويسخر منهم ويطعن في أنسابهم، قائلاً:

لا تفخَـرنَّ بخـالٍ مـن بـني أسد　　فـإنَّ أكـرَمَ مـنها الزِّنج والنُّوبُ

فرد عكيم الحبشي على هذا التعريض بهجاء بني أسد والعرب عامة في قصيدة، يفخر فيها بأهل الحبشة والزنوج والسود عامة ويعرِّض بالعرب، يقول[2]:

ويـومَ غُمـدانَ كُنَّا الأُسـدَ قد علموا　　ويــومَ يثـربَ كـنَّا فِحلـةَ العــربِ
ولــيلةَ الفـيلِ إذ طــارتْ قلــوبهمُ　　وكلُّهــم هــاربٌ مــوُفٍ علــى قَـتَبِ
منَّا النَّجاشـي ذو العقـصين صهركم　　وجـدُّ أبـرهةَ الحامـي أبِـي طَلَـبِ
هَـبْني غفــرتُ لعــدنانٍ تهكُّمَهــم　　فَمَــا لحمــيرَ والمقــوال في النــسب
حَمَّــارة جُمعــت مــن كــل محــربةٍ　　جَمْعَ الشُّبيكة نُونَ الزَّاخر اللُّجبِ[3]

ومن مفاخر السودان والزنج قصيدة سنيح بن رباح التي يهجو فيها جريراً، ويفخر عليه بالزنج. فقد هجا جرير (بني تغلب) وعرّض بالزنج في قوله[4]:

---

(1) الجاحظ، البيان والتبيين، ج1/ 199.

(2) الجاحظ، رسائل الجاحظ، فخر السودان على البيضان، ج1/ 199.
عكيم الحبشي: لعله حكيم بن عياش، المعروف بالأعور الكلبي، شاعر مجيد انقطع إلى بني أمية، ثم انتقل إلى الكوفة. (ياقوت، معجم الأدباء، ج10/ 247).

(3) **غمـدان**: حـصن في الـيمن. **ذو العقـصين**: أشـارة إلى الأسكندر المقدوني الملقب بذي القرنين **العقص**: ضرب من ضفر الشعر. **النون**: السمك والحوت أيضاً.

(4) ديوان شرح ديوان جرير، ج2/ 453.

لا تَطْلُبَنَّ خُؤولةً في تغلبٍ فالزِّنجُ أكرمُ منهُم أخْوالا

فغضب سنيح بن رباح من هذا التعريض، وهجا جريراً بقصيدة طويلة، يفخر فيها بالزنج منها[1]:

مابالُ كَلبٍ من كُليبٍ سَبُّنا إن لم يُوازنُ حاجباً وعِقالا
والزِّنجُ لو لاقيتَهم في صفِّهم لاقيتَ ثَمَّ جحاجحاً أبطالا
أبناءُ كُلِّ نجيبةٍ لنجيبةٍ أُسْدٌ تُربِّب عندَها الأشبالا
فَلَنَحن أنجبُ من كُليب خُؤولةً وَلأنتَ الأمُ منهم أخوالا

ثانياً: الزّط وتمثيلاتهم في الشعر العربي

الزّط من الأقوام والأجناس غير العربية، وجدت في مجتمع الدولة العربية منذ العصور القديمة، وعَرَف العرب الزّط، واختلطوا بهم- ولاسيما في العصر العباسي، وظهرت تمثيلات الزّط في الشعر العربي.

والزّط: جيلٌ أسود من السِّند، وقيل: هم جيلٌ من أهل الهند، تُنسب إليهم الثياب الزّطيّة والأزطُّ: صفة للمستوي الوجه، قال عوهم ابن عبد الله الشاعر في ذكر الزّط[2]:

---

(1) الجاحظ، رسائل الجاحظ، فخر السودان على البيضان، ج1/ 190- 191.
سنيح بن رباح: أحد الشعراء السود، مولى بني ناجية.

(2) ابن منظور، لسان العرب، (ز ط ط).
الزّط: كلمة معربة عن (جت) الفارسية، بالضم والكسر والفتح، أطلقت على جماعات من أصول هندية، نزحت في عصور ما قبل الإسلام إلى فارس وانتقلت إلى ثغور الخليج (واسط والبصرة)، وهم يعرفون بالغجر أو النور في العصر الحديث.

ونفى الزّط عبد القيس عنا وتكفينا الأساورةُ المزونا

وقال شاعر آخر:

فجئنا بيحيى وائلٍ، وبَلّغها وجاءت تميمُ زُطُّها والأساور

وقال أبو النجم: كان خالد بن عبد الله أعطاه جارية من سبي الهند، فقال فيها أرجوزة أوّلها[1]:

عُلّقت خوداً من بنات الزّط

والزّط هم طائفة من الهنود، تقع منازلهم في بلوخستان والسند والبنجاب، ويمتازون[2] بالقامة الطويلة المتوسطة، وغزارة الشَّعر، وضخامة الأنوف، ويدينون بديانات متعددة وبعد تعرَّض بلادهم للقحط والمجاعات الكثيرة والمتكررة هاجروا إلى البصرة، واستقروا فيها فازداد عددهم، وكانوا يشكلون أقلية عرقية في الدولة العربية.

وكان الحجاج قد أتى بخلق من زط السند وأسكنهم بأسافل كسكر، فتناسلوا بها وغلبوا على البطيحة، وانضمّ إليهم أقوام من العبيد والموالي فشجعوهم على قطع الطريق والخروج على السلطان، فاتخذوا اللصوصية وقطع الطريق، وعُرفوا بالسلب والنهب في أعمالهم، ولمّا عَظُمَ أمرهم نقل الوليدُ بن عبد الملك قوماً منهم وأبعدهم إلى أنطاكية[3].

---

(1) المصدر نفسه، المادة نفسها.

(2) البلاذري، فتوح البلدان، ص 362.

(3) المصدر نفسه، ص 364- 365.

وفي العصر العباسي ازداد خطر الزّط، وأصبحوا من أخلاط الناس، وغلبوا على طريق البصرة، وقطعوا الطريق، واتخذوا السطو وسيلة لهم، فأفسدوا في البلاد وقام على أمرهم "أبو سالمة الزّطي"، وعندما تمادى الزّط في تمردهم ولصوصيتهم وخروجهم على سلطان الدولة، وما أحدثوه من فساد في البلاد، ونهب غلاَّت الأرض، انتدب المعتصم "عجيف ابن عنبسة" لقتالهم، فقاتلهم وأغلق عليهم المنافذ وقتل منهم: ثلاثمائة رجل، وأسر خمسمائة، وبذلك أنهى تمردهم وعصيانهم، ثم قام المعتصم بإخراج من بقي منهم إلى "عين زربة"، وخلَّص البلاد من شرورهم ولصوصيتهم[1].

وأمّا تمثيلات الزّط في الشعر العربي فغير واضحة المعالم، ويلفها الغموض، وتوحي بكثير من التشويش والاضطراب، ومعظم ما وقع لدي من شعر يتعلق بالزّط، عبارة عن أبيات مفردة، يرد الزّط فيها على وجه التشبيه، أو مقطَّعات قصيرة، تعرض حادثة قتلهم في بغداد حيناً آخر.

ومما ورد من أمر الزّط وتمردهم وفسادهم في الأَرض، وما آلوا إليه نتيجة جهلهم ولصوصيتهم وعصيانهم، وما أصابهم من إذلال على يد المعتصم، قول علي بن الجهم[2]:

وَجَمْعُ الزُّطِّ حِيْنَ عَمُوا وصَمُّوا ... عن الدَّاعِي إلى دار السَّلامِ
أَطَلَّ عَلَيهمُ يومٌ عبوسٌ ... (تَعَوَّذُ) منه أيام الحِمامِ

---

(1) انظر: الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج9/ 10.
وينظر: ضيف، شوقي، الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور، ص 69.
(2) ديوان علي بن الجهم، ص 10- 11.

ومن الصفات التي لازمت الزّط، قطع الطريق واللصوصية، والتمرد على النظام والقانون، وعدم الخضوع إلى سلطان الخليفة، حتى أخضعهم المعتصم إلى الطاعة بعد أن كانوا لا يدينون لأي حكم وأبعدهم إلى حدود الروم، بعد أن عفى عن بعضهم، يقول ابن الزيات في مدح المعتصم[1]:

والزّط أيٌّ خليفة دانوا له ... أو كان قبلك طاعةً يعطونه
حتى ملكتَ وظلّ سيفك منهم ... تكسو الدّماء شِفارهُ ومتُونَه
فأتوا بحكمك والذي كانوا به ... يعصونَ جَدَّعت الظبا عرنِينَهُ
فعفوت إنك لم تزل ذا رأفة ... حَسِنَ الفعِال مُباركاً ميمونه

فالشاعر يصوّر جماعة الزّط بأنهم متمردون ولصوص، لا يخضعون إلى النظام والقانون، يثورون ويقطعون الطرق قبل أيام المعتصم، ولكن المعتصم أخضعهم لسلطة القانون والنظام وأذلهم، فأقبلوا خاضعين مستسلمين، فعفا عنهم وأبعدهم إلى ثغر عين زربة[2].

ويصف دعبل الخزاعي مشهد صلب جماعة من الزّط، كانوا قد صفوا معاً في خط واحد، فيصف حالهم، وقد تهيأوا للصلب، يقول[3]:

ولم أرَ صفاً مِثل صفٌ الزّط
تسعين منهم صُلبوا في خطٌ

---

(1) ديوان ابن الزيات، ص 278.
(2) **عين زربة**: أو عين زَرْبَى بفتح الزاي وسكون الراء، وهي بلد من نواحي المصيصة على الثغور، قريبة من طرسوس الآن.
(3) **ديوان دعبل الخزاعي**، جمع وتحقيق: عبد الصاحب الدجيلي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، (ط2)، 1972م، ص 224.

كأنّمـــــا غمـــــستهم في نفــــط
مـــن كـــان عـــالٍ جذعُـــهُ بالـــشطّ
أخـــو نعـــاسٍ وجـــدٌّ في التمطـــيّ
وقـــد خامـــر الـــنومَ ولم تغِـــطّ[1]

فقد صُلبوا وأذلوا، فمنهم جماعات معلقة على جذوع الأشجار، يغطّون في نعاسهم وكأن أجسامهم مغموسة في نفط أسود، شديد الحرارة، والزّط من الفئات غير العربية التي لم تسلم من ألسنة الشعراء الهجائيين[2] سواء كانوا من العرب أم من أصول غير عربية.

ثالثاً: ثورة الزِّنوج وصدى ذلك في الشعر العربي

كانـت الحـروب من المصادر الرئيسة للرقيق من العبيد وغيرهـم، تلـك الحـروب الـتي خاضـها العـرب المـسلمون ضـد الدولتين الفارسية والبيزنطيّة أثناء الفتوحات الإسلامية، فانتشر الرقيق في الدولة العربية من الـسود والبـيض علـى حـدٍ سواء، باعتبار الرقيق مظهراً من مظاهر الجاه والـنفوذ والثراء وكثر الرقيق في قصور الخلفاء والأمراء والولاة والأثرياء وعمـل الـرقيق في خدمة أسيادهم وأعمال الزراعة والصناعة وغيرها.أمّا العبـيد السود فقد جلبهم العرب المسلمون من أفريقيا، وهي أرض الزنج والتي عرفها العرب بِـ (زنجبار أو زنزبار) وكانت تمتد من الأجزاء الشرقية لأفريقيا حتى الحبشة[3].

---

(1) **الشط**: جانب النهر. **المشتط**: الطويل.

(2) البطايـنة، سامي، <u>الهجاء في العصر العباسي الأول</u>، جامعة القديس يوسف، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة اليرموك، 1987، ص 78.

(3) ينظـر: الـسامرائي، فيـصل، <u>ثـورة الـزنج</u>، منـشورات دار المـدى، دمـشق، (ط2)، 2000م، ص 19- 20.

ويُطلق لفظ (الزَنج أو الزِنج أو الزنج) على جميع العبيد السود أحياناً[1] ومعظمهم من الزِّنوج الذين جلبهم العرب من مواطنهم الأصلية ومن بلادهم واستقروا في بلاد العرب يعملون في حراثة الأرض وخدمة الأسياد في البيوت ولمّا كثر الزِّنوج انتشرت تجارة "النخاسة".

وكانت نظرة العرب إلى الزِّنوج نظرة ازدراء وانتقاص، لما عرفوه عنهم من صفات سلبية كقلة المعرفة ونقص العقول، إضافة إلى طبيعة أعمالهم في الأرض والصناعة، بالإضافة إلى سوادهم، ولذلك فهم لا يقدرون عواقب الأمور، واتصفوا بالهمجيّة.

وكان أكثرهم "عبيداً لدهاقين البصرة وبناتهم"[2]، كما كانت أوضاعهم قاسية وطبقتهم من أرذل طبقات المجتمع، أكثر أعمالهم في الحقول وفي خدمة البيوت.

وكان الزِّنوج يعانون الظلم والمعاملة القاسية والاضطهاد من أسيادهم في العصر الأموي، وكانوا يعيشون في بؤس وضنك شديدين، ليس لهم من أمر إلا تنفيذ ما يطلبُه منهم أسيادهم من أعمال الزراعة وأعمال الخدمة، ولعل حياتهم الاجتماعية وما عانوه من قهر وامتهان في المجتمع يفسِّر تمردهم وثورتهم في وجه أسيادهم فيما بعد والتي عُرفت بثورة الزنج (255هـ)[3]، وضمّت حركة الزِّنوج وثورتهم عناصر أخرى

---

(1) المرجع نفسه، ص 23.

(2) ابن أبي الحديد، <u>شرح نهج البلاغة</u>، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، (ط1)، 1987م، ج8/ 126.

وينظر الفصل الذي عقده ابن أبي الحديد حول فتنة الزنج: ج8/ 126- 214.

زنزبار: في ساحل أفريقيا الشرقي، كان هذا الساحل خاضعاً للعرب منذ أقدم العصور، اطلق عليها بلاد الزنج وأرض الزنج.

(3) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج9/ 431- 437.

من الأجناس غير العربية، كانت في ظاهرها ثورة اجتماعية تسعى إلى التحرر والتخلص من حياة البؤس والظلم والقهر التي كان الزِّنوج يعانونها من قبل أسيادهم.

وأخذت ثورة الزنج تمتد و تزداد قوتها، ونظّمت صفوفها، واستغّل هذا التمرد أحد الفرس من أهالي الطالقان فانضم إلى الزِّنوج، وادّعى أنه قدم إلى تحرير العبيد وإعادة حقوقهم وتحريرهم من قسوة أسيادهم، والتفتّ الزِّنوج حوله، كما لقيت هذه الدعوة قبولاً بين فئات العبيد، وتولى أمرهم، وخرج يبعث الرعب في المجتمع وينشر الفساد، وأكثر القتل بين الناس، وما لبث أن ادّعى النبوّة والغيب، فانحرفت ثورة الزنج عن هدفها الرئيس والمتمثل في المطالبة بالتحرر الاجتماعي، واتخذ العبيد السطو والسلب والقتل وهتك الأعراض هدفاً لهم، انتقاماً من أسيادهم، فدخلوا البصرة وروّعوا سكانها وأكثروا فيهم القتل والدمار وقطعوا الطريق إلى بغداد، وأخذوا يشكلون خطراً كبيراً على المجتمع والدولة في العصر العباسي.

ويظهر أن ثورة الزِّنوج لم تنطلق من أيديولوجيا راسخة أو هدف واضح، بل تشكّلت من أيديولوجيات متعددة، وتمثل تمرد طوائف العبيد من غير العرب، تلك الفئة التي كانت تشعر بالاضطهاد والظلم والحرمان، فبدأت تقتل وتدمِّر وتسلب واتخذت العنف والسطو والقتل سبيلاً لها من أجل ذلك، واتصفت أفعالهم بالهمجية والسلبية، حيث عاثوا في الأرض فساداً وخراباً. وبذلك انحرف مسار هذه الثورة من ثورة اجتماعية للمطالبة بالتحرر والمساواة إلى اللصوصية والنهب والسلب ودمار المدن، فانتهكوا الحرمات وسبوا الحرائر فارتكبوا المجازر اللاإنسانية،

مـن مـثل هـتك الأعـراض وتـرويع الآمـنين وربما يعود ذلك من أعمال إجـرامية وخراب ودمار بدافع من حرمانهم من الاستقرار العاطفي. فقد أبعـد الـزِّنوج عـن مواطنهم الأصلية وأسرهـم، وظلوا يقبعون تحت رحمة أسيادهم، وعاشوا في ظل أوضاع اجتماعية واقتصادية قاسية، مما أدى إلى تمـردهم وثـورتهم التي تمثل ردة فعل على أوضاعهم الاجتماعية وقهرهم وحرمانهم النفسي والجنسي.

وعـندما عظـم أثـرهم وخطـرهم، وأخذوا يهددون مركز الدولة العباسـية، وجّـه المهـتدي إلـيهم أحـد قادته بجيش كبير ولكنهم كانوا من القـوّة بحـيث لم يستطع إخضاعهم، ولجأوا إلى مهادنة العباسيين، وأظهروا أنهـم يريدون قتال الروم. كما أعلنوا تبرمهم وضيقهم من تسلط الأتراك وظلمهم، واستبدادهم. وفي ذلك يَقول شاعرهم مخاطباً بني العباسَ[1]:

بـني عمـّـنا إنّــا وَأنْـتُم أنامِــل ... تـضمُّها مـن راحتـيها عقـودُها
بـني عمّـنا وليـتم الـترك أمـرنا ... ونحـن قـديماً أصْـلُها وعمـودُها
فَمَـا بال عَجَمُ التُّركِ تُقْسِم فَيْئَنَا ... وَنَحـنُ لديها في البلاد شهودُها

وإذا صّـحت نـسبة الأبـيات إلى قائـد ثـورة الـزنج، فإن خطاب الـشاعر إلى بني العباس بأبناء العمومة ربما تدلل على فارسيته، لأنه يدعي النـسب إلى العلـويين، فيعـيب الـشاعر علـى العباسـيين تقديمهم الأتراك وتوليـتهم الإدارة قـيادة الجـيش وإقـصاء الفرس والعرب، ولذلك يضيق ذرعـاً بعجـم الـترك ومـن تـسلطهم ويـسعى إلى انتزاع السيادة من الترك وإعادتها إلى الفرس، فهم أصحاب الحق بها منذ القديم.

---

(1) ينظر: الحصري، زهر الآداب، ج1/ 331.

ويظهر أن زعيم هذه الثورة أحد الفرس الحاقدين اتخذ من الزّنوج والعبيد وسيلة لإعلان التمرد بدعوى تحريرهم ورفع الظلم عنهم، واتخذهم وسيلة في كسب تأييد العناصر غير العربية لمواجهة العرب الذين أخذوا يقدّمون العنصر التركي على الفرس(1).

وذكر البحتري أن أفعال الزّنوج همجية ليست إنسانية، بل هي أفعال وحشية، كما أن قائد الثورة يتصف بالمكر والخداع لشدة بطشه، يقول(2):

وَمَا كَانَ يدري صاحب الزّنج أنّه ... إذا أبطرته غفلة العيش صاحبُه
وكان صريع الحينِ جِبْسُ مُلعنُ ... متى شاءَ يوماً قال ما شاء عائبُه
تباعدَ عن شكل الأنيس بقسوةٍ ... موهمة أن السباع تناسبُه
ولم أرَ كالملعون أقوى ذخيرة ... وأبقَى دما للحادثات تجاذبُه

وخلاصة القول إن ثورة الزنج هي إحدى تمرد الآخر/ غير العربي، تلك الثورات والفتن التي لم تهدأ طوال العصر العباسي الأول، وكانت في ظاهر أمرها تدعو إلى تحرير الزنج، ورفض أحوالهم الاجتماعية المتردية، فاتخذت من دعوة تحرير العبيد من ظلم أسيادهم وقسوتهم، إطاراً و(ايديولوجيه) لها، ولكن الثورة انحرفت عن مسارها بفعل دخول عناصر كثيرة من الزنج ومن غيرهم في هذه الحركة، ولذلك كان باطن هذه الثورة، يسعى إلى زعزعة الحكم العربي، والذي تمثل في قائد تلك الثورة الذي كان يُضمر الحقد والكراهة للعرب، يضاف إلى ذلك دعوة

---

(1) ينظر: موافي، عثمان، التيارات الأجنبية في الشعر العربي، ص 190.

(2) ديوان البحتري. ج1/ 220- 221، وينظر ج1/ 222.

الجبس: الفاسق والجبان.

قائد الثورة الفارسي الأصل إلى القتل والنهب والسلب، وما نتج عن ذلك من ارتكاب المجازر والجرائم اللاإنسانية التي رافقت الثورة.

وثورة الزّنوج تمثّل ثورة العبيد في وجوه أسيادهم المتسلطين، انطلقت من واقع الألم والاضطهاد الاجتماعي الذي عانوه، وهي تمثّل في جانبها الآخر حِنق الآخر ونقمته على الدولة العربية، وتجسّد صراع الآخرين على السيادة في الدولة العباسية، وانعكس أثر هذه الثورة على الشعر العربي وصوّر الشعر همجية الزنج لاسيما ما حلَّ بالبصرة من دمار وخراب، ومن ذلك ما صوره أبو ناظرة السدوسي الشاعر[1]:

فكَمْ مِنْ رَحَىً دارتْ وَكَمْ من مصيبةٍ ... توالت ومن يومٍ هناك عصيبِ
على ألفِ ألفٍ مِنْ ملوك وسُوقةٍ ... ثَوَوْا بَيْنَ أبوابٍ لهم وَدَرُوبِ
مُفلّقةٌ هاماتُهم وشريدُهم ... شماطيطُ شَتَّى أوْجُهٍ وسُروبِ
عباديدُ من ناجٍ على جَذمٍ بغلةٍ ... ومن رازحٍ يشكو الكلالَ جنيب
ومن راسبٍ طافٍ على الماء شلْوه ... وذي ظمأ أودى به وسُغوبِ[2]

وكذلك صوّر عبد الله بن المعتز أفعال الزّنوج، وقد بين بعض الجرائم التي ارتكبوها فقد جعلوا الناس مغلغلين بعضهم يُحرق في النار،

---

(1) المبّرد، أبو العباس محمد بن يزيد، (ت 286)، التعازي والمراثي، تحقيق وتعليق: محمد الديباجي، منشورات مطبعة زيد بن حارثة، دمشق، د. ت، ص 283- 284.
أبو ناظرة السدوسي: هو أحد رجال العلم والمعرفة بكلام العرب، والأبيات من قصيدة يرثي فيها البصرة.
ينظر: السوداني، عبد الله، رثاء غير الإنسان في الشعر العربي، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي، 1990م، ص 38.

(2) **شماطيط**: أرهاط جمع لا مفرد له. **عباديد**: الأطراف المتقطّعة، **الشّلو**: الجسد من كل شيء **الضرب**: الجوع.

والآخر يلقا من الحيطان وتهديمْ بيوت الناس على ساكنيها يقول[1]:

وجعـــل الأســـرى مكتفيـــنا   أغـــراض نـــبل مغلغليـــنا
وبعـــضهم يُحـــرَق بالـــنيران   وبعـضهم يلقـى مـن الحـيطان
وبعـضهم يـصلب قـبل المـوت   وبعـضهم يـئن تحـت البـيت
وبعـــضهم مـــسمط مـــربوط   وبعـضهم في مـرجل مـسموط

وأمّـا ابـن الرومـي فقـد صـوّر خـراب البـصرة ودمارهـا بفعل الزّنوج، بقصيدة يرثي فيها البصرة وما حلّ بها من جرائم ومجازر ارتكبها هـؤلاء العبـيد، وهي قصيدة طويلة، تعد من أجمل القصائد في رثاء المدن، وتـصوير فظائـع الآخر، ومشاهد الخراب والدمار، والتحريض على الثأر من هؤلاء الزنج.

ابن الرومي بين التصوير والتحريض:

انطلقـت ثـورة الـزنج (255هـ) من واقع الاضطهاد الاجتماعي والـسياسي ومن القهر والكبت الذي عاشه العبيد في ظل أسيادهم، وكان العبـيد يسعون إلى التحرر الاجتماعي والانتفاض على الواقع الاجتماعي المريـر، ولكـن الـثورة انحـرفت عـن أهـدافها الحقيقية، وتحوّلت من ثورة اجتماعية إلى ثورة سياسية نتيجة لانضمام فئات وأجناس متعددة في ستار الـثورة، فاتخـذت طابع العنف والدمار والخراب، ممّا أدى إلى نتائج سلبية علـى المجتمع آنـذاك، وكان دمار البصرة وخرابها وتشريد أهلها من أبرز نـتائجها، حـيث عاث الزّنوج بالبصرة فساداً وخراباً، فانتهكوا الحُرمات،

(1) ديوان أشعار الأمير ابن المعتز، ج1/ 9.

وقتلوا النساء والأطفال، واستطاع صاحب الزنج- الذي ادّعى الميل إلى العلوية- كسب فئات كثيرة من هؤلاء العبيد والسود المضطهدين بدعوى تحريرهم من العبودية والاسترقاق وتخليصهم من ظلم أسيادهم، واتخذهم وسيلة لتحقيق مطامعه وأهدافه، وتمكن من زعزعة الخلافة الإسلامية ولذلك تعددت أبعاد الثورة وهذا التمرد الطائفي من أبعاد سياسيّة، تحولت إلى صراع سياسي مع السلطة المركزية، كما اتجهت اتجاهاً اجتماعياً بين فئة العبيد وأسيادهم، أو حتى صراع ديني بين المسلمين والخارجين على الإسلام والدين، كما ورد في الشعر.

وقد برز صدى هذا التمرد، وهذه الثورة في الشعر العربي؛ فقد ذكر الشعراء هذه الثورة ونتائجها وآثارها، وكان ابن الرومي قد رثى البصرة وما حلَّ بها من دمار وخراب في قصيدة طويلة، صوّر فيها الدمار والخراب الذي أصاب البصرة على أيدي الزنج، وتعد قصيدة ابن الرومي من الوثائق الأدبية المهمة التي تؤسس لثورة الزنج وتُبرز آثارها وعُنفها، إذ اتكأ عليها معظم من درس ثورة الزنج واتخذها شاهداً ودليلاً على عنف الثورة وهمجيتها وبشاعة أفعالها.

يفتتح الشاعر خطابه بالتفجع على مشاهد القتل والدمار المروِّعة التي أصابت البصرة من فعل أولئك الزّنوج، فيصوِّر أفعال الزّنوج تصويراً مُرعباً يقترن بالحرقة والألم والتفجع، تلك الصورة التي يبثُّها الشاعر بين ثنايا النص الشعري، يقول[1]:

ذادَ عن مُقْلتي لذيذ المنامِ شُغلها عنهُ بالدموعِ السجامِ

---

[1] ديوان، ابن الرومي، ج6/ 2377.

أيُّ نومٍ من بعد ما حل بالبصْـ ـرةِ من تلكم الهناتِ العظامِ
أيُّ نوم من بعد ما انتهك الزَّنـ ـجُ جهاراً محارم الإسلام
إنَّ هذا من الأمور لأمر كاد أن لا يقوم في الأوهام
أقدم الخائنُ اللعينُ عليها وعلى الله أيَّما إقدامِ
وتسمّى بغير حقٍّ إماماً لا هدى الله سعيَه من إمامِ

تمثّل الأبيات السابقة مطلع القصيدة وفيه يعلن الشاعر ألمه وحزنه العميق، هذا الحزن الذي حرمه من لذَّة النَّوم وأشغله بانهمار الدموع السجام، فما حلَّ بالبصرة من عظائم الأمور، ويقرن الشاعر أفعان الزِّنوج من قتل ودمار وخراب بالدين، وذلك لإخراج الثورة من إطار الإسلام فالزنج انتهكوا محارم الإسلام جهاراً وبذلك فهم أعداء للدين والمجتمع، وإنَّ مشاهد القتل والسلب والهدم لا تكاد تُصدّق لشدة بشاعتها وفظاعة المجازر التي ارتكبها الزنج، وهي أقرب إلى الخيال والأوهام أو رؤيا الأحلام.

ويتوسل الشاعر ببلاغة التعبير ويلجأ إلى التكرار وأسلوب التوكيد وذلك لإبراز مشاهد القتل والدمار وتضخيمها ليجعل المتلقي يتعايش مع الشاعر في أجواء تلك المشاهد التي تثير الرعب والحزن والألم، فيصبح المتلقي مشحوناً بالغضب والألم، يقول[1]:

لهف نفسي عليكِ أيّتُها البصـ ـرة لهفاً كمثل لَهْب الضّرام
لهف نفسي عليك يا معدن الخيـ ـرات لهفاً يطولُ منه غرامي

---

(1) المصدر نفسه، ج6/ 2378.

لهف نفسي عليك يا فُرضة البلـ ـــدان لهفـاً يبقـى علـى الأعوامِ
لهـف نفـسي لجمعِـكِ المتفانـي لهـف نفـسي لِعـزكِ المُستـضامِ

إن الـشاعر يتوسل بتكرار التفجع على ما حلَّ بالبصرة من دمار وخـراب باستخدام التعبير "لهف نفسي عليك يا... لهفاً" لإعلاء نبرة الحزن والمـرارة الـتي يعانـيها الـشاعر مـن تلـك المجازر التي ارتكبها الزنج بـ(قبة الإسـلام، معـدن الخـيرات، فرضـة الـبلد)، وبـذلك يـثير حفيظة المتلقي ومشاعره.

وتخـف حـدَّة الـتفجع في الأبيات اللاحقة حيث تتكدّس الصور وتتـزاحم في تـصوير بـشاعة أفعال الزّنوج، ويصور الشاعر تلك الأفعال تصويراً دقيقاً لا يخلو من المبالغة والتضخيم، يقول[1]:

بيـــنما أهلُهــا بأحـــسنِ حـــالِ إذ رمــاهم عبـيدهم باصـطلام
دخلــوها كــأنّهُم قِطــع اللـيــ ــلِ إذا راحَ مُــدلِهمٌ الظــلام
طلعـوا بالمهـندات جَهراً فألقتْ حَملـها الحـاملات قـبل الـتمام
وحقـــيقٌ بـــأن يُـــراع أنـــاسٌ غوفـصوا مـن عـدّوهم باقتحام
أيُّ هَــوْل رأوا بهــم أيُّ هــولِ حُـقّ مـنه تـشيبُ رأسُ الغـلام
إذ رمــوهُمْ بـنارهم مــن يمـينٍ وشمـــالِ وخلفِهـــمْ وأمـــامِ

ويـستمر الـشاعر بتـصوير أفعـال الـزّنوج وجـرائمهم وآثـارهم الـسلبية بتـضخيم الـصور، عامداً إلى أسلوب التكرار، بتكرار كم الخبرية الـتي تفـيد الـتكـثير، ويستخـدم براعتـه التصويريـة للتعبير عـن عنـف

[1] ديوان، ابن الرومي، ج6/ 2378.

الثورة وقسوة العبيد، وكثرة الجرائم التي ارتكبوها بحق أهل البصرة، يقول[1]:

كم أغصُّوا من شاربٍ بشرابِ ... كم أغصُّوا من طاعمٍ بطعامِ
كم ضنين بنفسه رامَ مَنْجىً ... فتلقوا جبينه بالحُسام
كم أخٍ قد رأى أخاهُ صريعاً ... ترِب الخدِّ بين صرعَى كِرامِ
كم أبٍ قد رأى عزيزَ بَنيه ... وهو يُعلى بصارمٍ صمصامِ
كم مفدًّى في أهله أسلمُوه ... حين لم يحْمِه هنالك حامي
كم رضيع هناكَ قد فطموه ... ببشبا السيفَ قبل حين الفطام
كم فتاةٍ بخاتِم الله بِكر ... فضحوها جهراً بغيرِ اكتتام
كم فتاةٍ مصونة قد سبوها ... بارزاً وجهها بغير لثام

تُجسِّد الأبيات السابقة مأساة إنسانية ارتكبها العبيد من الزِّنوج في أهل البصرة، فالأعمال التي ارتكبها الزِّنوج وصوّرها الشاعر بقدرة لغوية وتصويرية بالغة تنمُّ عن الهمجية والعنف الّذي قام به الزِّنوج، حيث انتهكوا الحُرمات، وقتلوا الأبناء في مرأى من آبائهم، وهتكوا الأعراض، ويتّموا الأطفال، وسَبَوا النساء، وكلّها صوّر تثير المتلقي وتجعله يسلّم ويؤمن بفظاعة الثورة، وتؤجّج مشاعره بالغضب والحنق على أولئك العبيد، وبذلك يتحول الخطاب الشعري إلى خطاب تحريضي، يدعو إلى القضاء على هؤلاء العبيد.

ومن أجل ذلك يلجأ الشاعر إلى المبالغة في عدد القتلى والتركيز على صورة السبايا من النساء وقد تقاسمهّن الزِّنوْج، يقول[2]:

---

(1) ديوان بن الرومي، ج6/ 2367.
(2) ديوان، ابن الرومي، ج6/ 2379.

ألـف ألـفٍ في سـاعةٍ قـتلوُهمْ	ثـم سـاقوا الـسِّباء كالأغـنام
مَـنْ رآهــنّ في المـساقِ سـبايا	دامِــياتِ الوجــوهِ للأقــدامِ
مـن رآهـنّ في المقاسم وسطَ الزّ	نـج يُقَـسّمن بيـنهُم بالـسِّهامِ
مَــنْ رآهــنّ يُـتخذن إمــاءً	بعــد مِلــكِ الإمــاء والخُـدّام
مـا تذكّـرتُ مـا أتـى الـزنجُ إلاّ	أضــرم القلــبُ أيّمــا إضــرام
مـا تذكّـرتُ مـا أتـى الـزنج إلا	أوجعــتني مــرارة الإرغــامِ

إن مجـرد تذكـر أحداث الثورة وأفعال الزّنوج يبعث الألم والمرارة والحـزن العميق في نفس الشاعر، وينسحب ذلك على نفس المتلقي الذي أشـركه الشاعر في التعايش وأحذاث الثورة من خلال التصوير والتكرار، والمبالغة، والتضخيم في تصوير الأحداث.

ويـستخدم الـشاعر ملكـته التـصويرية، ومقدرتـه التعـبيرية في تـضخيم أفعـال العبـيد في أهـل البصرة، فيلجأ إلى استخدام ربَّ للتقليل والتكثير، يقول[1]:

رُبَّ بـيعٍ هُـنَاكَ قـد أرخـصُوهُ	طـالَ مـا قـدْ غـلا على السُّوّام
رُبَّ بـيتٍ هـناك قـد أحـرقُوهُ	كَـانَ مـأوى الـضّعاف والأيـتامِ
رُبَّ قـصرٍ هـناك قـد دَخَلُـوه	كَـانَ مـن قبل ذاك صعب المرام
رُبَّ ذي نعمــةٍ هُـنَاك ومــالِ	تــركوه مُحالــفَ الإعــدامِ
رُبَّ قـومٍ باتـوا بأجمـع شمـل	تــركوا شملَهُــم بغـير نظـام

(1) ديوان ابن الرومي، ج6/ 2379.

ويعمـد الشاعر إلى إشراك المتلقي بعد كل مشهد تصويري ليصل إلى تحـريض الـسلطة/ الدولـة والمجـتمع والعـالم ضـد الزِّنوج، من خلال تـراكم الـصور وتـزاحمها في الـنص، فـنجده يطلـب مـن صاحبه التعريج بالبـصرة (عرِّجا صاحبيَّ بالبصرة) وسؤالها (فاسألاها ولا جواب لديها)، وينـتقل إلى الاستنفار والتحريض، حيث يحرِّض السلطة، المجتمع، المتلقي، العـالم علـى الانـتقام من الزِّنوج، والثأر لأهل البصرة، ويمزج الشاعر بين دقـة التصوير وجمال الأسلوب، وبلاغة التعبير لتحريض السلطة العباسية والمجتمع، بـل والعـالم علـى هـؤلاء العبـيد وتخلـيص الـبلاد مـنهم ومن همجيـتهم، ويـبلغ التحـريض غايـته وكـأنَّ الـسماء تـؤنب العـباد علـى تقاعسهم عن مواجهة الزِّنوج ونصرة المسلمين من أهل البصرة، يقول[1]:

أيُّ عُـــذرٍ لـــنا وأيُّ جـــوابٍ   حـين نُدْعَى على رؤوس الأنامِ
يَـا عِـبَادي: أمَا غضبتُم لوجهي   ذي الجـلال العظـيمِ والإكـرامِ
أخَذَلْـتُمْ إخـــوانكم وقعـــدتُم   عـنهم- ويَحْكُـم- قُعـودَ اللئام
كَـيْفَ لم تعطفـوا علـى أخواتٍ   في حِـبال العبـيدِ مـن آل حـام
لم تغـــاروا لغيرتـــي فتركـــتُم   حُرماتـي لمـنْ أحـلَّ حرامـي
أمـــتي أيـــنَ كنـــتُم إذ دعـــتني   حُـــرَّةٌ مـــن كـــرائِمِ الأقـــوامِ

وتـبلغ بلاغـة الاستنفار غايتها في النص، من خلال حثِّ السلطة والـناس علـى الانـتقام من العبيد الطغام، والأخذ بالثأر للبصرة من آثام العبيد، وإضفاء الطابع الديني على التصدي للزنج، فقتالهم بمنزلة جهاد في

---

[1] ديوان ابن الرومي، ج6/ 2381.

سبيل الله وابتغاء جنة الخلد، ويتجلى التحريض الذي كرسه الشاعر من خلال النص عندما يقول[1]:

انفروا أيُّها الكرامُ خِفافاً ... وثِقالاً إلى العبيد الطَّغام
أبرِمُوا أمرَهمْ وأنتم نيام ... سوءةً سوءةً لنومِ النيام
صدّقوا ظنَّ إخوة أمّلوكم ... ورَجوكم لنبوهِ الأيام
إن قعدتم عن اللعين فأنتُم ... شركاءُ اللّعينِ في الآثام
لا تطيلوا المقامَ عن جنَّة الخلـ ... ـدِ فأنتم في غيرِ دار مقام

إن نص ابن الرومي السابق في رثاء البصرة، ووصف مشاهد أفعال الزِّنوج وآثارها يتضمن مشهدين مترابطين[2]: أحدهما تصويري، والآخر تحريضي؛ ففي الجانب التصويري رسم الشاعر أدق الصّور الممزوجة بالعنف والغضب المشحون، فقد استخدم الشاعر مقدرته اللغوية وبراعته التصويرية في تصوير أعمال الزنج، من قتل، ونهب، وسلب، وتخريب، وكانت الصور تتزاحم وتتوالد في ثنايا النص لتصوير الفظائع والأعمال الإجرامية واللاإنسانية بفعل ثورة العبيد، ولجأ الشاعر إلى تضخيم الأحداث وتفخيمها بالاعتماد على تصوير أدق التفاصيل، والاعتماد على أسلوب التكرار.

وأما جانب الاستنفار والتحريض فيرتبط ارتباطاً وثيقاً بالجانب التصويري، فبعد أن عرض الشاعر لأبشع صور القتل والدمار، لجأ إلى تحريض السلطة المركزية/ الخلافة العباسية على الانتقام من أولئك العبيد

---

(1) ديوان ابن الرومي، ج6/ 2381.

(2) ينظر: كاظم، نادر، صورة الآخر، صورة السود في المتخيّل العربي الوسيط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، (ط1)، 2004م، ص 455.

وسحقهم وإبادتهم، وامتدت دعوى الشاعر التحريضية إلى المجتمع بأكمله لينقم على هؤلاء العبيد الذين تطاولوا على أسيادهم، وأعلنوا التمرد والعصيان، وعاثوا بالبصرة فساداً ودماراً، وبالتالي فالنص يمثل دعوة ضمنية للوقوف إلى جانب السلطة ودعمها في الانتقام من الزنج، وبذلك فإن نص ابن الرومي على صلة بخطاب السلطة الرسمي آنذاك،وربما يكون بمنزلة الخطاب الإعلامي للسلطة نفسها[1].

وكانت الخلافة العباسية تواجه الفتن والثورات التي تهدد كيانها، ولذلك فهي بحاجة إلى خطاب شعري مؤثر في نفوس العامة، ويكون فاعلاً في الدفاع عن السلطة، ويبرر تجاوزاتها في القمع والعنف تجاه تلك الثورات، وبالتالي فخطاب ابن الرومي يبرر تجاوزات السلطة تجاه العبيد، لما أثاره هذا الخطاب من فساد الثورة، وهمجيتها، وبشاعتها.

رابعاً: مظاهر من حضارة الآخر في الشعر العربي

الأعياد والمناسبات:

أخذ المجتمع العربي بظاهرة الاحتفال بالأعياد والمناسبات في العصر العباسي، ومن هذه المظاهر، الاحتفال بأعياد الفرس كالنيروز والمهرجان، وظهر ذلك جلياً في شعر العصر العباسي، وإذا كان الآخر الفارسي قد اعتلى أهم المناصب والمراكز في الدولة العباسية كالوزارة والولاية، فمن الطبيعي أن تنتشر ثقافة الفرس وآدابهم وأن يتأثر العرب بهذه الثقافة، فالوزراء وأصحاب النفوذ من الفرس، وكانت ثقافتهم سائرة بين الناس وكانوا يولون العناية بالاهتمام والاحتفال بأعيادهم،

---

(1) كاظم، نادر، صورة الآخر، ص 456.

ويقدِّمون العطايا والهبات للشعراء في أعيادهم، لذلك احتفل معهم الشعراء والأدباء، ومدحوهم في أعيادهم طلباً للأعطيات والتقرب إليهم، بل إن الخلفاء أنفسهم كانوا يحتفلون مع قادتهم وولاتهم من الفرس، ويشاركونهم احتفالاتهم القومية والدينية.

وارتبط ذكر الأعياد في شعر المدح الذي قيل في مدح الخلفاء، أو الوزراء، والولاة من الفرس، وتمثل ذلك بالتهنئة بقدوم العيد، وربط قدوم العيد بكرم الممدوح وأعطياته، ومن أهم أعياد الآخر الفارسي التي كان لها صدى في الشعر العربي: النيروز والمهرجان، والشعانين الذي يعدُّ من أعياد النصارى.

* النيروز:

هو أحد أكبر أعياد الفرس القومية، وأهم أعيادهم ومناسباتهم القومية، وهو أول أيام الربيع[1].

انتقل النيروز إلى الشعر العربي من حضارة الآخر الفارسي، ولكثرة العناصر الفارسية ونفوذها في المجتمع العباسي، وكثر ذكر النيروز ومظاهر الاحتفال فيه في الشعر العربي، فقد يقدم أحد الشعراء إلى أحد الولاة أو الوزراء الفرس للتهنئة بقدوم العيد، وقد يصف الشاعر مظاهر استقبال هذا العيد، أو يذكر هدايا وأعطيات العيد، وغير ذلك.

كان خالد بن يحيى البرمكي يُهدي إلى الناس هدايا ثمينة من الذهب والفضة في يوم النيروز، وخالد هذا هو رأس البرامكة، الذين نالوا مكانة متميزة في الدولة العباسية، وهم من أصل فارسي، ولكنهم امتازوا بكثرة الجود والعطاء، لذلك أكثر الشعراء من مدحهم، فقال أحد

---

(1) ينظر: الزمخشري: ربيع الأبرار، ج1/ 31- 32.

الشعراء في مدح خالد في النيروز[1]:

لَـيْتَ شِعْرِي أَمَـا لَنَا مِنْكَ حظٌّ يـا هَـدايا الوزيـرِ في الـنيروز
مـا على خالد بن برمك في الجـ ـــودِ نـــوالٌ ينــيله بعزيـــز
لـيتَ لـي جـام فـضَّة مِنْ هَدَايا هُ سـوى مـا بـه الأمـير مجيـزي

ويصف ابن الرومي العيد بأنه درَّة الأيام، وواسطة الأسبوع، كما يبيّن مظاهر الاحتفال بالعيد، يقول مهنئاً عبيد الله بن عبد الله بالعيد[2]:

يـومُ الـثلاثاء مـا يـومُ الـثلاثاءِ في ذروةٍ مـن دُرا الأيـام علـياءِ
كأنَّمـا هـو في الأسبوع واسطةٌ في سِمْطِ درٍّ مُحَلٌ جيد حسناء
مـا طابـق اللهُ نـيروزَ الأمـير بـه إلا لـتلقاهُ فـيه كُـلُ سـرَّاء

...

فاسْعد بـنيروزك المسعود طالعُه يا ابن الأكارم في خفضٍ ونعماءِ
قـد كـان عـيداً مجوسـيَّاً فـشرَّفه ملـهاك فـيه، ومـا تلهو بفحشاءِ

ـفه ابـن المعتـز بأطـيب أوقـات الـزمان، ويقرن قدوم العيد بالراح و ـ واللهو والغناء[3]:

زاركَ الـــــــــنيرُوز في أَطْـيَبَ أَوْقَـــاتِ الـــزَّمْانِ
فالْقَـــه بالـــرَّاح والـــرو ح وَتَقْـــريب القِـــيَانِ
حـــــبّذا هـــــنّ إذا حـــركن أطـــراف البـنان

---

(1) ابن الطقطقا: الفخري في الآداب السلطانية والإسلامية، ص 157.

(2) ديوان ابن الرومي. ج1/ 76- 77.

(3) ديوان أشعار ابن المعتز، ج2/ 317. ينظر: ج2/ 162.

وكان البحتري قد أبدى ابتهاجه وسعادته بقدوم النيروز في قصيدة يمدح الهيثم بن عدي فيها، ومطلعها[1]:

أكان الصِّبا إلا خيالاً مسلَّماً أقام كرجع الطرف ثم تصرَّما

ويصوّر الشاعر الربيع في صورة تفيض بالحركة، وتتداخل فيه الصور السمعية والبصرية ممّا يوحي بفرح الشاعر بقدوم الربيع الذي أوله عيد النيروز، الذي أصبح كالمنبَّه لتجدد الحياة والسرور، يقول[2]:

أتاكَ الرَّبيع الطلق يَختَالُ ضَاحِكاً من الحُسِنِ حتَّى كَادَ أنْ يتكلمَّا
وَقَدْ نبّه النوروز في غِلس الدُّجى أوائل وردٍ كُنَّ بالأمسِ نُوَّمَا

ويمدح المتنبي ابن العميد، ويهنئه بقدوم النيروز، ويصف الشاعر تعظيم الفرس لهذا اليوم ومظاهر ابتهاجهم به، من حيث ارتداء الألبسة الخاصة كالأكليل، لأن هذا اليوم يمتاز عن باقي أيام السنة بالجمال والسعادة والبهجة، يقول[3]:

---

(1) ديوان البحتري، ج4/ 2087.

ويقرن عبد الله بن العباس بين العيد ومظاهر الفرح والسرور، يقول:

المهرجانُ ويوم الاثنين يومُ سرورٍ قد حُفَّ بالزيّن
عشى ألف نيروز ومهرج فرحاً في طيبِ عيش وقُرَّة العينِ

(2) ديوان البحتري، نفسه، ج4/ 2090.

ينظر: الرباعي، عبد القادر، جماليات المعنى الشعري بين التشكيل والتأويل، المؤسسة العربية للدراسات العربية، بيروت، (ط1)، 1999م، ص 45.

(3) شرح ديوان المتنبي، ص148-149.

جَـاءَ نيرُوزُنَـا وأنـتَ مُـرادُهُ   وَورَتْ بالَّـذي أراد زِنَـادُه
هـذه النَّظـرةُ الَّـتي نالهـا مـنـ   ـك إلى مثلها من الحَوْلِ زادُه
ينـثني عـنك آخـر الـيوم مـنه   ناظِـرٌ، أنـت طـرفُهُ وَرُقـادُهُ
نحـنُ في أرض فـارسٍ في سُرُورٍ   ذا الـصَّباح الـذي نـرى مـيلاده
عظَّمـتهُ ممالـك الفـرس حتّـى   كُـلَّ أيـام عامِـه حُـسَّاده
مـا لبـسنا فـيه الأكالـيل حتّـى   لبـستها تِلاعُـهُ ووهـادُه

* المهرجان:

وهـو ثانـي أعـياد الفـرس الكـبرى، ويأتـي المهـرجان بعـد عيد النيروز، قال النويري: "المهرجان فوقوعه في السادس والعشرين من تشرين الأول مـن شـهور الـسريان، وفي الـسادس عـشر مـن مهـرماه من شهور الفرس"[1]، وهو عيد بداية فصل الشتاء عند الفرس.

وقـد كثـر ذكـر المهـرجان في الـشعر العربـي، وقـد علـل بعض الـشعراء تـسمية المهـرجان بمـا يـرتبط بغلبة الفرس وكثرتهم فيه، ولذلك سُمِّي بالمهرجان، قال عبد الله بن طاهر[2]:

إذا مـــا تَحَقَّـــقَ بالمهـــرجا   ن مَـنْ لَـيسَ يعـرف معناه غاظاً
وَمَعْـنَاه أنْ غَلَـبَ الفُـرْس فـيه   فَـسَمُّوه للـروح حَقَّـاً حِفاظَـاً

---

(1) النويـري، شـهاب الـدين، نهايـة الأرب، مـصدر سـابق، ج1/ 187، ينظر: المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج2/ 204.

(2) المصدر السابق نفسه، ج1/ 121.

عبد الله بن طاهر: عبد الله بن الحسين بن مصعب الخزاعي بالولاء ت 230هـ أمير خراسان. له مجموع رسائل وديوان شعر، (معجم الشعراء العباسيين، 278).

وفي تعظيم المهرجان في نفوس الفرس: كبيرهم وصغيرهم، مدح البحتري الحسن بن سهل مشيراً إلى تعظيم الفرس لهذا العيد، فهو عيد ملوك الفرس، يعظمونه كبيرهم وصغيرهم، يقول[1]:

يا ابنَ سهلٍ وأنتَ غيرُ مُفيقٍ ... من بناءِ العلياءِ أخرى الدُّهور
إنَّ للمهرجان حقّاً على كُلِّ ... كبيرٍ من فارسٍ وصغيرِ
عيدُ آبائكَ المُلوكِ ذوي التيـ ... ـجان أهل النُّهى وأهل الخيرِ
من قباذٍ ويزدجردٍ وفيرو ... زٍ وكسرى وقبلهم أردشيرِ
عظَّموهُ ووقَّروهُ محقو ... قٌ بفضل التعظيمِ والتوقيرِ
هويومٌ وفيه من كُلِّ شهرٍ ... خلقٌ فهو جامعٌ للشهورِ

وفي المهرجان يتم تبادل الهدايا والتهنئة، وربط الشعراء بين المهرجان والعطايا والهبات التي تقدم لهم، وكان الشعراء يقدمون قصائدهم هدايا للوزراء والولاة، وينالون في مقابلها المكافآت والأعطيات، حتى كان في كل يوم مهرجان، قال مروان بن أبي حفصة في مدح جعفر البرمكي[2]:

بِدَوْلةِ جعفرٍ حُمِدَ الزَّمانُ ... لنا بِكَ كُلَّ يَوْمٍ مِهْرجانُ
جَعَلْتُ هَدِيَّتي لَكَ فيهِ وَشْياً ... وَخَيْرُ الوَشْيِ ما نَسَجَ اللِّسانُ

وأحياناً، يرافق احتفالات العيد الضرب على الآلات ورقص القيان، ويتحلّق الشعراء في مجالس الشراب، ولذلك فضّل بعضهم هذا

---

(1) البحتري، ج2/ 886.

(2) <u>شعر مروان بن أبي حفصة</u>، جمع وتحقيق: حسين عطوان، دار المعارف، مصر، (ط1)، 1982م، ص 105.

اليوم على بقية أيام السنة، لما فيه من المسَّرات واللهو والشراب، وقد أشار الثرواني الشاعر إلى ذلك، وعرض لطرق احتفالات الفرس في ذلك اليوم، يقول[1]:

أتاك على الدخول المهرجان ... تشيّعه المعازف والقيان
وزفّت فحول الصّبهاء حرفاً ... تسير بها وتحملها الدّنان
لهذا اليوم فضلٌ مستبين ... على الأيام تعرفه وشان
إذا وقّرته عظّمت كسرى ... وأكرمك الشريف الهرمزان
وأصفاك الهوى بهرام جور ... وسارع في رضاك الفيروزان
لتعظم الذي عظمّوه ... ودان به أوائلهم ودانوا

ويمزج ابن الرومي بين أصل العيد الفارسي والترف واللهو فيه، ويصف لهو علي بن المنجم في العيد، يقول[2]:

لَمْ يَلْهُ في المهرجانِ أولى ... باللهو فيه من ابن يحيى
لأنّهُ شابه بجودٍ ... أحْيَا بِهِ النَّاس كل محيا

---

(1) الشابشتي، أبو علي حسن علي بن محمد، الديارات، تحقيق: كوركيس عواد، مكتبة المثنى، بغداد، (ط2)، 1967م، ص 231.

الثرواني: هو محمد بن عبد الرحمن، أحد شعراء العصر العباسي، كان يقضي معظم أوقاته، في الخانات والديارات، روى له الشابشتي مقطعات شعرية. (الأصفهاني، الديارات، تحقيق: جليل العطية، منشورا رياض الريس، قبرص، (ط1)، 1991م، ص 72).

(2) ديوان ابن الرومي، ج1/ 57- 58.

وينظر حول تسمية المهرجان:

المسعودي، مروج الذهب، ج2/ 199- 200.

وَعَهْـدُ كِـسْرَى نعـيم عـيش ... مـن ابـن كسرى وحسن وملهى
فظــلٌ في المهــرجان عــيد ... يجمــع ديــناً ولــه ودنــيا

وحـرص الـشعراء علـى إظهـار الـسعادة والفـرح بقـدوم هـذه الأعـياد، وبـنظم القـصائد المدحـية طلـباً لكـرم الممـدوحين مـن الأمراء والـوزراء، لأن الملـوك والـوزراء تـبلغ الـسرور فـيه، فتكثـر أُعطـياتهم ومكافـأتهم للـشعراء، فقـدوم هـذا العـيد يعـني تدفق الأرزاق بين أيدي الشعراء، وبذلك علل بعض الشعراء حبَّهم وفرحهم لقدوم العيد(1):

أُحِــبُّ المِهْــرَجَانَ لأَنَّ فِــيه ... سُــرُوراً للملـوك ذوي الـسَّناءِ
وَبَابــاً للمــصير إلى أوان ... تُفَــتَّحُ فــيهِ أبْــوَابَ الــسَّماءِ
أشَــبِّهه إذا أفْــضَى حَمِــيداً ... بإِفْــضَاءِ المــصيف إلى الــشِّتاءِ
رَجَــاءَ مُؤَمِّلــيك إذا تناهــى ... بهــم بعــد الــبلاءِ إلى الــرَّخَاءِ

وكـان العباسيون يشاركون وزراءهم وقادتهم من غير العرب في احـتفالاتهم بهـذه الأعـياد، وكانـوا يلبـسون الملابـس الخاصـة بالأعـياد كالطيلـسان والقلانـس الطـويلة، ويلـتفّون بالعمامة السوداء(2). وحرص الخلفـاء العباسـيون علـى أن يجعلـوا لكل طبقة من طبقات المجتمع ولكل أصحاب مهنة زياً خاصاً بهم.

---

(1) المصدر السابق، ج1/ 56.
وينظر قوله:
سـبوت الإصـباح معـشقات ... واخطـاهنَّ سـبت المهـرجان

(2) ينظر: حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام، ج2/ 427- 428.
ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1/ 33.

ويتبين -مما سبق- مدى حضور حضارة الأخر ممثلة بأعياد الفرس التي أصبحت من المناسبات الرسمية والمهمة في العصر العباسي، فقد عمل أصحاب النفوذ والوزراء والأعيان من الفرس بالاهتمام بمظاهر حضارتهم ورعايته، فانتشرت هذه المظاهر في المجتمع العربي.

* أعياد النصارى:

حظي الآخر من غير المسلمين بحرية الديانة والمعتقد في العصر العباسي، وكان أهل الذِّمة من النصارى يقيمون احتفالاتهم، ويمارسون طقوسهم الدينية في الأديرة والكنائس، بكل تسامح وحريّة، وانتشرت هذه الأديرة والكنائس في أرجاء الدولة العباسية وكانت تمثّل دُوراً للعبادة وأماكن للتسلية واللهو.

وكان النصارى يمارسون احتفالاتهم بأعيادهم ومناسباتهم الدينية في الدولة العباسية، وقد ورد ذكر بعض الأعياد النصرانية، وما يرافقها من طقوس ومظاهر احتفالية في الشعر العربي، ومن أبرز أعياد النصارى التي أوردها الشعراء في أشعارهم "عيد الشعانين"، وعيد الفصح.

فقد يصوِّر الشاعر مظاهر احتفال النصارى بأعيادهم، وما يُرافق هذه الأعياد من مجالس الندامى، والشراب في تلك الأديرة، يقول الثرواني[1]:

اسْقِنِي الرَّاحَ صَبَاحاً   قَهْوَةً صَهْبَاء رَاحَا

---

[1] الشابشتي، الديارات، ص 230.

الدير الأعلى: يقع في الموصل، على قمة جبل مطل على نهر دجلة. **دير بهراذان**: أحد الأديرة في بغداد كان يقصده الشعراء.

وَاصْطبح في الدَّيـر الأَعلَى ... في الشعانين اصطباحا
إنَّ مَنْ لَمْ يَصْطَبحها اليومَ وَلَمْ يَلْقَ نَجَاحَا
ثُمَّ قلدني من الزَّيتون والْخُوصَ وِشَاحَا
فِي الشَّعانين وإنْ لاقَيت في ذاك افْتِضَاحَا
عظم الأعلام والرُّهبانَ والصُّلب المِلاَحَا

ويصف الشاعر احتفاله مع أصحابه وندمائه بعيد الشعانين، في أحد الأديرة وما يرافق قدوم هذا العيد من مسرَّات ولهو، فأبو نواس الشاعر يحتفل بعيد الشعانين مع فتية يطلبون العبث والمجون[1]:

بديرِ بهراذان لي مجلِسٌ ... ومَلْعبٌ وسْطَ بِساتِينِهِ
رحْتُ إليهِ ومعي فتيةٌ ... نزورُهُ يومَ سعانينِهِ
بكل طلاّبِ الهوى فاتكٍ ... قد آثرَ الدنيا على دِينهِ

ويتغزل الشاعر بالنساء النصرانيات، ويشبه تلك النسوة بنخيل الشعانين، وشمعلة النصارى في الطريق، فهنّ دقيقات الخصور، طويلات الأجسام يبيدنّ كالنخيل، كما اتصفن بالحسن والجمال الفائق، يقول[2]:

أيا نخل الشعانين المفدَّى ... وشمعلة النصارى في الطريق
وبالصلب العظيمة حين تبدو ... وبالزُّنار في الخصر الدقيق
وبالحُسن المركّب فيك ألاّ ... رحمت تحرقي وجفون ريقي

(1) ديوان أبي نواس، ص 83.
(2) ديوان أبي نواس، ص 89.

وأما عيد الفصح، فيبدو أنه أقل ذكراً من عيد الشعانين، اقترن ذكره عند البحتري بالسرور والفرح، قال في مدح عبدون بن مخلد[1]:

ليكتنفك السرور والفرح ولا يفتك الإبريق والقدح
فتح وفصح قد وافياك معاً فالفتح يقرأ والفصح يفتتح
واليوم دجن والدار قطربل فيها عن الشاغلين منتزح

وكان بعض النصارى قد ادّعى الإسلام في خلافة القائم (422 هـ)، رغبة في التقرب من الخلفاء أو الزواج من المسلمين، الذين ظلوا يأبون تزويج النصراني، فكان إسلامهم رياءً ولكسب مصالح اجتماعية أو سياسية، وعبَّر أبو العلاء المعري عن ارتيابه من إسلام بعضهم، يقول[2]:

قد أسلمَ الُرجل النصرانُ مرتغِباً وليس ذلك من حُبٍّ لإسلامِ
وإنّما رامَ عِزّاً في معيشته أو خاف ضربة ماضي الحدِّ قلاّمِ
أو شاءَ تزويجَ مثل الظبي، مُعلَمَةٍ للناظرين بأسوارٍ وعُلاّمِ

---

(1) ديوان البحتري، ج1/ 456.
عبدون بن مخلد: ولي الوزارة للمعتمد، وبقي على دين النصرانية، توفي في ديار منى سنة 310هـ.

(2) المعري، أبو العلاء، **اللزوميات**، دار الكتب العلمية، بيروت،(ط2)، 1986م، ج2/ 322.
وحول أحوال النصارى في العصر العباسي، ينظر: غيبه، جان موريس، **أحوال النصارى في خلافة بني العباس**، ترجمة: حسني زينة، دار المشرق، بيروت، (ط1)، 1990م، ص 285.

وصف الساقية/ الساقي:

انتشرت الأديرة والحانات في العصر العباسي انتشاراً كبيراً، والأديرة تعني: البيت الذي يتعبد فيه الرهبان، ومفرد أديرة: دير. وغالباً ما يقوم الدير في الصحارى وعلى الطرقات، أو في رؤوس الجبال. وأمّا الحانات فهي أماكن التسلية والشراب، وتقع بالقرب من الأديرة.

وصف الشعر العربي صاحب الحانة/ الساقي أو الساقية، وهو مَنْ يتولى الإشراف على إدارتها وغالباً ما يكون من الأعاجم، لاسيما الغلمان، وهم من النصارى واليهود.

واهتم الشعراء بوصف الساقي أو صاحب الحانة، وكان أصحاب الحانات يختارون السُقاة من الفتيات أو الغلمان الذين يتصفون بالحسن وجمال الخلقة، مما أدّى إلى انتشار ظاهرة الغزل بالغلمان، التي برزت في شعر العصر العباسي، وتمثّل هذه الظاهرة مدى تأثير الآخر (غير العربي)، في المجتمع العربي[1]، وانتشار العبث والمجون في المجتمع في العصر العباسي.

وقد تعرَّض الشعر العربي إلى وصف صاحب الحانة والتغزل بالساقي/ الساقية، ولاسيما في شعر الخمر والغزل، فوصفوا مجالس الخمر، ومن ذلك غلاميات أبي نواس الذي أفاض في وصف الخمرة والساقي، يقول[2]:

وربَّ مُخضَّبِ الأطرَافِ، رخصٍ   مليحِ الدَّل ذي وجهٍ صبيحِ

---

(1) بكار، يوسف، اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري، ص 109.

(2) ديوان أبي نواس، ص 164. وينظر: ص 85، 124، في وصف لون الساقي الذمي.

ظفـرتُ بـه ونجـمُ الـصُبحِ بـادٍ عِـباديّاً علـى ديـن المـسيحِ

وكـان الغلمـان الـسقاة يـرتدون الأقـرطة في الأذنين، وأصبحت الأقـرطة في الأذنـين مـن العلامات التي تشير إلى الآخر عموماً، والساقي بـوجه خـاص، وقـد كثـر ذكـر هـذه الأقـراط في شعر الأديرة والحانات، وصـار لـبس الأقـرطة مـن دلالات الهُـويَّة بالنـسبة للـساقي، يقـول أبـو نواس[1]:

يـسعى بها خِنثٌ في خُلقِه دمثٌ يستأثرُ العينَ في مستدرج الرائي
مقـرَّطٌ وافـرُ الأردافِ ذو غُـنُجٍ كـأنَّ في راحتِـيه وسْـمَ حِـنَّاء

ويقول في وصف الساقية المقرطقة[2]:

مـن كـفِّ سـاقيةٍ مقـرطَقةٍ ناهـيكَ مـن حُـسْنٍ ومن ظرْفِ
نظـرتْ بعـينيْ جُـؤذَرٍ خَـرِقٍ وتلفَّـتتْ بـسوالِفِ الخِـشْفِ

وتجمـع الـساقية عـند أبـي نواس بين الجمال وحسن القد وخِفة الظرف والأدب[3]:

(1) ديوان أبي نواس ، ص 701، ينظر: ص (11، 25، 32، 48، 66، 70، 85).
وينظر ص 214 في وصف الساقية أيضاً.
ويقول ابن المعتز: ج2/ 474.

ومقـرطقٍ يـسعى إلى الـندماء بعقـيقةٍ في درّةٍ بيـضاء

(2) المصدر السابق، ص 66، ينظر: ص (11، 25، 32، 48، 66، 70، 88).
(3) المصدر نفسه، ص 72، ينظر: ص 83، 93.

مـن كـفٍّ سـاقيةٍ ناهـيك ساقِيةٍ   في حُسن قدٍّ وفي ظرفٍ وفي أدبِ

ويـصف أبو نواس ساقية يهودية، متغزلاً فيها، فهي شبيهة القمر في الحسن والجمال، وهي حوراء كالقمر الساقي، يقول[1]:

الـــشرّاب في ظلّـــةِ خمّـــارِ   عـندي مـن اللـذات يـا جـاري
لاسـيّما عـــند يهـــوديّة   حَـوراء مـثل القمـر الـساري
تـسقيك مـن كـفٍّ لهـا رطـبةٍ   كأنّهـــا فلقـــة جُمّـــارِ
حتـى إذا الـسُّكْرُ تمـشّى بهـا   صَـارَ لهـا صَـوْلةُ جـبّارِ

وكـان عـبد الله بن العباس يهوى ساقية نصرانية كان قد رآها في بعض أعياد النصارى فعلق بها، وتغزل فيها واصفاً جمالها وَمجالس الخمرة لـديها في ديـر ماسرجيس، ويصف الشاعر ساقيته وكأنها الغزال المكمَّل، وهي تتمايل خفّة ورشاقة، وقد ارتدت صليبها وتزينّت بالحلي، يقول[2]:

رُبَّ صـهباءَ مـن شراب المجوسِ   قهـــوةٍ بابلـــيةٍ خـــندريس
قـــد تجلـيـتُها بـــناي وعُـــودٍ   قـبل ضرب الشّماسِ بالناقوسِ
وغـــزالٍ مُكحّـــل ذي دلال   سـامِر الطـرف سـامريٍّ عروس
بـــين وردٍ وبـــين آسٍ جَـــنيٍّ   وسـط بـستان ديـر ماسـرجيس
يتثنـــى بحـــسن جـــيد غـــزالٍ   وصـــليبٍ مفـــضّضٍ آبنوسِـــي

(1) نفسه، ص 54.

(2) الأصفهاني، الأغاني، ج19/ 169، ينظر: الشتيوي، صالح، شعر الديارات في القرنين الثالث والرابع الهجريين، منشورات وزارة الثقافة، عمان، (ط1)، 2004م، ص 233.

كم لثمتُ الصليب في الجيد منها كهــلالٍ مُكلَّــلٍ بــشموسِ

كمـا وصف أبو بكر الخالدي الساقية النصرانية وخمّارتها في أحد الأديـرة، بأنهـا مـشرقة الطلعة، مضيئة الوجه، تسبي قلوب الرجال بحسن جمالها[1]:

شـربتها مـن يـدي حـوراء مقلـتها تغـني القلـوب بتبعـيدٍ وتقـريبِ
شمـسٌ إذا طلعـت قالـت محاسـنها قـد طلعـت فـيا شمسَ الضحى غيبي
ونمـتُ سـكراً ونامـت لـي مُعانقِـةً فـلا تـسل عـن عـناق الظبي والذيبِ

وجحظـة البرمكـي يتعـرض لـساقية نـصرانية في أحـد الأديـرة، فيصف مشيتها وتمايلها، يقول[2]:

وَخَمَّـارةٍ مِـنْ بـناتِ القُـسوسِ تُبـيعُ المُدامَـةَ في دارِهَـا
وَجـاءَتْ تُهـادى كَقَـدٌ القَضيب سَـقَتْهُ الغَـواديَ بأمطارِهَـا
وفي كفِّهـا قَهْـوةً في الإنـاءِ وكالـنَّارِ لَـمْ تُغْـلِ في نارِهَـا
كَوَجْـنَةِ مَـنْ هـي في كفِّهـا ونكهَـتِها وَقْـتَ أسـحارِهَا

(1) الخالديان، الأشباه والنظائر، ص 22.

(2) جحظـة البرمكـي، أحمـد بـن جعفـر بن موسى بن يحيى البرمكي (ت 324هـ)، ديوان جحظة البرمكـي، تحقـيق: سـعدي ضـاوي، دار صادر، بيروت، (ط 1)، 1996م، ص 111، وينظر: ص 171، وص 38، 62.

جحظـة البرمكـي: هو أحمد بن جعفر بن يوسف بن الوزير يحيى بن خالد بن برمك، يكنى: أبا الحسن، أديب مغن، من أهل بغداد، لقِّب بجحظة لسوء في عينيه، نادم ابن المعتز والمعتمد.

ينظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1/ 314.

عبد الرحمن، عفيف، معجم الشعراء العباسيين، ص 95- 96.

وكـان روّاد الأديـرة والحانات يستمتعون بمجالس الشراب الذي يـصحبه الغـناء مـن قـبل الجـواري. فكانـت أصـوات الـساقية تعجـب المـستمعين، فأُعجـب الـشعراء بحسن صـوتها، مع عجمتها، وكان بعض الشعراء يصف صوت المغنية الأجنبية، ويعجب أشد العجب لحسن الغناء وجمـال الـصوت، يقول أبو تمام في صوت إحدى المغنيات التي كانت تغني بالفارسية[1]:

أَيَـا سَـهَري بلـيلة أُبْرَشَـهْرٍ ... ذَمَمْـتُ إلـيَّ يَـوْماً في سـواها

شـكَرْتكِ لَـيْلَةً حـسُنَتْ وَطَابَتْ ... أَقـامَ سُـرُورُهَا ومَـضَى كَـراهَا

سمعـتُ بهـا غِـنَاءً كـان أحرى ... بـأَنْ يَقْـتَادَ نَفْـسِي مِـنْ غِـنَاهَا

مـرَّت أوتارَهَا فَشَجَتْ وَشَاقَتْ ... فلــو يطـيعُ سَــامِعُها فَــدَاهَا

وَلَـمْ أَفْهَـمْ مَعَانِـيَهَا وَلكِـنْ ... وَرَت كَـبِدي فلَمْ أَجْهَلْ شَجَاهَا

فَـبتُّ كـأنّني أعمَـى مُعَنـىًّ ... يُحِـبُّ الغَانِـيَاتِ وَمَـا يَـرَاهَا

ووصـف الحـسين بـن الـضَّحاك صـوت أحـد المغـنين الفـرس، فأعجـبه صـوته وأشـجّاه، واصـفاً بـراعته في النقـر علـى أوتـار الآلات الموسيقية، فطرب لهذا الصوت دون أن يفهم معناه، يقول[2]:

وصـــوتٌ لـــبني الأحـــرا ... ر أهـــل الـــسيرة الحُـــسنى

(1) الـصولي، أبـو بكـر محمـد بـن يحيى (ت 336هـ)، **اخبار أبي تمام**، تحقيق: خليل محمد عساكر ومحمـد عـزام، منـشورات المكتـب الـتجاري للطـباعة والنـشر والـتوزيع، بـيروت، 1970م، ص 213- 214.

(2) الحـسين بـن الـضّحاك أبـو علـي بـن ياسـر الخلـيع (ت 250هــ): **أشعار الخليع الحسين بن الضحاك**، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، منشورات دار الثقافة، بيروت، 1960م، ص 117.
الحسين بـن الـضحّاك: هـو أبـو علي الحسين بن الضحاك بن ياسر الخليع، من شعراء الدولة العباسية، ولد بالبصرة ونشأ فيها، وارتحل إلى بغداد وأقام بها.
عبد الرحمن، عفيف، معجم الشعراء العباسيين، ص 127.

شـــجيٌّ يأكـــل الأوتـــا   ر حتـــى كُلُّهـــا يغـــني
فمـــا أدري الـــيد اليـــسرى   بـــه أشـــقى أم اليمنـــى
ومـــا أفهَـــمُ مـــا يَغْنِـــي   مغنِّيـــــنا إذا غنَّـــــى
ســـوى أنِّـــي مِـــنْ حُبِّـــي   لَـــهُ استَحْـــسِنُ المغْنَـــى

مظاهر التسلية بالألعاب (الشطرنج والنرد):

ظهـرت بعـض مظاهر التسلية بالألعاب، فكان الناس يمارسونها في أوقـات فـراغهم، ويتفاخـرون بإجادتهـا، ومـن ذلـك الـشطرنج الـتي ظهـرت في المجتمع العربي في العصرين: الإسلامي والأموي، والشطرنج فـن رياضـي مـن نـتاج الآخـر الهـندي، ومن ثمار الالتقاء الحضاري مع الآخـر الفارسـي الـذي نقلـها إلى العرب عن الهنود، والراجح أن العرب عَـرفوا الـشطرنج عـن الفرس أثناء فتح بلاد فارس واختلاطهم بالفرس، حـيث عُـرِّبت الكلمـة إلى شـطرنج العـربية[1]، وكانت متداولة في المجتمع الأمـوي، وأولع الناس فيها في العصر العباسي، فاشتهرت شهرة واسعة، وحظيت باهتمام الخلفاء والأمراء والشعراء، فأكثروا من وصفها.

ورد أن علـياً بـن أبـي طالب- كرّم الله وجهه- مرّ بقوم يلعبون الـشطرنج، فقـال لهم "ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون"، ولكنه لم يمانع مـنها ولم يـنه عـن لعـبها، كمـا أن الفقهاء لم يروا باساً في ذلك، فقد سئل الشعبي عن الشطرنج ولعبها، فقال: "لا بأس إذا لم يكن تقامر وتبادل"[2].

---

(1) ينظر: القوص، عطيّه، المسلمون والشطرنج، دار الثقافة العربية، القاهرة، ص 14.

(2) ينظر: العظم، أسيمة، المجتمع في العصر الأموي، دار العلم للملايين، بيروت، (ط1)، 1996م، ص17.

وكان عبد الحكم الجمحي اتخذ بيتاً في المدينة جعل فيه شطرنجيات ودفتراً من كل علم، وجعل أوتاداً، فمن جاء علّق ثيابه على وتدٍ منها، ثم جرَّ دفتراً فقرأه، أو بعض ما يلعب فيه، فلعب معهم، ودخل مرَّة الأحوص الشاعر فاجترَّ الشطرنج، وطلب من يلعب فيه[1].

ويدل ذلك على معرفة الشعراء للشطرنج، وانتشار النوادي وأماكن التسلية، وقضاء أوقات الفراغ منذ العصر الأموي، التي كانت أشبه بالنوادي الرياضية الثقافية في عصرنا الحاضر.

وعكف الناس على ممارسة الشطرنج في العصر العباسي، وكان الناس يتداعون إليها، واستهوى لعب الشطرنج الخلفاء والوزراء وعامة المجتمع، وظهرت المؤلفات في الشطرنج وظهرت طبقة الشطرنجيين المسلمين[2]. وكان عمر بن عبد العزيز الشاعر (210هـ) من رجال الخليفة المهدي، وكان يلعب الشطرنج في بلاط الخليفة.

وقد وصف الشعراء الشطرنج والشطرنجيين في أشعارهم، وبالغوا في وصفها، فكانت حاضرة في الشعر العربي، فعلي بن الجهم يشبه الشطرنج بساحة المعركة، واصفاً هذه اللعبة فأحسن في وصفها، يقول[3]:

أرضٌ مُربَّعةٌ حَمْراءُ مِنْ أَدَمٍ ... ما بَيْنَ إلفَيْنِ مَعْرُوفينِ بالكرمِ
تذاكَرَا الحربَ فاحتالا لها فطَنَاً ... من غيرِ أنْ يأثما فيها بسفكِ دمِ
هذا يُغيرُ على هذا وذاكَ على ... هذا وعَيْنُ حليفِ الحَزْمِ لم تَنَمِ

---

(1) الأصفهاني، الأغاني، ج4/ 178.
(2) ابن النديم، الفهرست، ص 189- 190.
(3) ديوان علي بن الجهم، ص 179.

فانْظُرْ إلى بُهمٍ جاشَتْ بمعركةٍ   في عسكرينِ بلا طبلٍ ولا عَلَمِ[1]

وقد وصف ابن الرومي الشطرنج، وفصَّل في أوصافه في قصيدة طويلة يعاتب فيها أبا القاسم الشطرنجي، يقول منها[2]:

ربّما هالني وحيّر عقلي   أخذُك اللاعبين بالبأساءِ
تُهْزِم الجمعَ أوحدياً وتُلوى   بالصناديد أيّما إلواءِ
وتحط الرِّخاخَ بعد الفرازيـ   ـن فتزداد شدة استعلاء
واحتراسُ الدهاة منك وإعصا   فك بالأقوياءِ والضعفاءِ
وأرى رقعة الأدم الأحـ   ـمر أرض عللتها بدماءِ
غَلِط الناسُ لست تلعب الشطـ   ـطرنج لكن بأنفُس اللُّعباء

وأما النرد، فهي من نتاج الفرس، وانتشرت في العصر العباسي، وقد أكثر الشعراء من وصفها أيضاً، وقد ذمّ الشعر العربي النرد لارتباطه بالمقامرة، ومن ذلك أن أحد الشعراء كتب إلى صديق له يذم النرد، وكان بها مشتهراً، يقول[3]:

أيها المعجبُ المفاخرُ بالنّر   د ليزهى بها على الأخوان
قد لعمري حرصتَ جهداً على قمـ   ـرك لو لم تواتك الفصان
غيرَ أن الأريب يكذبه الظـ   ـن ويبكي لشدة الحرمان
وإذا ما القضاءُ جاءتْ بحكمٍ   لم يجد عن قضائها الخصمان

(1) الأدم: الجلد المدبوغ.   البُهم: جمع بُهمة، وهو الشجاع.
(2) ديوان ابن الرومي، ج1/ 46.
(3) المسعودي، مروج الذهب، ج4/ 301.

وقال آخر يصف لعبها وإحكام الفصين فيها[1]:

لا خيرَ في النردِ لا يغني ممارسها حُسن الذكاءِ إذا ما كان محروما
تُريك أفعال فصّيها بحكمهما ضدين في الحالِ ميموناً ومشؤوماً
فما تكاد ترى فيها أخا أدب يفوته القمْرُ إلا كان مظلوما

خامساً: العرب والهند

كان العرب على صلة بالعالم الخارجي عن طريق القوافل التجارية، واتصل العرب بالهند وبلاد السند منذ العصر الجاهلي عن طريق التجارة، حيث نجد ذكر بلاد الهند، وصفاتها، ومعارفها في كتابات الرحالة والجغرافيين العرب.

وأما في الشعر العربي فلا نكاد نجد تمثيلات يمتاز بها أهل الهند، فلم أعثر على صورة الآخر الهندي، فيما وقع بين يدي من شعر، إذ إن علاقة العرب بالهند ظلَّت ضبابية، ويلفُّها بعض الغموض، اقتصرت على الحديث عن بعض الصناعات التي تُنسب إلى الهند، وأبرز هذه الصناعات السيوف، والرماح الهندية، والتي كثر ذكرها في الشعر العربي منذ العصر الجاهلي وحتى نهاية العصر العباسي، فأدوات الحرب ظلّت تُنسب إلى الهند في جودتها ودقة صناعتها، واستحضر الشعراء السيوف المشرفية والهندية، والتي ضرب بها المثل في الدقة، والإتقان، وحُسن الصناعة.

وكان ملوك الهند يحرصون على إصدار الهدايا التي تشتهر بها بلادهم وأهمها السيوف، والثياب الهندية، والعطور، والطيب،

---

(1) المصدر نفسه، نفس الصفحة.

والكافور[1].

ويبدو أن اتصال العرب بالهند كان ضعيفاً، فقلّت تمثيلات أهل الهند في الشعر العربي واقتصرت على ما ذكر من أدوات كانت تنسب للهند، كالسيوف والرماح، قال الفرزدق في ذكر السيوف الهندية[2]:

بمثلِ سيوفِ الهندِ إذ وقعت وقد كسا الأرض باقي ليلها المتجوب

ونجد نسبة السيوف إلى الهند في دقة صناعتها عند المتنبي في معرض مدح ابن العميد[3]:

وتُنْسبُ أفعَالُ السُّيوفِ نُفُوسَها إليهِ وَيَنسُبْنَ السُّيوفَ إلى الهِنْدِ

وقوله[4]:

وما الصَّارِمُ الهِنْدِيُّ إلاَّ كغيرِهِ إذا لَمْ يُفَارِقْهُ النِّجادُ وغِمدُهُ

وازدادت صلة العرب بالهند أثناء الفتوحات الإسلامية، عندما وصل العرب إلى حدود تلك البلاد، وتم فتح الهند على يد محمد بن القاسم في سنة (93هـ)، واستوطن بعض التجار العرب بلاد الهند، وتزوّج بعضهم من نساء الهند، وعُرف أولادهم بالبياسرة، وتعني: الذي

---

(1) مقبول، أحمد، العلاقات العربية الهندية، ترجمة: نقولا زيادة، الدار المتحدة للنشر، بيروت، 1974م، ص 116.

(2) ديوان الفرزدق، ج1/ 18.

(3) ديوان المتنبي، ج2/ 168.

(4) نفسه، ج2/ 129.

يخلق عن البيض والهند[1].

وفي العصر العباسي تطورت معارف العرب عن الهند والحضارة الهندية، تلك المعارف والعلوم التي اشتهرت بها الهند كالرياضيات وغيرها[2]، وانتقلت هذه الآثار والعلوم عن طريق الترجمة المباشرة أو غير المباشرة. كما انتقلت بعض مظاهر التسلية والترفيه إلى المجتمع العربي كالشطرنج الذي يعود إلى أصول هندية، ونجد صدىً كبيراً في الشعر العربي للشطرنج في الشعر العربي.

كان حضور الآخر الهندي في الشعر العربي نادراً إن لم يكن معدوماً، ومعظم ما وصلت إليه من تمثيلات تقتصر على ما تنتجه الهند من السيوف، والرماح، والتوابل، والعطور، والثياب وغيرها. وربما يعود ذلك إلى بعد الهند عن بلاد العرب من ناحية، وقلّة الاحتكاك بين العرب والهند من ناحية أخرى.

ورد أن أحد الشعراء يكنّى (أبا الأصلع) يُنسب إلى الهند، فيقال: أبو الأصلع الهندي، وقد وردت له مقطوعة شعرية يمتدح فيها أرض الهند، وما تنتجه من صناعات، يقول[3]:

لَقَدْ يَعْذِلُني صَحْبي ... وما ذاكَ بالأمْثل
وفي مِدْحتي الهندَ ... وسهمُ الهندِ في المقْتَلْ

---

(1) الجاحظ، الحيوان، ج1/ 157.

وينظر: مقبول أحمد، العلاقات العربية الهندية، ص 123.

(2) صاعد الأندلسي، أبو القاسم صاعد بن احمد، (ت 462هـ) طبقات الأمم، تحقيق: حياة بو علوان، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1983م، ص 50.

(3) الجاحظ، الحيوان، ج7/ 171. وينظر: ضيف، شوقي، العصر العباسي الأول، ص 78.

وفـــيه الـــسَّاجُ والعـــاجُ   وفـــيه الفـــيلُ والـــدغفل[1]

وضُـرب المـثل بالعنـبر الهـندي في طـيب الـرائحة، حـيث فضَّلهُ بعضهم على سائر أصناف الطيب، قال أبو نواس في ذلك[2]:

ومـــن لـــو كـــان في الطـــيب   لكـــــان العنـــــبر الهـــــندي

وأمّـا الـثقافة الهـندية فاحـتلت مكانـة متميِّـزة في حضارة العصر العباسي، وكان أكبر تأثيرها في مجال المعارف، والعلوم، والفلسفة[3]. بينما كـان أثرها في الأدب والشعر قليلاً؛ لأن الهنود عُرفوا واشتهروا بالفلسفة، والحكمـة، والرياضـيات، والطـب، والتنجـيم، تلـك المعارف التي عرفها العرب عن طريق الترجمة.

وكانـت فـترة العلاقـات الثقافية بين العرب والهنود قد ازدهرت في القـرن الثانـي للهجـرة، حيث دخلت بلاد السند والبنجاب تحت نفوذ العـرب الـسياسي مـنذ أوائـل القرن الثاني، وكانت السند تمثل نقطة تأثر وتـأثير، للثقافة، والمعرفة بين العرب والهند، فتأصلت الاتصالات الثقافية بيـنهم، وكـان تـأثير اللغـة العـربية في الهـند كـبيراً على المستويين: الديني واللغوي[4].

وكـان البيرونـي في طلـيعة العلماء الذين زاروا الهند، وقام بدورٍ كبيرٍ في نقل وتصوير تراث الهند العلمي والفكري، ونقلـه إلى العربيـة في

---

(1) الساج: نوع من الخشب، الدغفل: ولد الفيل.

(2) ديوان أبي نواس، ص 113.

(3) الموافي، محمد عبد العزيز، حركة التجديد في الشعر العباسي، ص 52.

(4) مقبول، أحمد، العلاقات العربية الهندية، ص 17- 18.

كتابه الذي سماه: "تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة".

وكـذلك زار الرحالة مثل: المسعودي وابن حوقل والمقدسي بلاد الهند، وأسهموا في إثراء المعرفة العربية بتراث الهند- إسهاماً كبيراً.

ولعـل أثـر الثقافة الهندية في التراث العربي يتمثّل فيما نُقل عنهم مـن قـصص تنـسب إلـيهم، لاسـيّما القـصص الـتي قـيلت علـى ألـسنة الحيوانات والطيور، أو القصص الرمزية التي كانت تهدف إلى تنمية الحس الأخلاقـي والأدب الاجتماعـي، وترمـي إلى معالجـة بعـض العـيوب الاجتماعـية أو الـسياسيّة، مـثل كتاب: كليلة ودمنة، وحكايات ألف ليلة ولـيلة الـتي تعود إلى الأصول الهندية، وكذلك بعض المؤلفات الهندية التي تزخـر بالخـرافات والأسـرار والغـرائبية كالـسندباد الـصغير، والـسندباد الكـبير، ومـن الكـتب الهـندية الأخرى التي وصلت إلى بلاد العرب "ثمار الحكمـة" في الموسـيقى، وغيرهـا مـن الكـتب الأخـرى الـتي نقلـت بفعل الترجمة[1].

(1) ينظر: الموافي محمد، حركة التجديد في الشعر العباسي، ص 53.

الخاتمة

اختلط العرب بالآخر من الأعاجم منذ العصر الجاهلي، وازداد اتصال العرب بغيرهم في العصر الإسلامي، ولاسيَّما أثناء الفتوحات الإسلامية، فاتسعت حدود الذات العربية مما مكَّن العرب معاينة الآخر والتواصل معه، وتحديد أوجه الافتراق والاختلاف بينه وبين الآخرين، ومن أهم هذهِ الاختلافات، النسب، واللغة العربية، والثقافة.

ونظر العربي إلى الآخر من خلال الثنائيات، العرب والعجم، والأبيض والأسود، وتعدد الآخر وأصبح آخرون في الدولة الأموية والعباسيةِ، وظهرت صورة الآخر في الشعر العربي، ومن مظاهر صورة الآخر، الاختلافات التي أقامها العربي على الدلالات اللونية، فالعربي يصف ذاته بالسُّمرة، وينسب الصُهبة والحُمرة للآخر، ومن مظاهر الاختلافات، أيضاً، تلك القائمة على لون الشعر والعينين والأزياء، فالعمامة ظلَّت من مؤشرات هُويَّة العربي حتى آخر العصر العباسي، كما أحسّ العربي بالغربة اللغوية عندما يستمع لتراطن الآخر، كتراطن النبط.

إن الإسلام بوصفه ديناً وفكراً ارتقى بالشخصيَّة العربية من بناء عِرقي إلى بناء فكري وثقافي، فألقى الثنائيات التي كانت قائمة على النسب، ودعا إلى وحدة الناس، وبرزت هُويَّة دينية عالمية، تمثلت في المسلم وغير المسلم، أو دار السلام ودار الحرب.

وفي عصر الدولة الأموية، عادت ثنائية العرب والآخر، إذ تبنَّت الدولة الهُويَّة العربية، وحرصت على الاهتمام بالنسب العربي،

واحتقرت الآخر- الموالي- فعادت المفاخرة بالأنساب والأحساب، وكرّست الدولة الأموية الهُويَّة العربية، وأخذت الذات العربية تزهو بتفوقها على غيرها من الأجناس، مما أدّى إلى ظهور الشعُوبيَّة، وانطلق الشعوبيون من البحث عن المساواة مع الشعوب الأخرى، والتخلّص من امتيازات العرب، مما مكّنهم فيما بعد، من تجاوز ذلك إلى احتقار العرب والسخرية بحياتهم، والفخر بالعرق الفارسي، فظهر ذلك جلياً في شعر إسماعيل بن يسار، وبشار بن برد، وغيرهم، واحتدم الصراع الأدبي بين العرب والأعاجم في العصر العباسي الأول عصر سيادة العنصر الفارسي فتفوقوا على العرب وغيرهم، وخلفت العداوة الجنسية والتعصب الشعوبي تراثاً ضخماً من الأدب الشعوبي، وتجلت هذه النزعة في صورة مناقضات شعرية ذات طابع سياسي وفكري.

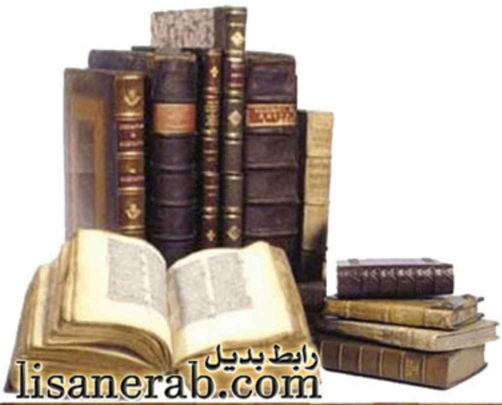
وكان حضور الآخر الفارسي في شعر العرب يفوق غيره من الأمم والأجناس التي شكّلت مجتمع الدولة العباسية، وكان أغلب الشعراء من أصول غير عربية، واستخدموا لغة العرب في تعبيرهم، لأن أكثرهم تمكن من العربية وبرع فيها.

ويعد العصر العباسي أعظم عصور الأدب وأكثرها ازدحاماً بالأحداث السياسية، والفكرية، والثورات، واختلاط الدماء، فظهرت طبقة الهجناء والسّراري، وأقليات أخرى، كالنبط، والزّط، والزنج، وغيرهم، مما ولّد صورة هذه الأقليات في الشعر العربي.

وعرف العرب الروم من خلال دلالات الحُمرة، والصُّهوبة، وسبوطة الشّعر، وزرقة العينين، وكانت العلاقة القائمة بين العرب والروم تقوم على الحرب والعداء، فبرزت صورة جيش الروم وقادته،

وصور المعارك الحربية، والمناظرات الشعرية ذات الطابع السياسي، وكثر وصف الروم بالعلوج في الشعر العربي.

كان الفرس والترك والروم من أكبر الأجناس التي شكلت المجتمع العباسي، ومنذ بدء العصر العباسي تراجعت الذات العربية، وحلَّ الآخر مكانة متميزة ومتقدمة، فكان النفوذ والسيادة ينتقل من الآخر الفارسي إلى الآخر التركي، والعرب بين هؤلاء ليس لهم من الأمر إلا ظاهره.



تهدف هذه الدراسة إلى تناول صورة الآخر في الشّعر العربي، مُنْذُ العصر الأَموي- عصر تأسيس الدولة العربية، وتغليب الجنس العربي وتفوقه على غيره من الأجناس، إلى نهاية العصر العباسي، عصر الانفتاح الثقافي والفكري، وامتزاج الأجناس، وتعدد الهُوِّيات، ونفوذ الآخر، في مقابل انحدار الذات العربية وانكماشها.

وتبحث الدراسة في تجليات صورة الآخر وتمثيلاته في الشعر العربي، كالفارسي والرّومي والتركي،...، ومفهوم الآخر نسبي ومطّاط، إذ تتعدد مدلولات الآخر وتتشعَّب، فقد يشير الآخر إلى كل ما اختلف عن الذات في الجنس، الطبقة، المجتمع، فالذكر يمثل الآخر بالنسبة للأنثى: الفرد والجماعة، الفقير والغني، السيِّد والعبد،...، والمقصود بالآخر في هذه الدراسة هو غير العربي، وتحديداً، من لم يصل نسبه بقبائل العرب، وهو ما أطلق عليه: الأعاجم، من فرس وروم وأحباش وغيرهم، وتَجَلّى البحث زمنياً في شعر العصرين الأموي والعباسي، أزهى عصور الدولة العربية على ما بينهما من اختلاف وافتراق في حضور الآخر وفاعليته. فالبحث في صورة الذات والآخر ومسألة الهُويّة والاختلاف في سياق الفكر العربي الإسلامي ضمن دائرة الشعر العربي يمثل الأفق الذي يدور فيه البحث.

ومنذ البدء كان أثر الإسلام عظيماً في الفكر والثقافة، فقد وحّد العرب والمسلمين، ودشّن الاعتراف بالآخرين، ضمن هُويّة دينية انصهرت فيها الأعراق والأجناس، فدعا الإسلام إلى خلخلة ثنائية الأنا والآخر، وحارب الاعتداد بالأعراق والأنساب، وحث على الانفتاح على العالم وتجسيد الهُويّة الدينية، وظهرت ثنائية: المسلم والكافر في مقابل ثنائية العربي والعجمي في العصرين الأموي والعباسي.

عالم الكتب الحديث
Modern Book World
طباعة - نشر - توزيع
الأردن - اربد - شارع الجامعة
هاتف: 96227272272+ / خلوي: 0795264363
فاكس: 96227269909+
ص. ب 4369 / الرمز البريدي : 21110
almalktob@yahoo.com
almalktob@hotmail.com
almalktob@gmail.com

جدارا للكتاب العالمي للنشر والتوزيع
الأردن - العبدلي مقابل جوهرة القدس
فاكس: 065667211

Designed by Manar Omari